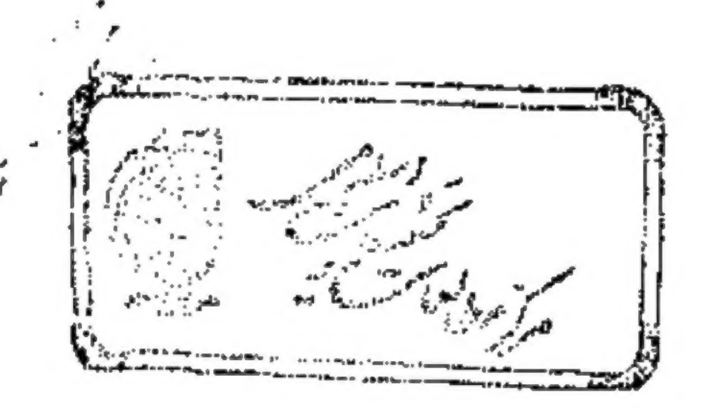


مجلة كلية الآداب

تصدرها كلية الآداب بجامعة بغداد

العدد الثاني

شباط ١٩٦٠

مطبعة العاني – بغداد

صدر من المجلة ثلاثة اعداد باسم مجلة « كلية الآداب والعلوم » فى حزيران ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ .

والعدد الاول من « مجلة كلية الآداب » فى حزيران ١٩٥٩

المحتويات

خريدة القصر وجريدة العصر

تأليف العماد الاصفهاني الكاتب

شعراء مصر

للدكتور مصطفى جواد
الاستاذ فى قسم اللغة العربية
بكلية التربية ـ والمحاضر فى كلية
الآداب

نشره المرجوة له الرحمة الاستاذ أحمد أمين والاستاذ شوقى ضيف والاستاذ احسان عباس فى جزءين الأول فى ٢٩٣ ص من قطع الثمن ٠وقد طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٥١ والثانى فى ٢٥٩ ص مع الفهارس ولم يشر الى سنة طبعه ٠

وهذا الكتاب أشهر من أن يعرف للقراء ، وقد طبع منه من شعراء العراق جزء واحد تولى طبعه المجمع العلمى العراقى ومن شعراء الشام جزآن تولى نشرهما الدكتور شكرى فيصل الدمشقى ، وقد اعد جماعة من الادباء أجزاءاً أخر منه للطبع ٠

ان جزءى شعراء مصر قد صدر أولهما بمقدمة للاستاذ أحمد أمين ، ومهد له الاستاذ شوقى ضيف بتوطئة سماها « المدخل » وقد ذكر فيها كيفية اشتغالهم وعنايتهم بهذا الكتاب وتكلم على النسخ التى توفرت لديهم ومنها مصورة دار الكتب المصرية قال :

١ ـ « وهى تبدأ بمقطوعات شعرية نجد فى أثنائها : وأنشد فى بعض فضلاء مصر لابن الحباب[1] ٠٠٠» هكذا بالحاء المهملة ، والذى حفظناه من تاريخ القاهرة « ابن الجباب » بالجيم ، قال الذهبى فى المشتبه ـص١٣٨ـ:

---

(١) وقد كرر الاستاذ شوقى ضيف هذا الخطأ فى الصفحة المذكورة ، قال : « وهى تبدأ ببقية ترجمة القاضى الجليس بن الحباب » ٠ وفى صفحات ١٧٤ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ٠

وبموحدة [الجباب] أبو البركات عبدالقوى بن الجباب المصرى وأقاربه ، كان جدهم عبدالله يعرف بالجباب لجلوسه في سوق الجباب •• ثم قال فى الصفحة ١٦٩ : « وبجيم مفتوحة [الجليس] القاضى الجليس عبدالعزيز بن الجباب » • وقال الفيروزأبادى فى القاموس : « وعبدالقوى بن الجباب ككتان لجلوس جده في سوق الجباب » وقال الزبيدى فى التاج : « وأبو البركات عبدالقوى بن الجباب ككتان[1] المصرى لجلوس جده عبدالله فى سوق الجباب » •

والظاهر أنه منسوب الىالجب ، وهو المزادة يخيط بعضها الى بعض[2] ، كما فى القاموس أو الى الجبة وهى الرداء المعلوم المشهور •

٢ ـ وجاء فى الصفحة ٨ من ذلك الجزء قول العماد الاصفهانى :

تقول الى مصـــر تســير تعجبا ‏ ‏ وما الذى تبغى ومن لك فى مصر؟

والشطر الثانى مكسور ، والبحر الطويل ، فلعل الاصل « وماذا الذى تبغى ومن لك فى مصر » •

٣ ـ وورد فى الصفحة ١٧ قوله :

أيبلــغ دهرى قصـدى وقـد ‏ ‏ قصـدت بمصـــر ذرى يوسف

وقد ضبطوا « ذرى » بضم الذال منها ، وقالوا فى الحاشية : « يقال : أنا فى ذرى فلان أى فى ظله وفى نعمـه » • والصحيح فتـح الذال من « ذرى » لانه مفرد ، والذرى جمع الذروة ، والذرى بفتح الذال هو فناء الدار ونواحيها والملجأ وكل ما استتر به ، يقال : اتخذت الحائط ذرى لى أى أويت اليه وأنا فى ذرى فلان أى فى كنفه ورعايته ، وفلان كريم الذرى أى كريم الطبيعة •

---

(١) وقع فى طبعة بولاق « ككتاب » وهو خطأ من النسخ أو الطبع •

(٢) وفى التاج : « والجب فى حديث ابن عباس ، نهى النبى ـص ـ عن الجب فقيل وما الجب؟ فقالت امرأة عنده : هو المزادة يخيط بعضها الى بعض ، كانوا ينتبـذون فيهـا حتى ضريت أى تعـودت الانتباذ فيهـا واشتدت عليه ويقال لها المجبوبة أيضا •

٤ ـ وجاء في الصفحة ١٩ قول العماد أيضا :

وافى بسرح للنقاد فكان في   لقيا الاسود الضاريات سراحه

فقالوا في الحاشية : « والنقاد جمع نقاد وهو راعي جنس من الغنم قبيح الشكل والاستعارة واضحة » . قلنا : لم يقل أحد ان « النقاد » بكسر النون وتخفيف القاف جمع « النقاد ككتان » ، ولا يجوز هذا في القياس، والصحيح أن « النقاد » بكسر النون جمع « نقدة » بالتحريك وهي شاة قصيرة الارجل ، أما « النقاد » بتشديد القاف فيجمع جمعا سالما بالواو والنون أو بالياء والنون ، ولا جمع له غيره في السماع والقياس . واللام في « للنقاد » من البيت بمعنى « من » أي من النقاد .

٥ ـ وورد في الصفحة المذكورة بعينها « ولك الكعوب مقومات[١] للردى » برفع « مقومات » والصواب نصبها على الحالية كقول العرب « لك حكمك مسمطا » ولا يجوز غير ذلك .

٦ ـ وجاء فيها أيضا « النهد : النهوض للعدو والصمود له » . ولم يرد « الصمود » في قول فصيح من الفصحاء وانما هو من اشتقاق التراجمة العصريين الذين كانوا يترجمون البلاغات الحربية ، وهم يستعملونه بمعنى الثبات فيكون استعمالها ضغثاً على ابالة ، فالصواب « الصمد » يقال « صمد اليه صمدا وقصد قصدا وسار سيرا » .

٧ ـ وجاء في الصفحة المقدم ذكرها ولنسمها « أم الغلط » قوله :

كم سابق برداه يردى سابح   في بحر هلك ما نجا سباحه

بناء « يردى » للمجهول ، باعتبار أنه مضارع « أردى » أي أهلك ، وليس له معنى وجيه ولاجناس مقبول عند مثل العماد ، فالصواب « يردى »

---

(١) قالوا في شرحها : « يريد كعوب السيف ومقومات : مشهرات » ، والصواب « مشرعات » و « كعوب الرماح » فانا لم نجد للسيف كعوباً وانما الكعوب للرماح ، ولا يقال « أشهر السيف » بل شهره ، من الثلاثي .

على وزن يرمى أي يضرب الارض بحوافره يقال « ردى الفرس يردى رديا ورديانا » ، أما قوله « في بحر هلك ما نجا سباحه » فانما جاء بالهلك ليكون مناسبا للنجاة في قوله « ما نجا » سباحه .

٨ ـ وجاء في الصفحة (٢٠) قوله :

ضرب الطلى بالمشرفى طلابكم وبراح من شرب الطلا طلاحه

هكذا بقصر الطلاء وتشديد اللام بعد ضم الطاء من « طلابه » مع أنهم قالوا في الحاشية : « الطلاح ضد الصلاح » . فالصواب اذن « وبراح من شرب الطلاء طلاحه » .

٩ ـ وجاء في الصفحة (٢٠) قوله :

وله فوارس بالنفس سماحها أتعاد بالعرض المصون شحاحه؟!

هكذا ببناء الصيغة للمجهول من يعيد ، وليس له معنى معقول والصواب « أيعاب بالعرض المصون شحاحه ؟ » أي هل يكون صون العرض بشح وحرص عيبا على الصائن الحافظ ؟

١٠ ـ وجاء في الصفحة ٢٢ « واذا انتدى في محفل فحييه » بفتح الحاء من « محفل » والصواب كسرها لانه من حفل يحفل بكسر الفاء ، وان كانت العرب تجيز كسر ما حقه الفتح كالمسجد والمسكن والمطلع فهي بالحرى أحرص على كسر مستحق الكسر كالمحفل .

١١ ـ وورد في الصفحة ٢٢ قول العماد : « ومنها قصيدة أخرى انفذتها اليه من دمشق الى مصر قبل مملكة الشام ... » هكذا باثبات التاء المثناة من فوق ، والصواب « قبل مملكه الشام » والمملك مصدر ميمي من الفعل « ملك » أي قبل مملكه الشام أي امتلاكه اياه واستيلائه عليه ، وليس من معنى مقبول للجملة باثبات التاء في « مملكة » .

١٢ ـ وجاء في الصفحة ٢٣ قوله : « حتى عصيت اللواحى » وهو جمع اللاحية أي اللائمة ، فقالوا : « اللوائح جمع لائح وهو اللائم » ،

فأخطؤوا خطأين ، أحدهما شرح كلمة غير موجودة فى الكتاب والآخر أعتدادهم اللوائح جمعا للائح ، مع أن من القواعد المقررة التى يدرسها شداة الصرف أن « فاعلا » للعاقل لايجمع على فواعل ، الا ما شذ كفارس وفوارس قال الجوهرى فى الصحاح : « الفرس يقع على الذكر والانثى ... وراكبه فارس أى صاحب فرس ، وهو مثل لابن وتامر ، ويجمع على فوارس وهو شاذ لا يقاس عليه لان فواعل انما هو جمع فاعلة كضاربة وضوارب ، أو جمع فاعل صفة لمؤنث كحائض وحوائض ، أو صفة أو اسما لغير الآدمى كبازل وبوازل وحائط وحوائط فاما مذكر من يعقل فلا يجمع عليه الا فوارس وهوالك ونواكس » .

١٣- وجاء فى الصفحة ٢٦ قوله :

فدت مهجتى من لا يذم لمهجتى اذا حاكمته وهو فى الحكم مشتط

وقد ضبطوا « يذم » بالبناء للمجهول ، من ذمه يذمه ضد مدحه يمدحه ، ولم يسألوا أنفسهم عن معنى الشطر الاول فى هذا الضبط ، ان المعنى تافه والصواب « من يذم لمهجتى » مضارع « أذم له اذماما » أى أعطاه ذمته وعهده ليكون تحت حمايته ، وقد جاء فى أخبار استيلاء البساسيرى على بغداد سنة (٤٥٠) قول الوزير أبى القاسم على بن المسلمة الملقب رئيس الرؤساء لقريش بن بدران العقيلى : « أمير المؤمنين يستذنيك » ثم قال « فان أمير المؤمنين يستذم منك على نفسه وأهله وأصحابه بذمام الله وذمام رسوله -ص- وذمام العرب . فقال قريش: قد أذم الله تعالى له ... فبلغ البساسيرى ذلك . فراسله وقال : أتذم له وقد استقر بينى وبينك ما استحلفتك عليه[1] ؟! » .

١٤ - وورد فى الصفحة ٢٧ قول العماد الاصفهانى أيضا :

أغر لكف الكفر كف بأسه كما لفقار الفقر من جوده وهط

---

(١) المنتظم فى تاريخ الملوك والامم « ٨ : ١٩٣ » .

فقالوا فى الشرح : « الفقار جمع فقرة وهى ما انتضد من عظام الظهر» .
والصواب أن « الفقار » جمع لغوى لفقارة بفتح الفاء بمعنى الفقرة ، والجمع
اللغوى هو اسم جنس جمعى ، فالفقرة لا تجمع على فقار بل على فقر .

١٥ ـ وجاء فى الصفحة ٢٧ قوله :

صنائعه ربط الكرام وانها   لوفد أياديه المصانع والربط

فقالوا فى الحاشية : « المصانع المبانى من الحصون ، والربط هنا جمع
رباط وهو الثغر الذى يرابط فيه الجيش » . والصحيح أنه أراد بالرباط
المعنى الحديث أى ما يشبه الدير عند النصارى ويسكنه المتصوفة والفقراء
فيجدون الغذاء الكافى والمنام والملبس ، وهو المعروف بالخانقاه والخانكاه
بالفارسية وشاع اللفظان الاخيران بمصر الشام دون العراق فان العراقيين
لم يعرفوا له الا كلمة الرباط والربط والاربطة للكثير والقليل .

١٦ ـ وجاء فى الصفحة (٣٠) قوله :

أعرني جميلا واصطنعني واصف لى   جميلك حتى يشمت الحاسد المنض

وقد ضبطوا « اصف » بضم الفاء وهو أمر من « الصفو » الثلاثى ،
ونصبوا « جميلك » به مع أنه لازم بهذا المعنى الذى هو ضد « كدر »
والصحيح « أصفنى » الرباعى يقال « أصفاه الود وأصفاه له اصفاءاً أى
أخلصه له ، وعلى التحقيق بمعنى جعله له صافياً ، وهو المراد بأصفنى جميلك
الواردة فى بيت الشاعر .

١٧ ـ وورد فى الصفحة (٣٠) أيضا قوله :

لابدى بلا عذر حظوظ فضائلى   نفار العذارى من عذار به وخط

فقالوا : « الوخط الشيب » والصحيح هو أن يخالط الشيب سواد
وبين الحالين واللونين فرق عظيم فان اللحية الموخوطة هى اللحية الخرجاء أى
السوداء البيضاء .

١٨ ـ وذكروا فى حواشى الصفحة ٣٥ مظان ترجمة القاضى الفاضل وفاتهم منها الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير لتاج الدين أبى طالب على بن انجب المعروف بابن الساعى البغدادى الاديب المؤرخ « ٩ :٨٢» ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى « ٨ : ٤٢٧ » وعيون الانباء فى طبقات الاطباء استطرادا ، والغريب أن أبا شامة اقتصر على ذكر سنة وفاته « الذيل ص ١٧ » .

١٩ ـ وجاء فى الصفحة ٣٨ قول القاضى الفاضل :

نابت كتـــابته منـــاب كتيبـــة   كُفلَتْ بهزم كتائب وجحافل

هكذا بنباء « كفلت » للمجهول ، وهو خطأ لان الكتيبة هى الكافلة فينبغى بناء الفعل للمعلوم ، يقال : كفل بالشىء أى ضمن به .

٢٠ ـ وجاء فى الصفحة (٤٠) قول القاضى الفاضل :

ألقيت عنـــد مثـــار عيسهم   نفسى وقلت : خدى على خدى

هكذا بفتح الميم من « مثار » باعتداده اسم مكان من الثلاثى « ثار » والصواب ضم الميم لانه من الرباعى « أثار » فالعيس تثار عند الارتحال ولا تثور ، فالمثار بضم الميم موضع اثارتها كما أن « المناخ » بضم الميم موضع اناختها .

٢١ ـ وورد فى الصفحة ٤١ قوله أيضا :

يســدى الى منـــير أنعمـــه   وأنير مدحتـــه كمـــا أسـدى

فقالوا فى شرحه : « أنير من أنار اذا غرز الابرة فمعنـاه أخيط » . وفى هذا القول تدليس لغوي يؤدى الى التدليس فى الشرح ، وبيان ذلك أن غرز الابرة غير الخياطة وأن غرز الابرة ليس من معانى « الانارة » التى فعلها « أنار » وأن هذا الغرز هو شىء تابع للتنوير لا للانارة ، قال فى لسان العرب: « النؤور : النيلج وهو دخان الشحم يعالج الوشم ويحشى به حتى يخضر ... وقد نور ذراعه اذا غرزها بابرة ثم ذر عليها النؤور » .. وقال فى القاموس:

« ونور الشجر تنويرا : أخرج نوره كأنار ؛ والزرع : أدرك ؛ وذراعه غرزها بابرة ثم ذر عليها النؤور » ، فهذا هو التنوير المأخوذ من النؤور أى دخان الشحم ، والظاهر لنا انهم لما رأوا قول الفيروزأبادي « كأنار » للشجر جروه الى الذراع واستعاروا له الغرز بالابرة وتركوا « النؤور » الذى هو منشأ اشتقاق الفعل ، ليتوصلوا بالغرز الى الخياطة فلم تنفعهم الخياطة لان الشاعر قال « وأنير مدحته كما أسدى » فالشرح يحتاج الى ما يليق بالفعل « يسدى » أي يقيم ال .ى وهو ما مد من خيوط الثوب قبل حوكه ، فهو خلاف اللحمة ، ولا محل للخياطة .

والصواب أن « ينير » من « أنار » اليائى الاصل ، قال فى القاموس : « النير بالكسر القصب والخيوط اذا اجتمعت وعلم الثوب جمعه أنيار . ونيرت الثوب نيرا ونيرته وأنرته : جعلت له نيرا ، وهدب الثوب ولحمته » . وقال فى لسان العرب : « ويقال للحمة الثوب نير » فأناره ينيره : جعل له لحمة وهى التى تحاك مع السدى ليكون المحوك ثوبا ، وهذا المعنى الذى ذكره الشاعر قديم ، جاء فى لسان العرب قول الزفيان :

ومنهل طام عليه الغلفق ينير أو يسدى به الخدرنق

وقول الكميت :

فما تأتوا يكن حسنا جميلا وما تسدوا لمكرمة تنيروا

وقال فى اللسان « نرت الثوب أنيره نيرًا وأنرته نيرته اذا جعلت له علما » ثم قال : « ونيرته وأنرته ... جعلت له نيرا » . وهذا هو الاصل .

وقد ارتكب الناشرون الغلط بعينه فى ترجمة على بن عرام[1] فى قوله :

من يحوك القريض مثلك يسديـ ـه على خبرة به وينير

---

(1) الخريدة « ٢ : ١٧٦ » .

فقالوا فى شرحه : « ينير : يخيط » وهكذا أصبح الخطأ مزمنا فانتدبت لاصلاح ما أفسد ..

٢٢ ـ وقالوا فى الصفحة بعينها : « يسدى هنا من السدى وهو ما مدّ من الثوب » والصحيح أن السدى هو خلاف اللحمة وهو ما مد من خيوط الثوب قبل حوكه ، فخيوطه الطولية سداه وخيوطه العرضية لحمته ، فالمد المطلق فى الثوب لا محل له هنا .

٢٣ ـ وجاء فى الصفحة ٤٣ قول القاضى الفاضل أيضا :

أيكون زبدة ما أؤمله عدم التمخض فيه عن زبد

فقالوا فى الحاشية : « التمخض : استخراج الزبد من اللبن » . وليس ذلك بشرح وجيه ، قال فى لسان العرب : « مخضت [المرأة] ومخضت وتمخضت وامتخضت » . أى ضربها المخاض ثم قال : « ومخض اللبن يمخضه ويمخِضُه ويمخُضُه مخضا ، ثلاث لغات ... أخذ زبده وقد تمخض ... والمخضة : الابريج وأنشد ابن برى :

لقد تمخض فى قلبى مودتها كما تمخض فى ابريجه اللبن

... والسحاب يمخض بمائه ويتمخض ، والدهر يتمخض بالفتنة ... وتمخض اللبن وامتخض أى تحرك فى المخضة » .

ومما نقلنا يعلم أن « تمخض » بمعنى تحرك فى البطن أو تحرك فى الوعاء والسقاء أو الابريج ، وهو لازم لا يصح أن يفسر بالمتعدى الذى هو الاستخراج ، ثم ان عدم التمخض هو مسند الى مأمول الشاعر ، فينبغى أن يقال : « ان التمخض هو تحرك اللبن وما يقوم مقامه مجازا ، ليخرج زبده أو المرجو والمأمول منه » وقد يكون للشر .

٢٤ ـ وجاء فى الصفحة ٤٤ « ومخرج السقام » والصواب « محرج » بالحاء المهملة فان السقام يحرج السقيم ولا يخرجه . والاحراج الصق بالمريض من الاخراج ما دام مريضا ، فلا محل للاخراج ها هنا .

٢٥ ــ وجاء فى الصفحة ٤٦ قول العماد « ومرى ضرع الضراعة » بكسر الضاد من « ضرع » والصواب فتحها وهو مدر اللبن للشاة والبقرة ونحوهما ، والضرع بكسر الضاد له معنى آخر هو المثل وقوة الحبل ، تقول « ضارعه يضارعه فهو ضرعه ، مثل ماثله يماثله فهو مثله ، وشابهه يشابهه فهو شبهه » .

٢٦ ــ وجاء فى الصفحة المذكورة قول العماد أيضا : « مارن ما رن المعادى العادى بنغم الرغم » . فقالوا فى الشرح : « المارن : الرمح الصلب » ولا محل للرمح الصلب مع الرغم والرغام الخاصين بالانف كما هو معلوم ، فالمراد اذن « مارن الانف » وهو طرف الانف أو ما لان من طرفه وهو الاصح لدلالته على المرونة ، والمعنى ما دام القسم الرقيق من طرف الانف من المعادى المعتدى راغما له رنين من اصابة الرغام اياه أى التراب .

٢٧ ــ وجاء فى الصفحة قوله : « وفاء الى تأمل ضمنه فألفى بتأميل آلاء منه وفاء ضمينه » .. بتنوين « تأمل » وجعل « ضمن » فعلا ماضيا ، ولا وجه له البتة ، لان التأمل وهو تدقيق النظر فى الشىء لا يضمن ولا يفاء اليه ، فالصواب أن « ضمنه » مضاف ومضاف اليه و « التأمل » مضاف الى الضمن ، اضافة المصدر الى مفعوله ، والضمن على وزن الفعل هو ثنى الكتاب وطيه فاذا تأمل ثنيه عرف ما كتب فيه ، فبعثه تأميل الاحسان منه على أن وجد ما فيه من الوعد موفى به كالمضمون . قال فى المختار : « وأنفذته ضمن كتابى أى فى طيه » ، وقال : وفهمت ما تضمنه كتابك أى ما اشتمل عليه وكان فى ضمنه » .

٢٨ ــ وورد فى الصفحة ٤٧ قول العماد : « وما أثر مدرة الفلاة فى مدار الفلك الاثير » . هكذا بالتركيب الوصفى ، وهو خطأ والصواب « فلك الاثير » بالاضافة ، أو « الفلك الاثيرى » نسبة الى الاثير المعروف ، قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ١ : ٢٨ : « وعندهم أن الشهب المنقضة هى آثار تظهر فى الفلك الاثيرى النارى الذى تحت فلك القمر » .

٢٩ ـ وورد في الصفحة ٤٧ أيضا « قياس أياد يضيق عن خصر خصرها نطاق نطق قس اياد » ، هكذا باعجام الخاء من « خصرها » والصواب « حصرها » أي حصر احصائها ، ولاوجه لبقـــاء خصر خصرها ، فليس للخصر خصر ، كما هو معلوم •

٣٠ ـ وورد في الصفحة المذكورة « ونوافل عمـل أغمضها لبـاب قروضه » بالقاف في « قروض » ولاوجه له ، والصواب « فروضه » بالفاء فالفروض تقابل النوافل ، كما هو بديهي ، والقروض لا تقابلها •

٣١ ـ وورد في الصفحة ٤٩ « وكان خاملا في حاشيته ، حامـــلا لغاشيته » فقالوا في الشرح « الغاشية الغطاء » • وهذا الشرح لا يناسب هذا المقام ، والغاشية على ما ورد في صبح الاعشى ـ ٤ : ٧ ـ « سرج من أديم مخروز بالذهب يخاله الناظر مصنوعا جميعه من الذهب ، يحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب الحافلة كالاعياد » •

والحوادث التاريخية تدل على أن حمل الغاشية على اختلاف مادتها واختلاف الذين تحمل بين أيديهم يدل على الاحترام ، ويرمز الى قبـول الاستخدام ، وأنها ليست بغطاء ولا لحاف ولا ثوب ولا وخاف •

٣٢ ـ وجاء في الصفحة (٥٠) قول العماد : « تلك عشرة كاملة في المشايعة ••• كعشيرة الصحابة في المبايعة ••• فهل كانت عدة أتمها بعشر لاكمالها أو حسنة جزاؤها بعشرة أمثالها ؟ »

وقد سكنوا الشين من « عشرة » وهي غير مركبة ، وجعلوا عشرة الصحابة المبشرين بالجنة « عشيرة الصحابة » • والعدة بكسر العين ضموا عينها قال في مختار الصحاح« عشرةرجال بفتح الشينوعشر نسوة بسكونها، ومن العرب من يسكن العين لطول الاسم وكثرة حركاته فيقول أحد عشر ، وكذا الى تسعة عشر الا اثنى عشر فان العين منه لا تسكن لسكون الالف والياء قبلها ، وتقول : احدى عشرة امرأة وان شئت سكنت الى تسع عشرة ،

والكسر لاهل نجد والتسكين لاهل الحجاز ، وللمذكر أحد عشر بفتح الشين لا غير » وفى المصباح أن تسكين الشين لغة .

والصواب فى « العدة » كسر العين ، لانها بمعنى العدد المعين المحدد لامر من الامور أو لشيء من الاشياء ، كأن يقال : « عشرت القوم أعشرهم تعشيرا : اذا كانوا تسعة فزدت واحدا وتمت به العدة » بكسر العين ، ومنه عدة المرأة وهى المدة الواجبة عليها فى التربص .

٣٣ ـ وقال العماد فى الصفحة (٥٠) : « وهل ابن خيران الا حيران فى ميدان هذا البيان » ، فقالوا فى الحاشية تعليقا على ابن خيران : « من أكبر كتاب الدواوين فى مصر أثناء القرن الخامس ، توفى سنة ٤٣٢هـ » . ولم يحيلوا بذلك على كتاب ولا ذكروا اسمه والصواب سنة ٤٣١ ذكره ياقوت الحموى فى معجم الادباء « ١ : ٢٤٢ » وقال : « أحمد بن على بن خيران الكاتب المصرى أبو محمد الملقب بولى الدولة صاحب ديوان الانشاء بمصر بعد أبيه . وكان أبوه أيضا فاضلا بليغا [وكان هو] أعظم قدرا من أبيه وأكثر علما ، وكان أبو محمد هذا يتقلد ديوان الانشاء للظاهر ثم للمستنصر وكان رزقه فى كل سنة ثلاثة آلاف دينار ، وله عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات رسوم يستوفيها من كل شيء يحسنه[1] . وكان شابا حسن الوجه جميل المروءة واسع النعمة ، طويل اللسان ، جيد العارضة[2] ... ثم ورد الخبر بأزمات فى شهر رمضان سنة ٤٣١ فى أيام المستنصر ... »

وقال ابن خلكان فى ترجمة أبى الحسن على بن أحمد بن نوبجت الشاعر : « وكنفه ولى الدولة أبو محمد أحمد بن على المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر وهذا ابن خيران كان يتولى كتب السجلات عن الظاهر بن الحاكم صاحب مصر وله ديوان شعر أيضا صغير الحجم ... وانما ذكرت

---

(١) فى معجم الادباء مرجع هذا القول « يحسبه » وهو تصحيف .
(٢) ها هنا قص قصة شعره ونثره وارساله بشيء منهما الى بغداد ليوضع فى دار العلم السابورية .

ابن خيران فى هذه الترجمة ولم أفرده بترجمة لانى لم أقف على تاريخ وفاته وقد التزمت فى هذا الكتاب ذكر أرباب الوفيات ثم انى وجدت فى كتاب طبقات الشعراء تأليف الوزير أبى سعيد محمد بن الحسين بن عبدالرحيم الملقب عميد الدولة ترجمة ولى الدولة ابن خيران المذكور وذكر له شعرا[١] ... » .

٣٤ ـ وورد فى الصفحة ٥٣ قول العماد :

رم رمّ أمرى وحل حالى ما كرم فى الورى كرمى

أراد : حاول اصلاح أمرى وجمل حالى فليس فى الدنيا فعل كريم كرم حالى أى اصلاحه ، وهو جناس كاتب مستهتر بالجناس . فقالوا فى الشرح : « رم أصلح والرم البالى والفاسد » . وقد علقوا ذلك على أول البيت وهو « رمْ » مع أنه فعل أمر من « رمت تروم » أى حاولت تحاول ، ثم ان البالى والفاسد لا محل له ها هنا ، وانما المراد مصدر « رمه يرمه » أى أصلحه يصلحه اصلاحا ، وأما البالى والفاسد فقد استنبطوا من قول الفيروزأبادي : « والرم بالكسر ما يحمله الماء أو ما على وجه الارض من فتات الحشيش » . وما أبعده عن المراد ؟ مع سوء التصرف باللغة ، فانهم يشرحون كما يريدون ويفسرون كما يحبون ، من غير استناد الى نص لغوى واضح ، ولو كان لهم نص لذكروه .

٣٥ ـ وورد فى الصفحة ٥٥ قول ابن كاد ويه :

وسمت محاسنك الزمان فلم تدع وقتا من الاوقات الا موسما

بنصب « محاسنك » ورفع « الزمان » والصواب العكس لان المحاسن تسمه فيكون موسوما بها ، بأن يقال « ذلك زمان محاسنه » . ثم ان وجود التاء فى « وسمت » يدل بالبداهة على أن الفاعل هو « محاسنك » .

---

(١) الوفيات « ١ : ٣٩٣ ، ٣٩٤ طبعة بلاد العجم » .

٣٦ ـ ووردت في الصفحة ٥٦ ترجمة علم الرؤساء أبي القاسم عبدالرحمن بن هبة الله بن حسن بن رفاعة كاتب الامير ناصر الدولة الحمداني الاصغر وهو غير ناصر الدولة بن حمدان الاكبر من رجال القرن الرابع وهذا من رجال القرن الخامس ، وقد أحالوا في التعريف بترجمة علم الرؤساء على كتاب المغرب لابن سعيد وحده ، مع أنه مترجم أيضا في تلخيص معجم الالقاب لابن الفوطي ، قال ابن الفوطي : « علم الرؤساء أبو القاسم عبدالرحمن بن هبة الله بن حسن بن رفاعة المصري الكاتب كان يعرف بكاتب الامير ناصر الدولة ، تقدم ذكره في كتاب السين[1] ، وديوان رسائل علم الرؤساء عشر مجلدات ، وذكره العماد الكاتب في كتابه وأنشد له في وصف القطائف المقلوة :

وافى الصيام فوافتنا قطائفه كما تسنمت الكثبان من كثب
ما بين محشوة بيض الى آخر حمر من القلى تشفى جنة السغب

وله في شمعة مذهبة :

كأنها من بنات الهند مثقلة من الحلي لكي تهدى الى النار[2]

وهذا النص وان كان منقولا من الخريدة بعينها ففيه فائدة الاقدار على المقابلة والمعارضة ابتغاء التصحيح او التأكيد .

٣٧ ـ وجاء في الصفحة ٥٧ قول علم الرؤساء ابن رفاعة : « مع تحققه أن لمدحه جادة جد تعجز حلبة الشعراء عن سلوكها » ، فغيروا « حلبة » وجعلوها « جلة » وقالوا في الحاشية : « في الاصل حلبة » . ولم يستندوا الى مرجع ولا الى سند لغوي قوي ، والاصل هو الصواب الموافق للمقام ، فان الجادة تناسب الحلبة لا الجلة ، فهي مستعارة من حلبة السباق ، قال في مختار الصحاح : « والحلبة كالضربة خيل تجمع للسباق من كل أوب أي من كل ناحية لا من اصطبل واحد » وجاء في المصباح المنير « والحلبة

---

(١) يعني في لقب « السديد » وكان من ألقابه .
(٢) تلخيص معجم الالقاب « ج ٤ ص ٨ من نسختي الاولى بخطي »

وزان سجدة : خيل تجمع للسباق من كل أوب ولا تخرج من وجه واحد ، يقال جاءت الفرس فى آخر الحلبة أى فى آخر الخيل وهى بمعنى حلبية ولهذا جمعت على حلائب »[1] •

٣٨ ـ وجاء قول ابن رفاعة فى الصفحة ٥٨ :

غانيـــة عن حـلي غانيــــة   بحسن عاط من جيدها عاطـل

فقالوا : « العاطى : قريب التناول » ولكن كيف يوجهون معنى البيت ، وكيف يكون القريب التناول عاطلا ؟ ذلك لان « عاطل » وأعربه على الحكاية ، هو صفة لعاط ، والصفة لاتكون نعتاً للصفة ، والصحيح أن العاطى هاهنا هو الجيد ، والتعبير من نوع التجريد كما تقول « بحسن لفظ مـن لفظه بارع » ، والسبب فى استعمال « عاط » هو المجانسة الناقصة مـع « عاطـــل » •

٣٩ ـ وورد فى الصفحة ٥٩ قوله :

أنصاره عصبة التتابع فى الجهـ   ـل وأحزاب طالبى الباطـل

هكذا بالباء الموحدة فى « التتابع » والصواب « التتايع » بالياء المثناة ، قـال الجوهرى فى تيع ، « والتتايع : التهافت فى الشر واللجاج ولا يكون التتايع الا فى الشر ، والسكران يتتايع أى يرمى بنفسه » •

٤٠ ـ ووردت فى الصفحة ٦٤ ترجمة ابن سناء الملك أبى القاسم هبة الله بن جعفر ، وقد ذكروا فى الحاشية مظان ترجمته وقد فاتهم منها كتاب « التكملة لوفيات النقلة »تأليف زكى الدين عبدالعظيم المنذرى المصرى ، قال فى وفيات سنة ٦٠٨ :

« وفى العشـر الاول من رمضـان توفى القاضى الاجـل الرشـيا

(١) جاء فى لسان العرب « والحلبة الدفعة من الخيل فى الرهان خاصة والجمع حلائب على غير قياس ، قال الازهرى : ولا يقال للواحد منها حليبة ولا حلابة ، قال العجاج : وسابق الحلائب اللهمّ • يريد جماعة الحلبة » • وأنشد أبو عبيدة :

نحـن سـبقنا الحلبات الاربعـا   الفحل والقرّح فى شوط معـا

أبو القاسم هبةالله ابن القاضى الاجل الرشيد أبي الفضل جعفر ابن القاضى الاجل سناء الملك أبى عبدالله محمد بالقاهرة • قرأ القرآن الكريم على الشريف الخطيب أبى الفتوح ناصر بن الحسن الزيدى وقرأ النحو على العلامة أبى محمد عبدالله بن برى النحوى وسمع بالاسكندرية من الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد الاصبهانى وله مصنفات فى الادب مشهورة وشعر فائق ، وكتب فى ديوان الانشاء مدة وهو أحد الفضلاء المذكورين والشعراء المشهورين رأيته غير مرة ولم يتفق لي السماع منه وسمعت شيئا من شعره من أصحابه ومولده سنة ٥٤٥ » •

وفاتهم منها تاريخ الاسلام للذهبى قال فى وفيات سنة ٦٠٨ : « هبة الله بن جعفر بن سناء الملك أبى عبدالله محمد بن هبة الله القاضى السعيد بن سناء الملك (كذا) أبو القاسم المصرى الشاعر المشهور »[٢]•

وفاتهم من تآليفه كتاب فصوص الفصول وعقود العقول ، منه نسخة بدار الكتب الوطنية بباريس أرقامها « ٣٣٣٨ » من العربيات ، وهو فى ست وتسعين ورقة ، وقد ألف شافع بن على الكنانى كتابا سماه « تجربة الخاطر المخاطر فى مماثلة فصوص الفصول وعقود العقول[٣] » •

٤١ ــ وجاء فى الصفحة ٦٧ قول ابن سناء الملك :

فللناس حزن من فراقك واحد وأحزاننا قد أوهنت نفر الجمع

ولا معنى ها هنا « لنفر الجمع » ولا للايهان مع النفر ، « والصواب « فقر » جمع الفقرة وهى التى يتسلط عليها الوهن ، ومن الفقر يتكون العمود الفقرى الذى هو قوام الظهر وسناد الجسد وعماد الجسم ، وأما النفر فلا محل له هاهنا البتة •

---

(١) التكملة « نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية ١٩٨٢ د ج ١ و ٤٠ » •

(٢) تاريخ الاسلام « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٨٢ الورقة ١٧٠ و١٧١ » •

(٣) نكت الهميان « ص ١٦٥ » •

٤٢ ـ وجاء فى الصفحة ٦٧ قول ابن سناء الملك :

فيـا سـيدى الله يعلم أننـا خصوصا بضر مؤلم صائب الوقع

فقالوا فى الحاشية : « خصوصا مفعول مطلق بمعنى تخص وربما كانت محرفة عن خصصنا به • قلت : لا يتوجه معنى البيت ولا تركيبه مع الحال ، والوجه الثانى الذى ذكروه مقبول حسن الا أن « خصوصا » بعيد عن خصصنا من حيث الصورة ، بعض البعد ، غير أنه يهون اذا جعلناه بالحاء المهملة من « حصه كذا أى صار حصته له » فالضر المؤلم الصائب الوقع يجوز أن يكون قسم الانسان من الاقدار وحظه وأما أنه يكون مخصوصا به فلا وجه له ، وهذا يتضح بقول الشاعر :

رضينـا قسمة الجبـار فينـا لنـا علـم وللاعـداء مـال

٤٣ ـ وجاء فى الصفحة (٧٠) قول ابن سناء الملك أيضا :

يدعـوه حين يخيفـه اقتـاره / فاذا دعـا كـان النوال مؤمنـا

هكذا بفتح الميم الثانية المشددة من « مؤمنا » والصواب كسرها لان معناه « كان قائلا آمين » يقال « أمن يؤمن تأمينا » أى قال : آمين •

٤٤ ـ وجاء فى الصفحة (٧٠ أيضا قوله

يفديه من تلقاه قاصد رفـده متلـويا فى رفـده متلـونا

ولا يتجه معنى البيت بهذا الضبط وهذا الاعراب ، فقد نصبوا « قاصد » وقالوا « تلقاه » والصواب :

يفديه من يلقـاه قاصد رفده متلـويا فى رفـده متلـونا

أى يكون فداءاً له الرجل الذى يراه قاصد رفده متلويا ملتونا ، فالفعل « يلقاه » مسند الى « قاصد » وقاصد فاعله ولا وجه لنصبه كما فعلوا •

٤٥ ـ وجاء فى الصفحة ٧٣ قوله أيضا :

يطوف بها حلو المراشف أوطف دمت مقلتاه كل قلب بقاصد

ولعل الاصل « رمت » فاستبدل المرتب بالراء دالا ، وأما اعتبار أنه فعل من الدم فلا يصح لان « دمي » الثلاثى من باب « عمى » وهو لازم ولم يأت متعديا ولو شذوذا ، فاذا أريدت تعديته قيل « دماه تدمية وأدماه ادماءاً » .

٤٦ ـ وورد فى الصفحة ٧٥ قوله :

ولما بدا جيد لها ومعاصم رأيت جبال الصبر غير عواصم

هكذا بالحاء المهملة والصواب « جبال الصبر » لان الاعتصام يكون بالجبال لا بالحبال ، ولا عاصم من أمر الله .

٤٧ ـ وجاء فى الصفحة ٧٧ قوله :

فيا روضة الحسن انى شغلـ ـت بروضة حسن لمن ينظر

هكذا بتدوير جملة « شغلت » مع أن « شغلت » هذه الجملة كلها من حصة الشطر الاول ، وبقاء التاء فى الشطر الثانى يسبب التقاء فتحات ثلاث وهو غير ممكن فى بحر المتقارب فضلا عن انكسار الوزن ظاهرا .

٤٨ ـ وجاء فى الصفحة ٨٤ قوله فى موشح : « أو يفسح الدهر له فى شراه » . بضم الياء من « يفسح » وبجعله رباعيا والصواب « يفسح » الثلاثى ، قال الجوهرى فى الصحاح : « وفسح له فى المجلس أى وسع له » . وفى لسان العرب « وفسح له فى المجلس يفسح فسحا وفسوحا وتفسح : وسع له ، وفى التنزيل : اذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس فافسحوا يفسح الله لكم » .

٤٩ ـ وجاء فى الصفحة ٨٧ قوله :

لما سرت خيلى بهم عنهم أسميت قلبى بعتاق العتاق

فقالوا فى الحاشية « عتاق العتاق : كرائم الخيل النجيبة » والشرح اللفظى صحيح الا أن المعنى يكون به مضطربا تافها فما معنى « لما سريت خيلى بهم عنهم أسميت قلبى بكرائم الخيل النجيبة ؟ لا شك أن المعنى فاسد، والصواب « أسميت قلبى بعتيق العتاق » فيكون المعنى أن خيله لما سرت به

عنهم سمى قلبه عبد الخيل العتاق لانها أنقذته من عبوديتهم » .

٥٠ ـ وورد فى الصفحة ٨٩ قوله :

فكأنهم لدموعهم شربوا وكأنهم بأنينهم نعروا

والصواب « بدموعهم » بالباء وهو الاصل فى استعمال « شرب » قال الشاعر :

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئيج

وقال الآخر :

فلثمت فاها آخذا بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

وقال عنترة :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم

وقال نبهان بن عكى العبشمى :

وأن أرد الماء الذى شربت به سليمى وقد مل السرى كل واخد

وقال عبدالله بن أبى كثير :

فى أن شربت بجم ما ء كان لى حلاً غديره

٥١ ـ وقالوا فى شرح بعض البيت المذكور : « يريد بالنعير صياح السكارى » . وقد حملهم على ذلك قوله فى البيت السابق لهذا : « حتى ظننا أنهم سكروا » والصحيح أنه أراد أنهم أخرجوا أصواتهم من خياشيمهم كأنهم يغنون ، قال الجوهرى فى الصحاح : « والنعرة صوت فى الخيشوم قال الراجز :

انى ورب الكعبة المستوره والنعرات من أبى محذوره

يعنى أذانه وقد نعر الرجل ينعر نعيرا وفى لسان العرب « النعرة والنعرة : الخيشوم ومنها ينعر الشاعر ، والنعرة : صوت الخيشوم قال الراجز : انى ورب الكعبة المستورة ... ونعر الرجل ينعر وينعر نعرا

ونعارا ، صاح وصوت بخيشومه وهو من الصوت ، قال الازهري : أما قول الليث في النعير : انه صوت في الخيشوم ، وقوله : النعرة الخيشوم ، فما سمعته لاحد ، من الائمة وما أرى الليث حفظه ، والنعير : الصياح ، والنعير الصراخ في حرب أو شر » . ومنه يعلم أن النعير ليس بصياح السكارى أي ليس العربدة ، قال بشر بن أبي خازم كما في جمهرة أشعار العرب :

انا اذا نعروا الحروب بنعرة   تشفي صدورهم برأس مصدم

قال مؤلف الجمهرة : « النعار : شديد الصوت » هكذا ورد ولعل الاصل « شدة الصوت » على اعتبار أن النعار بوزن الصراخ ، وجاء في أخبار المعتصم بالله وترتيبه البريد أيام ثورة بابك « وجعل لهم ديادبة على رؤوس الجبال بالليل والنهار وأمرهم أن ينعروا اذا جاءهم الخبر فاذا سمع الذي يليه النعير تهيأ فلا يبلغ اليه صاحبه الذي نعر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه[1] » . وقال دعبل الخزاعي في ابراهيم بن المهدي ودعوته الناس الى خلافته :

نعر ابن شكلة بالعراق وأهله   فهفا اليه كل أطلس مائق

ان كان ابراهيم مضطلعا بها   فلتصلحن من بعده لمخارق

فهذا هو النعير والنعار .

٥٢ ـ وورد في الصفحة ٩١ قوله :

لا أدعي أن النعي أصمني   فيمن أصم وانما أصماني

فقالوا في الشرح : « أصمى : رمى فقتل» . وهذا شرح أبتر والشرح السليم « أصماه : رماه فقتله مكانه وهو يراه » . وجاء في الصحاح : « أصميت الصيد اذا رمية فقتله وأنت تراه ، وفي الحديث : كل ما أصميت ودع ما أنميت[2] » .

---

(١) تاريخ الطبري « ١٠ : ٢٣٢ طبعة مصر الاولى » .

(٢) وقال في نمى : « ورمى الصيد فأنماه اذا غاب عنه ثم مات وفي الحديث : كل ما أصميت ودع ما أنميت » .

٥٣ ـ وجاء في الصفحة ٩٤ قول ابن سناء الملك أيضا :

لئن ضرني البين المشت ومزني   فيا لك بينا ما أضر وما أضرى !!

وقالوا في الحاشية : « مز : من شرب المز وهو الحامض » فيكون البين قد مزه أي شربه حامضا ، فالبين هو المغلوب والشاعر هو الغالب ، وهو معنى غريب ، على شرط صحة الشرح اللغوي ، ولكن اللغة لا تساعد على ذلك، ففي لسان العرب « ومزه يمزه مزا : أي مصه والمزة : المرة الواحدة ، وفي الحديث لا تحرم المزة ولا المزتان يعني في الرضاع » فشرحهم اذن افتئات على لغة العرب ، والصواب :

لقد ضرني البين المشت وعرني   فيا لك بينا ما أضر وما أضرى !!

يقال « عرني بشر : أي لطخني بشر » ولا يخفى الجناس بين ضرني وعرني وان كان ناقصا .

٥٤ ـ ووردت في الصفحة (١٠٠) ترجمة الاسعد أبي المكارم ابن الخطير المعروف بابن مماتي وأحالوا في الحاشية على مظان ترجمته وغفلوا عن الجامع المختصر لابن الساعي « ص٣٠٠ » وتاريخ الاسلام للذهبي ، قال الذهبي في وفيات سنة ٦٠٦ : « أسعد بن المهذب بن زكرياء بن مماتي القاضي الرئيس أبو المكارم المصري الكاتب الشاعر صاحب ديوان الشعر فمنه قوله :

تعـاتبني وتنهى عـن أمـور   سبيل النـاس أن ينهوك عنهـا
أتقدر أن تـكون كمـلء عيني   وحقك مـا علي أضر منهـا

توفي بحلب وقد هرب اليها خائفا من الوزير ابن شكر ، في سلخ جمادى الآخرة وله اثنتان وستون سنة ، وقد سمع من أبي طاهر السلفي وغيره وله مجاميع مفيدة ونظم سيرة السلطان صلاح‌الدين ونظم كتاب كليلة ودمنة ، وقد أسلم وكان نصرانيـا في أول الدولة الصلاحية وولي ديوان الجيش وغير ذلك ومرض فطلب من جويرية يعقوبية أن تصلح له شيئا يوافق

[مزاجه من] أنواع المزورات ، فضجرت وقالت : لا تعد على مرضاتك في مرضاتك (كذا) ، وذكر أنه اختصر اللمع لابن جني في رقة[1] واحدة[2] ... » .

وفاتهم كتاب « التكملة لوفيات النقلة » لزكي الدين المنذري ، قال في وفيات سنة ٦٠٦ . « وفي سلخ جمادى الاولى توفي القاضي الاجل أبو المكارم أسعد بن زكرياء بن أبي مليح مماتي الكاتب المنعوت بالاسعد بحلب[3] ... » .

٥٥ ـ وجاء في الصفحة ١٠١ قوله : « وهو من شملته العناية الفاضلية » . والصواب « ممن » بحرف الجر « من » لان الذين شملتهم العناية الفاضلية أكثر من واحد مع أنه واحد ، فالتعبير بما يدل على التقليل أي بما يجعله أحدهم هو الصحيح ، ولا يصح الا بحرف الجر « من » وما يقوم مقامه .

٥٦ ـ وجاء في الصفحة ١٠٤ « مما كتبه الى السديد علم الرؤساء أبي القاسم وكان قد اقتضى منه ديوان رسائله فاعتذر اليه بالخوف من نقده» . والصواب « من فقده » ، ولا محل للنقد ها هنا ، فهو قد أراد أن يستعير منه ديوان رسائله فلم يعره اياه خوفا من أن يفقده فتذهب عليه رسائله .

٥٧ ـ وجاء في الصفحة ١٠٩ « ولبست المشارق السواد لما تم في المغارب على الشمس من الغرق » . والظاهر لي أن الاصل « لمأتم ماتم ...» لانه أراد الجناس بين المأتم وماتم فأضاف المأتم الى « ماتم » أي الموصول والفعل ، فكأنه قال « لحزن ماتم » أي حزن تلك المصيبة .

٥٨ ـ وورد في الصفحة ١١٢ « حتى استشرف لرؤيتها وتشرف

---

(١) يعني القطعة من الرق وهو جلد رقيق مرقق يكتب فيه .

(٢) تاريخ الاسلام « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٨٢ الورقة ١٥٢ » .

(٣) التكملة لوفيات النقلة « نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية ١٩٨٢ د ج ١ الورقة ١٨ » .

لروايتها » • ويجوز أن يكون الاصل « وتشوف » بالواو فهـــو أكثـــر استعمالا من « تشرف » يقال « تشوف الى الشيء أي تطلع اليه » • وقد جـاء في ثمرات الاوراق ــ ص ١٧٤ « وان أهل الثغور قـد تشوفوا للخلاف » •

٥٩ ــ وجاء في الصفحة ١١٧ ترجمة الشريف أبي علي محمد بـن أسعد العلوي الجواني ، وفاتهم من مظان ترجمته « المحمدون من الشعراء » وتاريخ الاسلام للذهبي وعمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب • قال القفطي : « محمد بن أحمد[1] بن أسعد بن علي بن معمر شرف‌الدين أبو علي الجواني النسابة المصري المولد والمنشأ ، أصله من الموصل واستوطن أبوه أوجده مصر وحصل له بها تقدم • وولده هذا كان نقيبا في الايام المصرية فلمـا دخلت الغز البلاد ولوا النقـابة رجلا أعجميا يعرف بأبي الدلالات ثم ولي هذا الشريف نقابة نقباء الاقارب من ولد اسماعيل أنسباء صاحب القصر ، وكان اكثر زمانه منقطعا في داره الى التصنيف في علم الانساب ، أدركته ورأيته ، وكان يكثر الى أن يغلب على الظن كـذبه ــ رحمه الله وغفر لنا ــ وكان له شعر ولوالده ، فمن شعره قوله لبعض الاشراف بدمشق :

أحن الى ذكراك يا ابن محسن ... وأرجو من الله اللقـــاء على قرب
لما لك في قلبي من الموضع الذي ... ترى فيه كل الحب جزءاً من الحب[2]
وللمفخر السامي الذي قد حويته ... وسار مسير الشمس في الشرق والغرب
فأصبحت تاجا للفخـــار ومفـــرقا ... وقطب المعالي بل أجل من القطب
فلا عدمت روحي الحيـاة فانهـــا ... قرينـــة ما يأتي اليّ من الـكتب

(١) سيأتي من تاريخ الذهبي أنه « محمد بن أسعد » وهو المشهور ولعل « محمد بن أحمد من سهو القلم » •
(٢) في الخريدة المذكورة « يرى فيه كل الجد مبرا من الخبْ » وهو وجه حسن أيضا •

وله أشعار كثيرة في المدح لاجلاء زمانه ، توفى بعد سنة خمس وثمانين وخمسمائة[1] » .

وقال الذهبي في وفيات سنة ٥٨٨ : « محمد بن أسعد بن علي بن معمر بن عمر بن علي بن الحسين بن أحمد بن علي بن ابراهيم بن محمد بن الحسن بن محمد الجواني ابن عبيدالله بن حسين بن زين‌العابدين علي بن الحسين الشريف أبو علي ابن الشريف الاجل أبي البركات العلوي الحسيني العبيدلي الجواني المصري ، ولد سنة خمس وعشرين وخمسمائة وقرأ على والده وعلى الفقيه عبدالرحمن بن الحسين بن الجباب وعبدالمنعم بن موهوب الواعظ ، ومحمد بن ابراهيم الكيزاني وحدث ... وولى نقابة الاشراف مدة بمصر ، وذكر أنه صنف طبقات الطالبيين وكتاب تاج الانساب ومنهاج الصواب وغير ذلك ، وكان علامة النسب في عصره ، أخذ ذلك عن ثقة الدولة أبي الحسين يحيى بن محمد بن حيدرة الحسيني الارقطي ، ومحمد هذا منسوب الى الجوانية وهي من عمل المدينة من جهة الفرع . ذكر أن السلطان صلاح‌الدين وقع لابي‌علي بربعها وأنه وكل عليها من يستغلها .
قلت : روى عنه يونس بن محمد الفارقي هذه القصيدة التي مدح بها القاضي أبا سعد بن عصرون وهي :

هتفت فمادت في الفروع غصون   وبكت فجادت بالدموع عيون
مرحت بها قضب الاراكة فانثنى   غصن يميس بها وماد غصون
مالي وما للهاتفات ترنما   يصبو لهن فؤادي المحزون

وهي قصيدة طويلة[2] » .

٦٠ ـ وقالوا في التعليق على اسم الشريف المذكور : « ترجم له

(١) المحمدون من الشعراء » نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٣٣٣٥ الورقة ١٥١ » .
(٢) تاريخ الاسلام » نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٨٢ الورقة ٣٨ » .

الصفدى فقال : ولي نقابة الاشراف مدة بمصر ••• والجوانى بالجيم والواو المشددوة ويعرف بالمازندرانى ، انظر فوات الوفيات ، طبع استانبول ٢٠٢/٢ وانظر ترجمته فى لسان الميزان ٧٤/٥ » •

قلت : الصواب « الوافى بالوفيات » لا فوات الوفيات ، فالوافى هو الذى ألفه الصفدى وهو الذى طبع باستانبول وهو الذى وردت فيه ترجمة الجوانى المذكور ، وقول الصفدى « ويعرف بالمازندرانى » الذى نقلوه من الوافى خطأ مبين • لانه لم يكن مازندرانيا ولا مازندرانى الاصل بدلالة ما ذكره الذهبى فى ترجمته والذهبى هو معتمد الصفدى فى التراجم كما صرح به فى مقدمة الوافى ، وزاد الصفدى الامر غلطا بقوله « لقبه رشيدالدين » • والصحيح أن « رشيدالدين المازندانى » هو محمد بن علي بن شهراشوب المازندرانى المتوفى فى السنة المذكورة أى سنة ٥٨٨[1] فخلط الصفدى بينهما ، ونقل الجماعة غلطه ولم يصححوا ما ورد من الغلط فى ترجمته فى لسان الميزان فقد صار فيهـــا الجوانى « الجوالبى والحـــرانى » والجميزى « الحميرى » وخمس وعشرون وخمسمائة « خمس وسبعون وخمسمائة » ولسبط السلفى الـكمال الضرير « السبط السلفى لـكمال الضرير » وابن مسدى « ابن سدى » والجباب « الحارث » وثقة الدولة « بغية الدولة » والجوانية « الجوالبة » والـكيزانى « الـكبرانى » فهذه تسع غلطات •

٦١ ـــ وقال العماد فى ترجمة الجوانى المذكور : « وقرأت أيضا بخطه من كتاب كتبه الى الامير عزالدين حارن لما قصده بالشام ••• » ، وعلقوا على « حارن » ما هذه صورته « هكذا بالاصل ولعلها الحارمى نسبة الى حارم احدى بلاد الشام أو لعلها خازن » •

قلت : ان الحارمى هو شهاب‌الدين لا عزالدين ، وهو الذى حفظناه وقرأناه ، ذكر ابن‌تغرى بردى فى‌حوادث سنة ٥٥٦ شهاب‌الدين هذا بقوله :

---

(١) قال الذهبى فى وفيات سنة ٥٨٨ « محمد بن على بن شهراشوب بن أبى نصـــر أبو جعفـــر السروى المازندرانى رشيدالدين الشيعى » « المرجع المذكور ، الورقة ٣٨ » •

« وشهاب الدين محمود صاحب حارم وهو خال صلاح الدين[1] » . والصواب فيه أنه « عزالدين جاولى » قال ابن الفوطى فى لقب عزالدين من كتابه :
« عزالدين أبو حرب جاولى بن عبدالله التركى الامير . كان أميرا عاقلا محبا للخير ، دينا ، وله رغبة فى سماع الاحاديث النبوية ، حسن الاستماع لها والبحث عن معانيها والانعام على المشايخ والمحدثين[2] ... » .

وذكره أبو شامة فى وفيات سنة ٥٨١ ونقلا من تاريخ عمادالدين الاصفهانى قال العماد : « وفيها توفى الامير عزالدين جاولى وهو من أكابر الامراء وله مواقف حميدة فى الهيجاء يحس بلاؤه ويصدق عناؤه . ولما عدنا بعد فتح ميا فارقين الى الموصل طرقه البلاء فى طريقه : قفز بحصانه على بعض السواقى فعثر به وانكسرت رجله ثم عملت عليه قدمه واشتد ألمه وطال به سقمه وانتقل الى دمشق وتوفى بها فى آخر هذه السنة أو فى سنة اثنتين وثمانين [وخمسمائة] ولقد فجع الاسلام منه بذمر مشيح ، لدمار الكفر متيح[3] » .

٦٢ – وجاء فى تعليقهم على ترجمة الشريف أسعد بن على الحسينى الجوانى قولهم : « انظر انباه الرواة بأنباه النحاة » والصحيح فى تسميته هو « انباه الرواة على أنباه النحاة » فالانباه مصدر « أنبهه » أى نبهه تنبيها والانباه والتنبيه يستصحبان « على » لا الباء ، فهم قد خلطوا بين « الانباه » بالهاء و « الانباء » بالهمزة مصدر « أنبأ » وأما « الانباه » فهو جمع « نبيه » كأشراف جمع شريف وأيتام جمع يتيم وأحفاد جمع حفيد ، وأنساب جمع نسيب وانجاب جمع نجيب وأمجاد جمع مجيد وغير ذلك . ولم يذكروا ان للشريف المذكور ، ذكرا فى عمدة الطالب « ص ٢٨٥ » .

---

(١) النجوم الزاهرة « ٥ : ٣٥٤ ، ٣٥٥ » .
(٢) تلخيص معجم الالقاب « ٤ : ٣ أ من نسختى بخطى » .
(٣) كتاب الروضتين « ٢ : ٦٧ من الطبعة الاولى » .

٦٣ ـ وجاء فى الصفحة ١٢٤ قول الشريف أبى جعفر محمد العلوى الافطسى :

أمـا وهـــواك لو خبـــرت عنى لمـــا ألقـــاه عز عليـــك ما بى
ولا تســأل سواك فليس يخفى عـــذابى عن ثنـــاياك العـــذاب

باسناد الخطاب الى مذكر و « لما ألقاه » بدلا من « بما ألقاه » الذى هو الصواب لتعلقه « بخبرت عنى » فيكون « لو خبرت عني بما ألقاه » • وبعد الاسناد الى المذكر جاء :

ولولا أن تقولى خان عهـــدى قرعت على ســـلوى كل باب

وقد استنوق الجمل بعدما استتيست الشاة ، فالصواب اذن فى البيت الاول « أما وهواك ••• » بكسر الـكاف ، وفى البيت الثانى « ولا تسلى سواك » من « سلت تسالين » المخفف الهمزة والامر منه « سلي » •

٦٤ ـ وجاء فى الصفحة ١٢٥ « ومبسم كأقاح الروض بان به » • والصواب « كأقاحي » بالياء لانه جمع أقحوان كالافاعى جمع الافعوان ، فالجمع اسم منقوص مضاف تثبت فيه الياء فى جميع أنواع الاعراب •

٦٥ ـ وورد فى الصفحة المذكورة قوله :

أولا وعيشٍ مضت منا بشاشته لمحاً وسالف عيشٍ غير مؤتشب

فقالوا فى الحاشية : « مؤتشب : مجتمع » والمجتمع يؤدى الى الاطمئنان والرخاء ، فهو ضد مراد الشاعر فقد أراد مدح عيشه الماضى بكونه « غير مؤتشب » فالصواب « المؤتشب المختلط » والاختلاط فى العيش يؤدى الى عدم الطمأنينة والاتساق ، فهو أشبه بالاضطراب •

٦٦ ـ وجاء فى الصفحة ١٣١ :

اذا انبجست كفـاه والمزن ممسك فمـــا ضرنا الا بصوب قطـــاره

وضبطوه بجر « صوبٍ » وتنوينه ، وكسر همزة « الا » ، وليس له

معنى مقبول ولا معقول ، ألا ترى أن المزن اذا كان ممسكاً فصاب قطاره لا يضر أحدا بل ينفع الارض والناس ، فالصواب « فما ضرنا أن لا يصوب قطاره » يعنى أن كفي الممدوح اذا انهلتا باحسانه فلن يضر المادح وجماعته المسترفدين انحباس المطر ، لانه أغناهم عنه .

٦٧ — وورد فى الصفحة قوله :

فيـــا منة (قـــد) شكرت الرقاد لو اني انتبهـــت وقلبـى معـــى

هكذا بزيادة « قد » في الشطر الاول ، قالوا فى الحاشية انها « ساقطة من الاصل » فكيف علموا أنها كانت فى الاصل وسقطت منه ؟ انه اعتداد بالنفس غير قليل ، والصحيح أن الاصل هو الصحيح ، لانه « فيا منة شكرت للرقاد » بجر الرقاد بلام الالصاق ، أى ان المنة التى شكرناها للرقاد عظيمة .

٦٨ — وجاء فى الصفحة ١٣٧ قوله :

علق الارزاق من أسمره معلق الرمح بأطـــراف الذبال

فوضعوا « النصال » مكان « الذبال » وشددوا اللام من « علق » ونصبوا الارزاق على المفعولية ، والفرق عظيم بين الذبال والنصـــال ، فى المعنى والشكل الخطي فلا يمكن أن تكون تصحيفاً ، ثم ان الرمح يحتوى على النصل أى السنان وعلى الزج ، فلا يصح أن يقال « علق هو الارزاق من رمحه تعليق الرمح بأطراف أجزاء الرماح ، والظاهر أن الاصل :

علـــق الارزاق من أســـمره معلـــق الريح بأطراف الذبال

بتخفيف اللام وجعل « الارزاق » فاعلا له ، فالريح تعلق بأطراف الذبال ، لانها تولع بها فكأنها عالقة بها .

٦٩ — وجاء فى الصفحة ١٣٨ قوله :

الارقم الصل الا أنه بطـــل والاغلب الورد الا أنه رجل

فقالوا فى الحاشية : « الورد : الشجاع الجرىء » فيكون المعنى « هو

الشجاع الجرىء الا أنه رجل » فما هو اذن وماذا كان ؟ انه رجل فما معنى الاستثناء البيانى هنا ؟! الصحيح أن الورد هو الاسد والاغلب الورد من بابة تقديم الصفة على الموصوف والاصل « الورد الاغلب » والاغلب الغليظ العنق ، وبهذا يظهر معنى الشطر •

٧٠ ــ وجاء فى الصفحة ١٣٩ قوله :

تشـــابهوا واحـــداً ونجـــلاً   ما أشبه الـكثب بالسهول !!

ولا محل للواحد ها هنا ، فالصواب « والداً ونجلاً » أو « ناجلاً ونجلاً » أى والداً ومولوداً •

٧١ ــ وجاء فى الصفحة المذكورة قوله :

فداؤك كــل مغـــرور الاماني   يرجي منتـــج الامل العقيـــم

بضم الميم وفتح التاء من « منتج » وهو مصدر ميمي من « أنتج » وليس بفصيح ، فالثلاثى الاصل مفضل على الرباعى اذا كانا بمعنى واحد ، وكان الرباعي غير منصوص على أفضليته[1] •

٧٢ ــ وجاء فيها قوله :

وقفت بهـــا فيـــا سرعا لدمع   أرقت على ثرى تلك الرسوم

فأبدلوا « فيا نثري » من قول الشاعر « فيا سرعا » وقالوا : فى الاصل « فيا سرعا » ، والبون بعيد بين « فيا نثري » و « فيا سرعاً » ، بله أن قوله « فيـا نثري لدمع » يغني عن أن يقـال بعده « أرقت على ثرى تلك الرسوم » لان نثره الدموع لا يكون الا باراقتهـا ، فيكون الشطر الثانى تحصيل حاصل ، فالاصل هو الصواب لانه يفيد التعجب من سرعة الدموع فى حال اراقتها ، والغريب فى الامر أنهم تحكموا فى تعابير الشاعر •

٧٣ ــ وورد فى الصفحة ١٤٨ مثل مشهور فى أثناء المنثور وهو

---

(١) الرباعى المنصوص على أفضلية مثل « أوحى وأغفى » •

« ففى كل شــجر نار ، واستمجد المرخ والعفار » ببنــاء « استمجد » للمجهول ، والصحيح فى المثل بناؤه للمعلوم لانه مسند الى نوعى الشجر المحمودين المذكورين أى المرخ والعفار فهما اللذان استمجدا من النار أى استكثرا منها واستفضلا ، قال أبو العباس المبرد فى شرح قول الاعشى :

وزندك خــير زناد الملــو ك صادف منهن مرخ عفــار

ولو بت تقدح فى ظلمــة صــفاةً بنبــع لاوريت نارا

« المرخ والعفار شجر تسرع فيه النار ومن أمثالهم : فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفــار . واستمجد : استكثر ، يقال أمجدته سباً وأمجدته ذماً اذا أكثرت من ذلك[1] » .

وقال أبو هلال العسكرى : « قولهم : فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار . يضرب مثلا فى تفضيل الرجال بعضهم على بعض أى لـكل واحد من هؤلاء فضل الا أن فلاناً أفضل يقال : أمجدت الدابة علفاً اذا أكثرت منه ، والمرخ والعفار شجرتان تكثر نارهما ، يقول : انهما أخذا[2] النار فأكثرا وقال العمرى : يضرب مثلا لمن شكر الاشياء فاذا رأى ما يعرف أقر به (كذا) » .

وقال الشريف المرتضى فى شرح قول ذى الرمة :

من الرضمات البيض غير لونهــا بنات فراض المرخ واليابس الجزل

« وعنى ببنات فراض المرخ شرر النار الخارجة من ذلك الفرض ، والمرخ شجر تتخذ منه الزندة ، ومن أمثالهم : فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار . وهذا المثل يضرب للرجل الـكريم الذى يفضل على القوم ويزيد عليهم فكأن المعنى : كل القوم كرام واكرمهم فلان[3] » .

---

(١) الـكامل « ١ : ١٤٦ طبعة الدلجمونى الازهرى » .
(٢) كذا ورد فى جمهرة الامثال « ص ١٥٢ طبعة بمبى » ولعل الاصل « من النار » .
(٣) أمالى الشريف المرتضى « ٣ : ١١٧ من الطبعة الاولى » .

وقال الميداني : « في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، يقال مجدت الابل تمجد مجوداً اذا نالت من الخلى قريبا من الشبع ، واستمجد المرخ والعفار أي استكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما ، شبها بمن يكثر العطاء طلبا للمجد لانهما يسرعان الوري ، يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض ، قال أبو زياد : ليس في الشجر كله أورى زناداً من المرخ وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفاً وهبت الريح فحك بعضه بعضا فأورى فاحترق الوادي كله ولم نر ذلك في سائر الشجر ... والزند الاعلى يكون من العفار والاسفل من المرخ قال الكميت :

اذا المرخ لم يور تحت العفـار وضن بقدر فلم تعقب[1] » .

وفي لسان العرب : « وفي المثل : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، استمجد : استفضل أي استكثرا من النار كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما فصلحا للاقتداح بهما ويقال لانهما يسرعان الورى فشبها بمن يكثر العطاء طلباً للمجد ، ويقال : أمجدنا فلاناً قرى اذا آتى ما كفى وفضل » .

وفي كل ما ذكرنا من الاقوال تأكد أن المستمجد هو المرخ والعفار أنفسهما فينبغي أن يبنى فعلهما للمعلوم .

٧٤ ـ وورد في الصفحة ١٠٣ قول ابن قلاقس :

وعنـده للضيوف نار قـرى تعرفهـا البزل كلمـا يودى

بجعلهم « يودي » مضارعا لاودى ، فاذا أسند الفعل الى الممدوح كان معنى الشطر الاخير أن البزل تعرفه كلما أصابه الهلاك ، وهو معنى باطل أصلا ، وقد قالوا في الحاشية : « يريد كلما ذبح البزل للضيفان » وهو من ضرب تحميلهم العلم العربية غير معانيها ، لان « أودى » بغير حرف جر معناه « هلك » فهو لازم فكيف يكون متعدياً بمعنى « ذبح» ، ويقال : « أودى به

(١) مجمع الامثال « ٢ : ٧٤ الطبعة الجديدة »

الموت : ذهب به وأودى بالشيء : ذهب به » • ولا محل لهما ها هنا ، لان الممدوح لم يذهب بالبزل ، والصواب « كلما نودى » ومنه النداء كأن يقال « حي على الطعام » فيأتيه الضيوف والمحاويج ، فالبزل تعرف ذلك ـ على رأي الشاعر ـ كلما نودي للقرى واطعام الطعام ، كما قال الشاعر القديم :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى   لا ترى الادب فينا ينتقـــر

وانما تكون الدعوة جفلى بالنداء والصياح لانها عامة ، ولم تكن دعوتهم الى الطعام ببطاقات !!

٧٥ ـ وقالوا في قوله في الصفحة المذكورة :

وربما استضحك الخميس به   عـن أهـرت الماضـغين صـنديد

فقالوا في الحاشية : « أهرت من الهرت وهو التمزيق » فيكون المعنى « عن ممزق الماضغين » وهو ذم لان التمزيق لا يكون طبيعيا بل بآلة حادة أو أسنان حادة أو عضو حاد ، فالممدوح اذن معضوض الماضغين ممزقهما ، وليس هذا بمراد الشاعر ، وانما « الاهرت » من « هرت الشيء يهرت هرتاً أي اتسع فهو هريت وأهرت أي واسع ، ويقال « أسد أهرت أي واسع الشدقين وأسود هرت وأسد منهرت الشدق أي واسعه » •

٧٦ ـ وورد في الصفحة ١٥٥ قوله :

ولا سرت نحوكم أسرة   تأســـر بالداهية الصـــيلم

فقالوا في الحاشية : « الصيلم : السيف » فيكون المعنى « بالداهية السيف » وهو تعبير غريب ، والصحيح أن الصيلم هي الشديدة ها هنا ، لان من معاني الصيلم « الامر الشديد » فهي وصف في الاصل •

٧٧ ـ ووردت في الصفحة ١٦٨ ترجمة نشوء الدولة علي بن مفرج ابن المنجم فقالوا في الحاشية : « له أخبار كثيرة في بدائع البدائه ••• وقال السيوطي في حسن المحاضرة ••• وانظر المغرب وانظر ترجمة

اسامة بن منقذ فى ابن خلكان » • وفاتهم ذكره فى موضع آخر من الوفيات وهو ترجمة ابن سناء الملك هبةالله بن جعفر المقدم ذكره ، قال ابن خلكان : « كان بمصر شاعر يقال له أبو المكارم هبةالله بن وزير بن مقلد الكاتب فبلغ القاضى السعيد [ابن سناء الملك] المذكور عنه أنه هجاه فأحضره اليه وأدبه وشتمه ، وكتب اليه نشوء الملك أبو الحسن علي بن مفرج المغربى الأصل المصرى الدار والوفاة المعروف بابن المنجم الشاعر :

قل للسعيد أدام الله نعمته ... صديقنا ابن وزير كيف تظلمه ؟
صفعته اذ غدا يهجوك منتقما ... فكيف من بعد هذا ظلت تشتمه
هجو بهجو وهذا الصفع فيه ربا ... والشرع ما يقتضيه بل يحرمه
فان تقل ما لهجو عنده ألم ... فالصفع والله أيضا ليس يؤلمه[1]

٧٨ ـ وجاء فى الصفحة ١٧١ قول موسى السخاوى :

ويمدها من كل أحوى أحوز ... ما منه يرتاع الكمي المحرب

بضم الميم وفتح الراء من « المحرب » قالوا فى الحاشية : « المحرب : الذى دل على ما يغنمه من الحرب » والصواب كسر الميم لانه مبالغة مستعار الوزن من اسم الاداة واسم الآلة وهو « مفعل » والمحرب والمحراب هو الشجاع وهو المناسب للكمي الذى هو بمعنى الشجاع أيضا أو لابس السلاح المكمى بالدرع والبيضة •

٧٨ ـ وذكروا فى الصفحة ١٧٣ مظان ترجمة أبى الغارات طلائع بن رزيك ومواطن ذكره وقد فاتهم تلخيص معجم الالقاب لابن الفوطى ، قال ابن الفوطى : « فارس المسلمين الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك بن عبدالله بن يحيى الارمنى المصرى الوزير ، ذكره الوزير الاكرم جمال‌الدين على بن يوسف القفطى فى كتابه وزراء الدولة العصرية فى الدولة القصرية ، وقال : كان فارس المسلمين من أولاد الارمن الداخلين الى مصر ولما كبر جعل من الحجرية ثم نقل الى أن جعل مقدما فى السرايا ثم خلع

(١) وفيات الاعيان « ٢ : ٣٢٥ » طبعة ايران •

عليه خلع الوزارة : خلعة موشحة بعقد جوهر في يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر سنة تسع وأربعين وخمسمائة ونعت بالسيد الاجل الملك ناصر الائمة كاشف الغمة[1] » .

وقال ابن الفوطي في سيرة الفائز بنصرالله أبي القاسم عيسى ابن الظافر اسماعيل العلوى الفاطمي : « بويع للفائز عيسى يوم قتل أبوه الظافر في المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة وهرب عباس قاتل أبيه فقتله الفرنج في طريقه ووزر له بعده طلائع بن رزيك ولقب بالملك الصالح فارس المسلمين[2] ... »

وورد ذكره في وفيات الاعيان في غير موضع ترجمته وذلك في ترجمة « شاور بن مجير بن نزار السعدى[3] » وترجمة الفائز أبي القاسم عيسى ابن الظافر بن الحافظ[4] . وترجمة غياث الدين غازى[5] بن صلاح الدين الايوبى ، وورد ذكره وترجمته في مرآة الزمان « مختصر ج ٨ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٣٠٢ ، ٥١٥ » والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى في الجزء الخامس منه (راجع فهرسته) وشذرات الذهب « ٤ : ١٧٧ » ومعجم الادباء « ١ : ٤١٧ طبعة مرغوليوث » و « ٦ : ٣ منه »[6] . وذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثى قال « أنشدنا أبو العباس أحمد بن أحمد البزاز قال أنشدنا أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقى ببغداد ، قدمها علينا في سنة أربع وستين وخمسمائة قال أنشدني الوزير طلائع بن رزيك لنفسه بمصر :

---

(١) تلخيص معجم الالقاب « ٤ : ٢٠٠ من نسختي بخطي » .
(٢) المرجع المذكور « ص ٢١١ » .
(٣) وفيات الاعيان « ١ : ٢٣٧ طبعة ايران » .
(٤) المرجع المذكور « ص ٤٣١ » .
(٥) المذكور « ص ٤٣٨ — ٤٤٠ » .
(٦) وورد ذكره في تكملة اكمال الاكمال لجمال الدين بن الصابوني ، باخراج كاتب المقالة ، وهذا المرجع غير مستدرك عليهم لانه طبع سنة ١٩٥٧ ، تراجع الصفحات « ٢٢٧ ، ٢٨٧ ، ٣١٣ ، ٣٣٦ ، ٣٦٠ » .

مشيبك قد نضا صبغ الشباب وحل الباز في وكر الغراب
تنـــام ومقلة الحـــدثان يقظى وما ناب النوائب عنـــك نابي
وكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد انفقت منه بلا حساب[1] » .

٨٠ - وورد في الصفحة ١٧٢ قول موسى السخاوى :

كالنار الا أنهـــا لا تنطفي والبحـــر الا أنه لا ينضـــب

هكذا ضبطوا « ينضب » بفتح الضاد ، والصواب « تنضب » بضم الضاد أو « تنضب » بكسرها ، قال مؤلف المختار : « نضب الماء : غار فى الارض وبابه دخل » . وفى لسان العرب « نضب الشيء : سال ، ونضب الماء ينضب بالضم نضـــوباً ونضب اذا ذهب فى الارض ، وفى المحكم : غار وبعد » .

وقد صرح الفيومى بجواز الكسر قال[2] : « نضب الماء نضوبا من باب قعد : غار فى الارض وينضب بالكسر لغة » ، ففتح الضاد كما فعل الشارحون غلط ، ولو كانت الضاد مفتوحة لكان مصدره على « فعل » بالتحريك لا على فعول ، وهذا من مباحث الصرف التى ينبغى لمن يتصدى لمثل هذا الامر معرفتها .

٨١ - وعلقوا فى الصفحة ١٧٥ على « الحصكفي » الشاعر الناثر الخطيب الباهر « هو يحيى بن سلامة خطيب ميافارقين ، من كبار الادباء والشعراء فى عصره وكان ضريراً ، توفى سنة ٥٥١ » . ولم يحيلوا بذلك القول على كتاب ، فالذى علمناه أنه « لم يكن ضريراً » ، وأول ما يتبادر الى الذهن فى تعرف مظان تراجم الاضراء هو « نكت الهميان فى نكت

(١) ذيل تاريخ بغداد « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٥٩٢٢ الورقة ٢١٧ » .

(٢) وأما صاحب القاموس فسكت عن ماضيه ومضارعه أو سها عنهما ، أو سقط قوله من هذه النسخة المطبوعة قال : « نضب : سال وجرى ، والماء نضوبا : غار » . وبالمصدر يستدل على أن ماضيه مفتوح العين ومضارعه يجوز فيه ضم العين وكسرها .

العميان للصفدى » لان الحصكفى على رأيهم داخل فى شرطه ، وليس له فى نكت الهيمان ترجمة ، وقد ترجمه أبو سعد بن السمعانى فى الانساب فى « الحصكفى » وذكر أنه توفى بعد سنة ٥٥١ ولم يذكر أنه كان ضريراً ، وترجمه بعده عزالدين بن الاثير فى اللباب فى تهـذيب الانساب ولم يستدرك على ابن السمعانى أن الحصكفى كان ضريراً ، على ما قال شارحو الخريدة ، وترجمه أبو الفرج بن الجوزى فى المنتظم « ١٠ : ١٨٣ » فى وفيات سنة ٥٥٣ ولم يذكر أنه كان ضريرا ، وترجمه ياقوت الحموى فى معجم الادباء كما جـاء فى مختصر الجزء السـابع « ص ٢٨١ طبعـة مرغوليوث » وذكر هو وابن الاثير أنه توفى سنة ٥٥١ وترجمه ابن خلـكان فى الوفيات « ٢ : ٣٨١ طبعة بلاد العجم » ولم يذكر أنه كان ضريراً ، وقال : « ولم يزل على رياسته وجلالته وافادته الى أن توفى سنة احدى وقيل ثلاث وخمسين وخمسمائة ... » وترجمه سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان كما جاء فى مختصر الجزء الثامن[1] « ص ٢٣٢ طبعة حيدر أباد » ولم يذكر أنه كان ضريراً ، وترجمه تاج‌الدين السبكى فى طبقات الشافعية الـكبرى « ٤ : ٣٢٢ » ولم يذكر أنه كان ضريرا ولا ذكـر وفاته[2] .

وترجمه كمال‌الدين بن الفوطى قال : « معين‌الدين أبو الفضل يحيى بن سلامة الحصكفى ابن الحسين بن محمـد الحصكفى (كذا) الخطيب الاديب ، ذكره الحافظ أبو عبدالله بن النجار فى تاريخه وقال : كان فقيها فاضلا ، مدرسا مفتيا أديبا ، بليغا ، شاعرا ظريفا ، ولد بطنزة وتربى بحصن كيفا وقدم بغداد وجالس أبا زكريا التبريزى ومن شعره :

---

(١) جاء فيه أنه ولد بظهيرة مدينة صغيرة فى ديار بكر بعد الستين وأربعمائة » . والصواب « بطنزة » .

(٢) جاءت فيه طنزة مصحفة الى « طبرة » والطنزى مصـحفا الى « الطبرى » .

سألته اللثم يوم البين فالتثما وضده التيه أن يثنى الى فما
فكيف أطلب حفظ الود من صلف، ســألته قبلةً يوم الوداع فمـا
وله : والله لو كانت الدنيا بأجمعها تبقي علينا ويأتي رزقها رغدا
ما كان من حق حر أن يذل بها فكيف وهي متاع يضمحل غدا ؟!

توفي في الثاني والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، ومولده سنة ستين وأربعمائة[1] » •

وليست بنا حاجة الى ذكر التواريخ الاخرى فالكل مجمعون على أن الحصكفي كان بصيرا لا ضريرا ، فكيف تبـادر الى أذهانهم أنه كان ضريرا ؟ ان ذلك مستغرب جدا •

٨٢ ـ وجاء في حاشية الصفحة ١٧٧ « واشترك في المؤامرات وفر مع عباس الصنهاجي » يريد الامير أسامة ابن منقذ » • واستعمالهم « اشترك » للواحد من غير صلة « مع » ولا واو العطف ، انما هو من التعابير العامية ، فلا يقال « اقتتل فلان » ولا « اقتسم » ولا « احترب » ، فالصواب « وشارك في المؤامرات[2] » •

٨٣ ـ وجاءت في الصفحة ١٨٦ ترجمة « أبي المهند حسام بن مبارك بن قضـــة (كذا) العقيلي ولم يحيلوا في ذكر مظـــان ترجمتـــه على تلخيص معجم الالقاب لابن الفوطي ولو للمقـــابلة ، قال ابن الفوطي : « عزالدين أبو المهند حسام بن قصة بن عبدالله العقيلي المصري الامير ، ذكره عمادالدين الاصفهاني الـكاتب في كتاب خريدة القصر وقال : لم

---

(١) تلخيص معجم الالقاب « ج ٥ الترجمة ١٥٤١ ، طبعة لاهور » ، وجاء في خريدة القصر « قسم الشام ١ : ٥٦١ » أنه توفي سنة ٥٣١ أو ٥٣٣ • وهذا وهم من الناشر الدكتور شكري فيصل •

(٢) يظهر لنا أنهم أخذوا ذلك من قول أصحاب الجرائد والمجلات « بدل الاشتراك » وهذا وهم والصواب « بدل المشاركة » • والغريب في استعمال الاشتراك ما نراه في عدة مجلات ثقات كمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق •

يكن في مصر أفخم منه شأنا ، وأعظم سلطانا وهو ابن أخت الصالح بن رزيك ، وكان المقدم على عسكره ، وانتقل بعد خاله من مصر الى دمشق وكان بها الى سنة احدى وسبعين [وخمسمائة] ثم رحل عنها في هذه السنة الى العراق لقصد الحجاز . ومن شعره :

نار الفراق تشب بين ضلوعي وتزيد اشعالا بماء دموعي[1]
ضدان ما اجتمعا ولا حلا معاً الا بقلب الهائم المصدوع

وتوفي بعد سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة[2] » .

٨٤ ــ وورد في الصفحة المذكورة ترجمة أبي القاسم هبةالله بن عبدالله بن كامل داعي الدعاة بمصر وقد ذكروا في الحاشية مظان ترجمته وفاتهم تلخيص معجم الالقاب أيضا ، قال ابن الفوطي : « فخر الامناء أبو القاسم هبةالله بن عبدالله بن كامل المصري الداعي ، ذكره العماد الكاتب ، وقال : كان داعي الدعاة بمصر للادعياء ، وقاضي القضاة لاولئك الاشقياء ، يلقبونه بفخر الامناء ، ولما انكدرت نجومهم ، وتغيرت رسومهم ، تحرك ابن كامل الناقص للذب عنهم ، والشد منهم ، ومالأ قوما على البيعة لبعض أولاد العاضد ، فصلبوا ، وفخر الامناء في أولهم ، وذلك في غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة . وأنشد له :

لئن كان حكم النجم لاشك واقعاً فما سعينا في دفعه بنجيح
وان كان بالتحنيك يمكن دفعه علمنا بأن الحكم غير صحيح[3] » .

٨٥ ــ وورد في الصفحة ١٨٧ قول العماد « فحرك ابن كامل ناقص

---

(١) لقد خالف جميع الشعراء والمغرمين بهذا القول ، فان الباكي يجد راحة وانكشافا للكرب بالبكاء ، راجع قول المؤدب في « ص ٢٣٧ »
« انقع غليل الاسى بدمع تقرح أسرابه الجفونا »

(٢) تلخيص معجم الالقاب « ٤ : ٤ أ و ٢٠٣ بخطي » .

(٣) تلخيص المعجم المذكور « ٤ : ٢٧٩ بخطي » ، والعجيب أن أبا شامة المقدسي ذكر ابن كامل في الروضتين وسماه أولا « ١ : ٢١٩ ، ٢٢٠ » المفضل بن كامل .

الذب عنهم » • وقد قدمنا أنه « تحرك ابن كامل الناقص للذب عنهم » •
والجملة الاولى مضطربة العبارة ، والثانية واضحة المعنى ، صالحة المبنى ،
كما هو ظاهر •

٨٦ ـ وجاء فى الصفحة ١٨٧ ذكر الوجيه أبى الحسن على بن
يحيى الذروى[١] وقد أشاروا الى مظان ترجمته ومواطن ذكره ،
وفاتهم وفيات الاعيان ، فقد ذكره ابن خلكان فى ترجمة
أبى الميمون المبارك بن كامل بن علي ابن منقذ الكنانى الشيزرى ، قال :
« ومن مداحه القاضى الوجيه رضي‌الدين أبو الحسن على بن أبى الحسن
يحيى بن أحمد المعروف بابن الذروى ، مدحه بقصيدته الذالية التى سارت
مسير المثل وأولها :

للك الخير عرّج بي على ربعهم فذي　　ربوع يفوح المسك من عرفها الشذي[٢]»

وذكر منها عشرة أبيات ، وذكره ابن خلكان أيضا فى ترجمة أبى
القاسم هبةالله بن سناء الملك المذكور فى هذا النقد سابقاً ، وترجمة
موفق‌الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوى « ٢ : ٥١٢ من طبعة بلاد
العجم » •

٨٧ ـ ووردت فى الصفحة ١٨٩ ترجمة أبي المعالى عبدالعزيز بن
الحسن بن الحباب (كذا) الاغلبى السعدى • وقد ذكرنا سابقا أنه « ابن
الجباب » على وزن شداد بالجيم ، وقد ذكروا مظان ترجمته وفاتهم الوافى
بالوفيات ، قال الصلاح الصفدى : « عبدالعزيز بن الحسين بن الجباب ـ بالجيم
والباء الموحدة المشددة وبعد الالف باء أخرى ـ الاغلبى السعدى التميمى
الصقلى ، هو المعروف بالقاضى الجليس أبو المعالى قال ابن نقطة ••• وسمي

---

(١) اضبطوا « الذروى » بكسر الدال وقال ابن خلكان : « الذروى
بفتح الذال المعجمة والراء بعدها واو ، هذه النسبة الى ذرو وهى قرية
بصعيد مصر » « ٢ : ١٤ طبعة بلاد العجم » •

(٢) الوفيات « ٢ : ١٤ من الطبعة المذكورة » •

هو الجليس لانه كان يعلم الظاهر وأخويه أولاد الحافظ القرآن والادب ، وكانت عادتهم يسمون المؤدب الجليس[1] ، وقال العماد الكاتب : مات سنة احدى وستين وخمسمائة وقد أناف على السبعين ، ذكره عمارة في تاريخ اليمن ، وأن ابن الجباب تولى ديوان الانشاء للفائز مع الموفق بن الخلال[2] ... » .

٨٨ ـ وجاء في الصفحة ١٧٨ قول الوجيه رضي‌الدين أبي الحسن على بن يحيى الذروى المقدم ذكره في أحدب :

يا أخي كيف غيرتك الليالى وأحالت ما بيننا بالمحال

وجاء في آخرها قول القائل : « وهذه الابيات لم يقل مثلها في أحدب وهى في ابن أبي حصينته الذى أصله من المعرة » . وكانوا قد قالوا في جاشية الترجمة : « نقلنا هذه الترجمة عن المغرب لابن سعيد نسخة دار الكتب ، المجلد الثانى الورقة ١٧٠ ولم ننقلها عن مختصر الخريدة لانه أشد اختصارا ، ويبدو من المغرب أن هذا كل ما قاله العماد في الخريدة وقد عقب عليه بنقول اخرى من كتاب الذيل والسيل للعماد وهو ذيل له على الخريدة وبنقول ثانية من ديوان ابن الذروى ... » .

وهذا البيان يفيد أن جملة « وهى في ابن أبي حصنية الذى أصله من المعرة » من اضافة ابن سعيد العمارى المغربى مؤلف المغرب ، وهى خطأ من القول ، للغلط التاريخى ، فابن أبي حصينة هو الامير أبو الفتح الحسين بن عبدالله ابن أحمد بن عبدالجبار السلمى المعرى ، توفى سنة ٤٥٧ على قول ياقوت في معجم الادباء[3] ، وقد بالغ ابن شاكر الكتبى فذكر أنه توفى

(١) بهذا نعلم أن قول العماد في الخريدة « جليس صاحب مصر » من الاستدلال باللفظ على المعنى دون معرفة الاصطلاح .

(٢) الوافى بالوفيات « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢٠٦٦ الورقة ٢١١ » .

(٣) معجم الادباء « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢٠٦٦ الورقة ٢١١ » .

فى حدود سنة خمس للهجرة[1] ، وكانت وفاة ابن الذروى سنة ٥٧٧ فمن المحال أن يكون ابن الذروى وصف حدبة ابن أبى حصينة المذكور ان كانت له حدبة ، فلعل الاحدب الموصوف الحدبة هو من ذرية الشاعر المذكور ، وكان على الناشرين الشارحين أن ينبهوا القراء الى ذلك ، وقد نقل هذه البيوت لا الابيات السيد ابن معصوم المدنى ، قال فى باب التهكم : « وقول ابن الذروى فى ابن أبى حصينة وكان أحدب وهو من شاهد المدح فى معرض السخرية : يا أخى كيف غيرتنا الليالى[2] ... » .

٨٩ ـ وجاء فى الصفحة ١٩١ قول العماد الاصفهانى : « وأنشدنى الامير العضد مرهف للجليس يخاطب الرشيد بن الزبير ... » . فقالوا فى الحاشية : « الامير مرهف هومرهف بن أسامة بن منقذ وقد تقدم التعريف بأبيه وهما من أعيان شيزر » وهذا تعريف ناقص ، والصحيح أنهما من أمراء شيزر قال ياقوت الحموى فى سيرة أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى : « ذكره عمادالدين أبو عبدالله محمد بن حامد الاصفهانى فى كتاب خريدة القصر وجريدة العصر وأثنى عليه كثيرا فقال : ما زال بنو منقذ هؤلاء مالكى شيزر وهى حصن قريب من حماة ، معتصمين بحصانتها ، ممتنعين بمناعتها حتى جاءت الزلزلة فى سنة نيف وخمسين [وخمسمائة] فخربت حصنها ، وأذهبت حسنها وتملكها نورالدين محمود بن زنكى وأعاد بناءها ، فتشعبوا شعبا ، وتفرقوا أيدى سبا[3] » .

قال العماد فى ترجمة أسامة : « حتى أعاد الله دمشق الى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة سبعين [وخمسمائة] ، ولم يزل مشغوفا بذكره ، مستهترا باشاعة نظمه ونثره والامير العضد مرهف

---

(١) فوات الوفيات « ١ : ٢٣٩ طبعة محمد محيى الدين وهى كثيرة الغلط » قال ابن شاكر : « توفى فى حدود الخمسمائة رحمه الله تعالى » ، وهذا من المحالات .

(٢) أنوار الربيع فى أنواع البديع « ص ١٩٦ » .

(٣) معجم الادباء « ٢ : ١٧٤ طبعة مرغوليوث » . ولم أجد هذه الفقرة فى أول ترجمة أسامة من الخريدة .

ولد الامير مؤيدالدولة [أسامة] جليسه ونديمه وأنيسه[1]» وقال ياقوت :
« وقد رأيت أنا العضد هذا بمصر عنـــد كونى بها فى سنتى ٦١١ و٦١٢
وأنشدنى شـــيئا من شعره وشـــعر والده » ثم قال : « وكتب اليه ابنــه أبو
الفوارس مرهف الى حصن كيفا كتابا على يد مستمنح فلم يمكن الوقت
من بلوغ الغرض » . ثم قال : « فارقته فى جمادى الاولى سنة ٦١٢ بالقاهرة
يحيا ، ولقيته بها وهو شيخ ظريف ، واسع الخلق ، شائع الـكرم ، جماعة
للـكتب وحضرت داره واشترى منى كتبا وحدثنى أن عنده من الـكتب
ما لا يعلم مقداره ، الا أنه ذكر لى أنه باع منها أربعة آلاف مجلد فى نكبة
لحقته فلم يؤثر فيها ، وسألته عن مولده فقال : ولدت سنة (٥٢٠) فيكون
عمره الى وقتنا هذا اثنتين وتسعين سنة ، وكان قد أقعد ، لا يقدر على الحركة
الا أنه صحيح العقل والذهن والفطنة والبصر ، يقرأ الخط الدقيق كقراءة
الشبان الا أن سمعه قد ثقل ، وكان ذلك يمنعنى من مكاثرته ومذاكرته ،
وكان السلطان صلاحالدين ـ رح ـ قد أقطعه ضياعا بمصر فهو يصرفها
فى مصــالحه وأجراه الملك العادل أخو صلاحالدين على ذلك وكان الملك
الـكامل بن العادل يحترمه ويعرف له حقه ، وأنشدنى شيئا من شعره وشعر
أهله لم يحضرنى منه فى هذا الوقت ما أورده ، وذكر له العماد فى كتاب
الخريدة ما ذكر أنه سمع منه ... ومات فى ثانى صفر سنة ٦١٣[2] » .
وترجمه عمادالدين الاصفهانى قال : « الامير عضدالدولة أبو الفوارس
مرهف بن أسامة بن منقذ ، ذو المجــد الاثير ، والفخر الاثيل ، والبيت
الاصيل ، أنشدنى بدمشق سنة احدى وسبعين [وخمسمائة] لنفسه[3] .. »
وذكر أبياتا له .

---

(١) الخريدة قسم الشام « ١ : ٤٩٩ » ومعجم الادباء « ٢ : ١٧٥ » .
(٢) معجم الادباء « ٢ : ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٩٦ ، ١٩٧ » والاصل « ومات الامير عضدالدين بن مرهف (كذا) فى ثانى صفر سنة ٦١٢ » والصواب « عضدالدولة مرهف » كما تقدم ، وقول ياقوت عضدالدين غلط .
(٣) الخريدة المذكورة « ١ : ٥٧١ » .

وذكره ابن الفوطي في الملقبين بالعضد قال : « عضدالدين أبو الفوارس مرهف بن مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ الشيزرى الامير الاديب[1] »

وترجمه أبو شامة المقدسي في وفيات سنة ٦١٣ قال : « وفيها في ثاني صفر توفي بالقاهرة العضد مرهف بن مؤيدالدولة أسامة بن منقذ وله من العمر اثنتان وتسعون سنة ونصف ، وشيع السلطان[2] جنازته ، وكان جليلا عند الملوك وأبوه من قبله ، وقد ذكرنا من أخبـــاره في التاريخ ، وفي كتاب الروضتين ما دل على جلالة بيته وأدبه وشــــجاعته ، وفضائله ، مع طول عمره - رح -[3] » .

وقال زكي‌الدين المنذري المصرى في وفيات سنة ٦١٣ : « وفي الثاني من صفر توفي الامير الاجل الفاضل أبو الفوارس مرهف بن الامير الاصيل مؤيدالدولة أبي المظفر أسامة بن أبي سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الـكناني الـكلبي الشيزرى المولد المصرى الدار الشـــافعي المنعوت بالعضد ، بالقاهرة ودفن من الغد ، ومولده في النصف من جمادى الاولى سنة عشرين وخمسمائة وقيل ان مولده في يوم الاثنين الثامن عشر من ذى الحجة من السنة ، سمع من والده وحدث ، سمعت منه وله شعر وجمع من الـكتب كثيرا ، وكان شديد الشغف بها والاجتهاد في تحصيلها ، حسن المحاضرة ، وهو من بيت الامارة والفضيلة وقد تقدم ذكر والده[4] » .

وترجمه شمس‌الدين الذهبي في وفيات سنة ٦١٣ قال : « مرهف بن أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، الامير العالم ، مقدم الامراء ، جمال الرؤساء ، عضدالدولة ، أبو الفوارس ابن الامير الـكبير الاديب مؤيدالدولة أبي المظفر الـكناني الـكلبي الشيزرى ، أحد الامراء

---

(١) تلخيص معجم الالقاب « ٤ : ٥٦ من نسختي بخطي » .
(٢) السلطان اذ ذاك هو الملك العادل بن أيوب أخو صلاح‌الدين الايوبى .
(٣) ذيل الروضتين « ص ٩٣ » .
(٤) التكملة لوفيات النقلة نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية « ١ ، ٩٢ ، ٩٣ » .

المصريين . ولد بشيزر في سنة عشرين وخمسمائة وسمع من أبيه ، روى عنه الزكي المنذري[1] والشهاب القوصي ، وكان مسنا معمرا شاعرا كوالده وقد جمع من الكتب كثيرا ، وكان مليح المحاضرة ، توفي — رح — في ثاني صفر[2] » .

وقد كناه سبط ابن الجوزي بأبي الفضل بخلاف المؤرخين ، قال في ترجمة محمد ابن ابراهيم الكيزاني[3] الواعظ المتوفى سنة (٥٦٠) : « أنشدني من شعره ابو الفضل مرهف بن أسامة بن منقذ بمصر في سنة سبع وستمائة[4] ... » .

وقد وجدت له جزءاً من شرح ديوان المتنبي في دار الكتب الوطنية بباريس أرقامه ٣١٠٦ ولولا معرفتي سيرته لم أعرفه .

٩٠ — وورد في الصفحة ١٩٣ استشهاد بأبيات لصردر الشاعر المشهور وقد جاء في شطر البيت الرابع « من العدل أن يحيا بها مستحقها » . والاصل « أن يحبى » كما جاء في الديوان « ص ٦١ » وهو الموافق لمقتضى الحال فالبيت هو :

من العدل أن يحبى بها مستحقها ويخلعها مردودة مستعيرها

٩١ — وورد في الصفحة ١٩٦ قول القاضي الجليس :

وأعقبه عيد الغدير فلم تخل لقرب التداني أن بينهما فرقا

أراد عيد الاضحى وعيد النوروز وقد ذكرهما في الشعر ، فعلقوا على عيد الغدير ما هذا نصه « هو من أعياد القبط المهمة وكان الفاطميون

---

(١) يعني مؤلف التكملة لوفيات النقلة المقدم ذكره .

(٢) تاريخ الاسلام « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٨٢ الورقة ٢٠٥ » .

(٣) في مرآة الزمان ٨ : ٢٥٤ » وهو مرجعنا « الكتاني » وهذا من غلط التصحيف .

(٤) مختصر الجزء الثامن من مرآة الزمان « ص ٢٥٤ » طبعة حيدر أباد بالهند .

يحتفلون به احتفالا مشهودا ، الخطط : ٤٩٢/١ » •

وعيد الغدير من أعياد الشيعة الامامية وغيرهم من فرق الشيعة ، وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ، والغدير هو غدير خمّ ، وذلك أن الشيعة الامامية ومن جرى مجراهم يعتقدون أن النبى ـ ص ـ جعل ولاية العهد لعلي بن أبي طالب ـ ع ـ فى ذلك اليوم وكان نصبه اياه فى غدير خم ، كما هو مفصل فى التواريخ وكتب التراجم ، ولعل القبط كانوا يشاركون الشيعة فى ذلك العيد مجاملة لهم •

٩٢ ـ وجاء فى الصفحة ٢٠٥ قول المهذب بن الزبير : « وهل يشفى لها أبداً غليل » بفتح الياء والفاء من « يشفى » ولا محل لهذا الضبط ها هنا ، فالصواب بناؤه للمجهول ، اما « شفي يشفى » بوزن فرح ، فهو بمعنى « غرب » يقال : شفي الهلال ، ولا محل له هنا •

٩٣ ـ وورد فى الصفحة ٢٠٦ قوله :

وقـد وقفت على الاطلال أحسبها / جسمي الذي بعد بعد الظاعنين بلي

هكذا بناء « بلي » للمجهول ، وهو وهم لانه أراد « البلى » أى الرثاثة والرمة يقال « بلي الجسم يبلى بلىً وبلاءاً » وأما « بلاه » فمعناه « اختبره وامتحنه » ولا محل هنا لابتلاء الجسم واختباره •

٩٣ ـ وجاء فى الصفحة ٢٠٧ قوله :

وقـد لقوا كل من غاروا بمشبهه   حتى لقوا النجل عند العرض بالنجل

هكذا ضبطوا « غاروا » بالراء المهملة ، ولم يحركوها لثقتهم بأنها لا تحتاج الى ضبط ، والصواب « غازوا » بفتح الزاى ، يقال : « غازوهم يغازونهم مغازاة وغزاءاً » قال المبرد في الكامل : « اذا أدخلت الالف قلت : أغزيت وكذلك غازيت واستغزيت[1] » • وقال قطرى به الفجاءة :

الى كم تغازيني السيوف ولا أرى   مغازاتها تدعو اليّ حماميا[2]

(١) الكامل فى الادب « ١ : ٧٠ طبعة الدلجمونى الازهرى » •
(٢) أمالى المرتضى « ٣ : ٩٠ من الطبعة الاولى » •

٩٤ ــ ورد في الصفحة ٢٢٥ قول المهذب بن الزبير : « أمنت عداتي ثم خفت احبتي » • وقد ضبطوا « عداتي » بكسر العين وهو خطأ لان العداة جمع العادي ، وفاعل المنقوص يجمع على « فعلة » مثل الشادى والشداة ، والعاتى والعتاة والبانى والبناة ، والباغى والبغاة •

٩٥ ــ وورد في الصفحة ٢٢٦ ترجمة أبي الفتح محمود بن اسماعيل بن حميد ابن قادوس الفهرى ، فقالوا في حاشية الصفحة المذكورة لبيان مظان ترجمته : « في حسن المحاضرة ١ : ٣٢٤ كاتب الانشاء بالديار المصرية وشيخ الفاضل وكان يسميه ذا البلاغتين » • ولم يزيدوا على ذلك شيئا ، مع أنه مذكور استطرادا في معجم الادباء « ١ : ٤١٩ »[1] والروضتين « ١ : ٢٢٦ » وفي بدائع البدائه « ص ١٧٢ ، ٢٣٣ » وذكره ابن شهراشوب

في استشهاده بشعراء الشيعة قال : قال : « القاضي ابن قادوس المصرى :

هى بيعة الرضوان أبرمها التقى وأنارها النص الجليّ وأحما
ما اضطر جدك في أبيك وصية وهو ابن عم أن يكون له انتمى
وكذا الحسين وعن أخيه حازها وله البنون بغير خلف منهما[2] »

وذكر له الشريف جمال الدين محمد بن عبدالعزيز الادريسي أبياتا في كتابه في تاريخ الاهرام[3] •

٩٦ ــ وجاء في الصفحة ٢٢٩ قول ابن قادوس المذكور :

ونداك كل مؤمل ما أملا الا تجهم للعفاة وأملا

ولم أجد لهذا البيت وجها من صحة التركيب ولا وجها من المعنى ، وهو مصحف تصحيفا فاحشا وصوابه :

وفداك كل مؤملٍ ما أملا الا تجهم للعفاة وأم لا

---

(١) وهذا الذكر مكرر في وفيات الاعيان « ١ : ٥٤ طبعة بلاد العجم » وبدائع البدائه « ص ٢٣٣ » وشذرات الذهب « ٤ : ٢٠٣ » •

(٢) مناقب آل أبي طالب « ٢ : ١٧٧ » طبعة بلاد العجم الاولى •

(٣) أنوار علو الاجرام في الكشف عن أسرار الاهرام « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢٢٧٤ الورقة ٨٠ » •

يريد : يكون فداءك كل رجل مرجو معتفى مسترفد لم يقصد محواج الا عبس في وجهه واستعمل في رده « لا » التي هي ضد الكرم والسخاء والاحسان والاعطاء ، ولاذبها .

٩٧ ـ ووردت في الصفحة ٢٣٥ ترجمة الموفق أبي الحجاج يوسف بن محمد بن الخلال المقدم ذكره استطرادا ، وذكر الشارحون في الحاشية مظان ترجمة ، وفاتهم كامل ابن الاثير في وفيات سنة ٥٦٦ و « نكت الهميان في نكت العميان » للصفدي « ص ٣١٤ » والوافي بالوفيات له في اليوسفين وقال في الخاء : « ابن الخلال صاحب ديوان الانشاء بمصر أيام الفاطميين اسمه يوسف بن محمد[1] ... » . فهذا يدل على أنه ترجمه في موضعه لان الوافي بالوفيات تم قبل وفاة مؤلفه ، وبين ما ذكره الصفدي لابن الخلال من الشعر في نكت الهميان وما جاء في الخريدة اختلاف قليل جدا في كلمات معدودات كان ينبغي تنبيه القراء عليها .

٩٨ ـ وجاء في الصفحة ٢٣٧ قول علي بن الحسن المؤدب :

انقع غليل الاسى بدمع   تقرح أسرابه الجفونا

وضبطوا « تقرح » بضم التاء وكسر الراء بجعله رباعيا ، وهذا غلط فانه ثلاثي بهذا المعنى ، يقال « قرحه يقرحه قرحا أي جرحه » وأما « أقرحه اقراحا » فمعناه أخرج فيه قروحا ، والشاعر يريد خدش الجفنين وجرحها ، لا اخراج القروح فيها ثم ان الدمع قد يحدث القرح على اعتبار المبالغة في القول ولا يحدث الاقراح .

٩٩ ـ وورد في الصفحة ٢٤٤ قول ابن الصياد :

وشردها اشفاقها منك فاغتدت   ترى الارض خوفاً وهي من ضيقها فتر
فذلوا كأن العز ما كان بينهم   وصاروا كأن الفقر عندهم قبر

والصواب « كأن القفر » أي الصحراء لان المراد أنهم مشردون في القفار ،

---

(١) الوافي بالوفيات « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢٠٦٤ الورقة ٢٤ » .

والقفار ضائقة بهم وكأنها قبر لهم لخوفهم ورعبهم ، فلا محل اذن للفقر بتقديم الفاء على القاف •

١٠٠ – وورد فى الصفحة ٢٤٩ قول محمد بن هانىء الاندلسى الصغير :

زارت نعاماها وزار خيالها فتيممت بكليهما تيماء

ولا محل للتيمم هنا ، أى التوخي والقصد أو توخى التراب مكان الماء ، والصواب « وتيمنت » بالنون أى تباركت ، فتيماء تباركت بنعاماها وخيالها •

١٠١ – وجاء فى الصفحة ٢٥٢ قوله :

أما عجباً أن هام فيه رقيبه وأني على ذاك الرقيب رقيب ؟!

ولا أرى وجها وجيها لنصب « عجبا » ، و « ما » لا تعمل عمل ليس فى هذا الموضع ، قال الرضى الاستراباذى فى بطلان عمل « ما » الحجازية • « ومن ذلك أن يتقدم نفس الخبر ظرفا كان أو غيره نحو : ما قائم زيد وما فى الدار زيد وذلك لضعفها فى العمل فلا تتصرف فى العمل بأن تعمل النصب قبل الرفع ، قبل الفعل ، وقال ابن عصفور : لا يبطل عملها اذا كان الخبر المتقدم ظرفا أو جارا ومجرورا لكثرة التوسع فيه كما تعمل ان وأخواتها ، وقال أبو على : زعموا أن قوما جوزوا اعمالها متقدمة الخبر ، ظرفا كان أو غيره • وقال الربعى : الاعمال عندى هو القياس لبقاء معنى النفى ، وأما قول الفرزدق :

فأصبحوا قد أعاد الله دولتهم اذ هم قريش واذ ما مثلهم بشر

فان سيبويه حكى أن بعض الناس ينصبون[1] (كذا) « مثلهم » • قال : هذا لا يكاد يعرف ، وقيل ان خبر (ما) محذوف أى (ما فى الدنيا بشر) ومثلهم حال من (بشر) مقدم عليه ، وجوز الكوفيون انتصابه[2] على

(١) بعض عند الفصحاء تعنى الواحد والواحدة من ذى الاجزاء المتمايزة كالانسان ، بشرط أن لا تكرّر كما فى هذا القول •
(٢) أى انتصاب « مثلهم » •

الظرف أي في مثل حالهم وفي مثل مكانهم من الرفعة ويروى : ما مسيئا من أعتب ، قالوا : ونحو قوله :

لو انك يا حسين خلقت حراً   وما بالحرّ أنت ولا الخليق

دليل على جواز تقديم الخبر المنصوب ، اذ الباء لا تدخل الا على الخبر المنصوب دون المرفوع ... وقال الكوفيون : الاسمان بعد « ما » مبتدأ وخبر وانتصاب الثاني بنزع الخافض أعني الباء ، وليس بشيء لان الباء زائدة ...[1] » .

ومحصول هذا القول أن تقديم خبـــر « ما » الحجازية منصوبا غير فصيح وخاصة اذا لم يكن ظرفا أو جارا أو مجرورا ، كالقول السابق « أما عجبا أن هام فيه رقيبه » ؟!

١٠٢ ــ وجاء في الصفحة ٢٥٧ قوله :

كأنما السحب رعال بهـا   للخيل في كل مغـار جماح

وقد ضبطوا « مغار » بفتح الميم ، والصواب ضمها لان الكلمة اسم مكان من « أغار » الرباعي ، أو مصدر ميمي ، وأما « المغار » بفتح الميم فهو من « غار » أي أتى الغور ، أو غار بمعنى غاض أو غار من الغيرة أو غير ذلك مما لا صلة له بالاغارة التي تناسب الخيل والجماح .

١٠٣ ــ وورد في الصفحة ٢٥٩ قوله :

وكانت مســحة للحســن فيــه   فصار من العذار عليه مســـح

قالوا : « المسح ثوب من الشعر غليظ » وفتحوا الميم ، والذي حفظناه بكسر الميم ، جاء في مختار الصحاح « والمسح بوزن الملح البلاس[2] » .

---

(١) شرح الكافية « ١ : ٢٩٢ ، ٢٩٣ طبعة استانبول » .

(٢) والبلاس بكسر الباء ويجوز فتحها ثوب من الشعر غليظ ، وقال الجوهري في الصحاح : « وأهل المدينة يسمون المسح بلاسا وهو فارسي معرب ، ومن دعائهم : أرانيك الله على البلس ، وهي غرائز كبار من مسوح يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به وينادى عليه » . وقد كان قال : « والمسح البلاس والجمع أمساح ومسوح » فلم يفدنا شيئا سوى معنى المسوح المحشوة تبناً .

١٠٤ ـ وجاء في الصفحة ٢٦١ قوله :

ولا يمنع المعروف عن مستحقه   كمن يحجب الحيران عن طرق الرشد

والتركيب ظاهر الاختلال ، ولعل الاصل « ومن يمنع المعروف عن مستحقه » وبه يصح التشبيه أو أراد أن يماثل « كالطعن يذهب فيه الزيت » .

١٠٥ ـ وجاء في الصفحة ٢٧٢ قوله :

وقائلة مالي أرى الحظ وافراً   بكل دنيء في الرجال وضيع

والصواب « لكل دنيء » لان الحظ يفر له ولا يفر به الا اذا كان هو أداة للوفارة ، وليس الامر كذلك .

١٠٦ ـ وقال في الصفحة ٢٧٤ :

لقد بسم الاصباح عن ثغر أغيد   وفاح نسيم الروح من فوره عرفا

بكسر السين من « بسم » والصواب فتحها ، لانه من باب « ضرب يضرب » ، ولو كان من باب « فرح » لكان مصدره على وزن « فعل » كفرح ، والعرب كما تستدل بالافعال على المصادر كذلك تستدل بالمصادر على الافعال .

١٠٧ ـ وورد في الصفحة ٢٧٥ قوله :

كأن اعتناق القضب والغيم دالج   وداع خليط ذر من دمعه وكفا

هكذا ورد « دالج » بالجيم ، والصواب « دالح » بالحاء المهملة ، قال الجوهري في الصحاح : « وسحابة دلوح أي كثيرة الماء وسحائب دلح مثل راكع وركع »[1] .

والذي أوهم الشراح فظنوا أن « دالح » هو « دالج » كون الفعل « دلج » الثلاثي بمعنى « أخذ الماء من البئر وأفرغه في الحوض » ، وهو عمل الانسان ولا يلتبس بعمل الغيم ، ثم ان الافراغ مشترط في الدلوج ولا افراغ في الدالح فضلا عن أنه صفة ليس لها فعل صريح ، وانما

(١) وقع في طبعة بلاد العجم من الصحاح وهم ، وقد اعاد الناسخ المادة على الصحة ، وهي : « وسحابة دلوح أي كثيرة الماء وسحائب دلح مثل قدوم وقدم وسحاب دالح وسحائب دلح مثل ركع وراكع » وهو الصواب .

يؤول بأن السحابة الدالحة تدلح بمائها أي تسير منقبضة الخطو لثقل الماء عليهـــا .

١٨٠ ـ وجاء في الصفحة ٢٧٨ قوله :

يحكي الغمائم جـــوده ولربمّـــا قصرت عن المحكي فعـــال الحاكي

وقد ضبطوا « فعال الحاكي » بفتح الفاء ، والفعال بالفتح هو اما الـكرم واما مصدر فعل بفتح العين ، مع أن تأنيث الفعل « قصرت » يشعر بأن المراد « فعال الحاكي » بكسر الفاء وهو جمع « فعل » بكسر الفاء وتسكين العين ، وهو مثل « قداح وقدح وشبال وشبل وشعاب وشعب » .

١٠٩ ـ وورد في الصفحة ٢٨٠ قوله :

وأحسن من قنو خضاب خود دم يحمر في زرق السنان

بضم الزاي وتسكين الراء من « زرق » وذلك خطأ لانك لا تقول « من بيض السيف ولا من سمر الرمح » اذا أردت جمع أبيض وأسمر ، فالوصف مجموعا يضاف الى الجمع من هذا الوزن ، والصواب « من زرق السنان » وهو الزرقة ، وبوزن الفرح ، ولا يجوز هنا أن يقال ان « الزرق » جمع جنسي للزرقة أو مضاف وعند الاضافة يجوز حذف التاء لان ذلك مقصور على المعتل الفاء أو العين من غير الالوان ، قال الجوهري : « وقول الشاعر : وأخلفوك عد الامر الذي وعدوا . أراد عدة الامر ، فحذف الهاء عند الاضافة » .

وقال تعالى : « واقام الصلاة » أي اقامة الصلاة[1] .

١١٠ ـ وجاء في الصفحة ٢٨٣ قول أبي التقى صالح بن الخال :

فاجنح لزورة شلو مشحن وصباً ألهى انتظارك بعضاً منه عن بعض

هكذا ضبطوا « مشحن » بالحاء المهملة و « صبا » بكسر الصاد من الصبا

---

(١) قال تعالى في سورة الانبياء : « وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » وقال في سورة النور : « رجال لا تليهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة » .

الذى قبل الشباب من أطوار العمــر ، وذلك من التصحيف الغــريب والصواب :

فاجنح لزورة شلو مشجن وصــب الهى انتظارك بعضا منــه عن بعض

فالمشجن من « أشجنه يشجنه ، اشجانا أى أحزنه ، والوصب بكسر الصاد ، صفة مشبهة من وصب فلان يوصب وصبا فهو وصب كفرح ، أى مرض ، والدليل على أنه كان وصبا أى مريضا قول المؤلف قبل الابيات « وجدت له ... قصيدة كتبها اليه وهو موعوك يقتضى زيارته » .

١١١ ـ وورد فى الصفحة ٢٨٤ قوله :

لبيــك لبيــك من داع الى فرض يدعو فأقضى وفرض الحج ما أقضى

بضم الضاد من « فرض الحج » والصواب فتحها لان الاسم منصوب وهو مفعول مقدم للفعل المنفى بما « أقضى » يعنى أنه يدعوه الى فرض زيارته وعيادته لمرضه فيجيب الدعوة ويقضى الفرض المذكور على حين لا يقضى فرض الحج الذى هو من أركان الاسلام . والنصب فى « فرض » واجب لان فعله خلو من ضمير يعود اليه فيشغله عنه ، كما تقول : « والله اسأل أن يوفقنى للصواب » .

١١٢ ـ وورد فى الصفحة ٢٨٦ قول ابن الضيف :

ان ودعت فلثمت ثغــراً أشــنباً ورشــفت ريقــاً بارداً معســولا

ولا محل لان ، ثم ان الفاء فى « فلثمت[1] » ينفى وجود الشرط ، ويثبت وجود الخبر ، فالصواب « اذ ودعت ... » .

١١٣ ـ وورد فى الصفحة ٢٨٦ قوله :

مناســره اختطفت مهجتي وأظفاره أنشبت فى اهــابي

---

(١) ضــبطوا « لثمت » بفتح التاء ، والفصيح كسـرها على وزن « فرح » ، قال مؤلف المختار : « اللثم التقبيل وبابه فهم ، ولثم بالفتح لغة نقلها ابن كسيان عن المبرد » .

هكذا بناء « أنشبت » للمعلوم ، ومقتضى الحال يوجب بناءه للمجهول ، لان الانشاب يقع على الاظفار ، فيصدر عنها النشوب ، وليس هذا كقول الشاعر القديم : « واذا المنية أنشبت أظفارها » فذلك على الاستعارة وتشبيه المنية بالحيوان المفترس ذى الاظفار ، ومع ذلك فالاظفار منشبة أيضا بفتح الشين لا « منشبة » بكسرها • هذا وقد ورد فى اللغة « أنشب الصائد : علق الصيد بحبالته » فهو منشب (اسم فاعل بكسر الشين) ولا محل له ها هنا ، لان الانشاب اللازم للآدميين لا للاظفار ، ولا وجه للمجاز حتى يقال ان الاظفار حلت محل الانسان ، لان الاظفار بأعيانها هى أدوات النشوب وهى الناشبة على الحقيقة ، يضاف الى ذلك أن الجار والمجرور « فى اهابى » يدلان على أنه أراد أنشب المعتدى لا اللازم •

١١٤ ـ وجاء فى الصفحة ٢٨٩ قوله :

وأشم ريحان الشعور مطيباً ‏ ‏ وأعل خمـــراً بالثغور مشنبا

بضم الشين من « أشم » والفصيح فتحها ، قال مؤلف المختار ، « شم الشيء يشمه بالفتح ، شــما وشميما أيضـا ، وشم من باب رد لغة فيه » •

هذا ما استوقفنا من الجزء الاول من الخريدة المصرية فاستوجب التعقيب على أحمد أمين ـ رح ـ وشوقى ضيف واحسان عباس وهو شيء غير قليل ، ويبعث على الاسى والاسف ، لان الـكتب الادبية جلالها فى حسن ضبطها ، فاذا وقع الغلط فيها كانت كثيرة الاضرار • وقراءة النصوص الادبية بحركاتها وضبطها من أهم المواضيع وأعسر التكاليف ، والخطأ فيها شديد الخطر على الدراسات الادبية فضلا عن كونها تقصيرا من الناشر فى فهم مقاصد الناثر أو الشاعر ، والله الموفق للصواب •

مصطفى جواد

المدرسة الشرابية

أو

« القصر العباسي » في قلعة بغداد

ناجي معروف
رئيس قسم التاريخ فى كلية الآداب
بجامعة بغداد

الفصل الاول

براهين فنية تثبت أن « القصر العباسي » مدرسة عباسية ، وليس قصرا ، ولا دارا

لم يعرف على وجه التحقيق ، الغرض الذى شيدت من أجله العمارة المعروفة اليوم بـ « القصر العباسى » فى قلعة وزارة الدفاع ببغداد • وكل ما ثبت للباحثين أن « القصر العباسى » المذكور بناية عباسية ، تدل آثارها الباقية على فخامتها ، وجمالها ، وروعة هندستها ، وزخرفتها • ولم يعرف مَنْ انشأها ، ولا التاريخ الذى انشئت فيه • لانه لم يتسن للعلماء ، والباحثين الوقوف على التفاصيل الضرورية التى تمكنهم من معرفة حقيقتها ، وماهيتها لندور المراجع التاريخية عن بغداد فى العصور المتأخرة •

وسنحاول فى هذا البحث ان نثبت بصورة قطعية ، انها كانت احدى مدارس بغداد فى أواخر الدولة العباسية • وأنها ليست قصراً من قصورها ، ولا داراً من دورها • أما اسمها واسم بانيها فاننا سترجح أن تكون « المدرسة الشرابية » التى انشأها « اقبال الشرابى » احد كبار رجال المستنصر بالله العباسى • لكننا سوف لا نبت فى هذا الرأى ، ولا نقطع به • وسنترك للباحثين البحث فيه ، حين يتوافر عندهم ما يساعدهم على معرفة ذلك •

ان هذه البناية تقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية من قلعة وزارة

الدفاع الحالية ، يفصل بينها وبين بناية وزارة الدفاع الحديثة جامع القلعة الذي تشير وقفيته المؤرخة فی سنة ١٠٤٨هـ (١٦٤٨م) الى انه كان يقع فی محلة السكةخانة[١] والذی يرجح انه جامع سوق السلطان الذی بناه الناصر لدين‌الله العباسی كما سنذكره فی حينه ٠

وقد مرت هذه العمارة بأدوار مختلفة منذ أواخر أيام العباسيين حتى اليوم ٠ ومما لاشك فيه أنها اتخذت معهدا علميا للتدريس ، ودار علم للكتب ، رَدَحا من الزمن ، وتقلبت بها الاحوال فی أيام المغول ، والتركمان ، ومن جاء بعدهم ٠ ثم اتخذت فی العهد العثمانی لاغراض عسكرية ، وبذلك نسي الناس ما كانت عليه هذه البناية ، لاسيما وان الدخول الى « القلعة » المذكورة لم يكن سهلاً يومئذ باعتبارها مركزا عسكريا ٠ وقد شيد العثمانيون بلصقها برجا كبيرا ولعل ذلك قد تم بعد شيوع استعمال المدافع ، والآلات النارية[٢] ٠ كما اضيف اليه فی ذلك العهد أيضا مخازن ، وغرف ، وقبب عديدة ٠ وقد أثرت هذه الاضافات على العمارة المذكورة فشوهت معالمها الى حد بعيد ٠ وعندما عزمت مديرية الآثار العامة على دراسة هذا الأثر التاريخی الاسلامی القيم ، عمدت الى هدم جميع الاقسام المستحدثة ، عدا البرج العسكری نظرا لانه كان مستقلا عن هذه العمارة ، ولم يشوه أو يغير شيئا من معالمها ، ولا تخطيطها أو هندستها ٠ وكان من جملة ما هدمته مديرية الآثار العامة ، قبة كبيرة كانت على المدخل الرئيس لهذه البناية ، مما يلی جهة النهر ٠ وقد هدمتها مع جدرانها التی كانت ترتكز عليها ٠ وكان من نتائج هذا الهدم ظهور هذا المدخل الرئيس مما يلی دجلة ، وبذلك انجلى جانب مهم من ذلك الغموض الذی كان يكتنف هذا الأثر التاريخی الجليل ، حيث ظهر بوضوح كيفية الدخول الى هذه البناية ، والانتقال من « المجاز » أو « المابين » كما سمته

---

(١) راجع كتابنا تاريخ علماء المستنصرية ص : ٥ – م ٠

(٢) بقايا القصر العباسی ص : ٥ ٠

مديرية الآثار الى القاعات الكبرى ، أو الى الرواق الذى كان يحيط بالصحن ، ثم الوصول الى الايوان ، الذى يعتبر أروع أقسام هذه البناية ، والى بقية أجزائها الاخرى •

وقد عُنيت مديرية الآثار العامة بدراستها ، وترميمها وصيانتها على عهد مديرها السابق أستاذنا العلامة ساطع الحصرى سنة ١٩٣٤م • وقد تمكنت منذ ذلك الوقت ، بما بذلته من جهود مشكورة حتى اليوم ان تعيد أكثر أقسام هذه البناية الى أصلها الذى انشئت عليه أول مرة ، من حيث التخطيط ، والزخرفة • واتخذت منها متحفا للآثار العربية •

ولما لم يهتد حتى اليوم أحد من العلماء المحققين المعنيين بالآثار العربية ، الى معرفة حقيقة هذه البناية معرفة أكيدة ، فقد عزمتُ على دراستها دراسة فنية ، ومقارنتها بالمبانى الاثرية المشابهة لها فى العراق ، للوصول الى نتيجة حاسمة تقرر ماهيتها وحقيقتها •

وسأستعرض الآراء المختلفة ، التى توصل اليها الباحثون قبل أن ابدأ بتفصيل رأيي الذى نشرته مجملاً قبل ١٤ سنة فى مجلة التفيض •

لقد رأت مديرية الآثار القديمة فى نشرتها التى نشرتها عام ١٩٣٥م تحت عنوان « بقايا القصر العباسى فى قلعة بغداد » أنها كانت أحد القصور العباسية[١] • وكان المرحوم يعقوب سركيس يرى انها « دار المسناة » التى بناها الناصر لدين‌الله العباسى • وقد ذكر انه كان « أول من أبان ان اسم هذا البناء هو دار المسناة » فى مقال كتبه قبل ثلاثين سنة فى مجلة لغة العرب[٢] وقد ذهب هذا المذهب زميلنا الدكتور مصطفى جواد ونشر عنها بحوثا ضافية كما سبق للاستاذ المهندس « هنرى فيوليه » الفرنسى الذى استقدمه ناظم باشا والي بغداد سنة ١٩١٠م لتجميل بغداد وتنظيم هندستها ان اشار فى بحثه عن الريازة الاسلامية الى زخارف « القصر العباسى » فظن

(١) بقايا القصر العباسى ص : ١ •

(٢) راجع مباحث عراقية ــ القسم الثانى ص ١ •

انها من الجبس وهو الكلس « Stuc » [1] • وقد اثبتُ له عندما زرته بباريس سنة ١٩٣٨م ان في « القصر العباسي » وفي المدرستين : المستنصرية والمرجانية زخارف كلها من الآجر ، وهي محفورة بعناية بالغة ، ومنقوشة بنقوش زهرية أو هندسية بديعة • وذكرتُ له انها غير مصبوبة في قوالب ، بل رسمت على الآجر المطبوخ أو المفخور بالنار ، ثم حفرت بعد ذلك ، وزينت بها جبهات العمائر ، وسقوفها • وقد ذكر هذه البناية استاذنا لويس ماسينيون المستشرق الفرنسي[2] • ونشر الجنرال دى بيليه De Beylié صورتين للايوان صورهما له المسيو فيوليه المذكور • وفي سنة ١٩٤٠ ناقشتُ المرحوم يوسف غنيمة مدير الآثار القديمة يومئذ وبعض موظفي مديرية الآثار مبيناً لهم ان البناية الموصوفة انْ هي الا مدرسة وليست قصراً ولا داراً • واسترجحت آنذاك ان تكون « المدرسة الشرابية » أو « الشرفية » التي اسسها شرف‌الدين اقبال الشرابي في خلافة المستنصر • وقد مالوا الى الاخذ بهذا الرأي • واشاروا الى ذلك في دليل[3] « بناية المتحف الاسلامي أو القصر العباسي » • وعندما نشر الدكتور مصطفى جواد بحثه المفصل الذي أكد فيه ان « القصر العباسي » هو دار المسناة[4] كتبتُ على أثر ذلك بحثا مفصلا ، اثبتُ فيه ان « القصر العباسي » مدرسة عباسية ، وليس قصرا عباسيا ، ولا دار المسناة الناصرية • وأيدت هذا الرأي الجديد بالبراهين الفنية ، والادلة التاريخية • وعرضتُه على أستاذنا الدكتور ناجي الاصيل مدير الآثار العام اذ ذاك لنشره في مجلة سومر ، فرحب بالبحث اشد الترحيب وأوعز بنشره غير أن البحث مع ذلك كله لم ينشر في المجلة المذكورة • ولذلك آثرتُ نشر خلاصته في

(1) L'architecture Musulmane du XIIIe Siècle en Irak. paris 1913.

(2) Mission en mesopotamie 1907-1908. m. Louis massignon VII. P:84.

(٣) راجع النشرة المذكورة ص : ١ ، المطبوعة سنة ١٩٤٣م •

(٤) مجلة سومر ج : ٢ من السنة الاولى ص : ٦١ ــ ١٠٥ •

مجلة التفيض التى كنت اشرف على تحريرها[1] • وقد ختمتُ ذلك البحث العلمي بقولى : « وبعدُ فهذا بحث موجز قائم علىأساس من التاريخ والفن ، توخيت فيه معرفة حقيقة البناية العباسية التى فى القلعة • وقد توصلتُ فيه الى رأي فى هذه البناية المهمة اعرضه فى جملة الآراء التى عرضت حتى الآن للأخذ به ، أو رده ، أو مناقشته حباً في الوصول الى معرفة حقيقة هذه العمارة » •

ولقد أجريتُ كثيرا من المناقشات مع المعنيين بمثل هـذه الامور ، وبخاصة مع كبار موظفى مديرية الآثار العامة الذين كنت قد زاملتهم رَدَحاً من الزمن فى المديرية المذكورة ، وفى أثناء التنقيبات التى اجريناها فى سـامراء ، وواسط بين سنتي ١٩٣٩م و ١٩٤١م • وقـد وجدتهم جميعا مقتنعين برأيي هذا وبوجهة نظري في ان هذه البناية كانت مدرسة عباسية ، ولم يخامرهم شـك فى ذلك • وقـد اخبرنى السـيد ناصـر النقشبندى مـدير المسكوكات والابحـاث الاسـلامية فى مـديرية الآثار العـامة انه نشر بحثـا فى مجلة « أهـل النفط » بعـد بحثى المذكور آنفـا بأكثـر من عشر سنوات[2] أشـار فيه أيضـا الى أن هـذه البنـاية « مدرسة » كما اشرتُ أنا الى ذلك • وفى سنة ١٩٤٨م نشر الاستاذ يعقوب سركيس كتابه « مباحث عراقية » وكان أول بحث فيه : « القصر العباسى ، دار المسناة » الذى كان منشورا فى جريدة البلاد فى ١١ أيلول سنة ١٩٣٥م • وقد اشار فى الحاشية الى بحثى الذى نشرته فى مجلة التفيض والى وجهة نظرى فى هذه البناية من أنها مدرسة ، وليست قصرا ولا دارا • ثم قال عن نفسه وبحثه عن القصر العباسى : ان الدكتور مصطفى جواد « يعترف بأن هذا الـكشف لى » وقال أيضا « وكان الدكتور قد ايدنى عدة مرار قبل كتابته فى سومر » •

ان التحليلات الفنيـة والتاريخية التى ذكرتُهـا فى مجلة التفيض آنفة الذكر لم تدع مجالا للشك ، فى ان هـذه البنـاية كانت مدرسة

(١) راجع العددين ٢٣ و٢٧ من السنة ١٩٤٦م •

(٢) راجع مجلة أهل النفط العدد (٧١) من سنة ١٩٥٧ ص ٣٦ •

عباسية ، ولم ينكر أحد من الناس دعواي هذه . وأود اليوم ان أزيد على ما ذكرته قبلا أمورا عدة كلها تثبت أن هذا « القصر العباسي » مدرسة عباسية وليس قصرا عباسيا كما ظنت مديرية الآثار العامة ، ولا دار المسناة الناصرية كما ذهب الى ذلك المرحوم الاستاذ يعقوب سركيس وأيده الدكتور مصطفى جواد . وسوف لا أكرر ما ذكرته في مجلة التفيض من الملاحظات العديدة على بحث الدكتور مصطفى جواد الذى نشره فى مجلة سومر ، والذى بذل فيه جهده وافرغ فيه وسعه ليثبت الدعوى التى ادعاها المرحوم يعقوب سركيس ، وهى أن القصر العباسى هو دار المسناة التى بناها الناصر لدين‌الله ، لاننى فندت ذلك تفنيداً لا يترك مجالا للشك فى أن هذه البناية ليست قصرا ولا دارا وانما هى مدرسة عباسية[1] .

اننا اذا استطعنا أن ننقض الآراء القائلة بأن هذه البناية كانت « قصرا » أو دار المسناة الناصرية » بالادلة الفنية وأخرجناها من‌عداد القصور والدور ، وجب علينا ان نبحث فى ما يمكن ان تكون . ولاشك عندنا فى انها كانت احدى مدارس بغداد الكبرى . ويتضح ذلك جلياً من اوجه الشبه بينها وبين مدرستين اخريين هما : المستنصرية ، والمرجانية اللتان نملك عنهما معلومات مفصلة ، تساعدنا الى حد بعيد على اثبات ما ذهبنا اليه ، باعتبار ان المرجانية ، بنيت على غرار النظامية ، وان المستنصرية بنيت لتنافس النظامية ، وان الشبه بين المستنصرية ، وبين بناية « القصر العباسى » قوى جدا مما يدل على ان هذه البناية مدرسة كالمستنصرية وكالمرجانية . ولذلك نذكر ان هذه المقارنة الفنية بينها وبين المدرستين المذكورتين ، ينبغى ان تكون فى

---

(١) مجلة التفيض ج ٢٣ ص ١١ — ١٧ و ج ٢٧ ص ٨١ — ٨٦ .
وراجع الحوادث الجامعة ص : ١١١ ، ١٣٢ ، ١٨٦ .

التشابه القوي فى الامور التالية :

١ـ فى المخططات • ٢ـ فى الابواب والمداخل • ٣ـ فى الساحات والصحون • ٤ـ فى الاواوين • ٥ـ فى المجازات والدهاليز والاروقة • ٦ـ فى القاعات الكبرى • ٧ـ فى القاعات التى زخرفت رتاجاتها • ٨ـ فى حجوم الحجر والغرف • ٩ـ فى الزخارف الآجرية • ١٠ـ في المساجد التى فى الضلع القبلية فى كل من هذه المبانى الثلاثة • ١١ـ فى طراز التسقيف وطراز الريازة •

لقد ثبت لمديرية الآثار العامة ، مما قامت به من التحريات فى أثناء التنقيب عن الاسس التى اندثرت من هذه البناية ، ان الاسس أصلية لم يظهر فيها أى أثر يدل على النقض • فآجر الاسس والجدران القائمة كلها من نوع واحد ، وحجم واحد ، ولم يظهر ما يدل على اضافة اسس أخرى • كما أنه ليس ثمة أسس ، أو جدران تتعارض مع الاسس القديمة ، كالذى وجدناه واضحا فى جامع الحجاج بواسط ، حيث انشئت ثلاثة جوامع فوق جامع الحجاج ، وفى غيره من المبانى التى كانت عرضة للنقض ، والبناء ، والتجديد ، والترميم • وفى هذا دلالة كافية على أنه لم يحدث عليها أى بناء آخر ، مما لا يخامرنا شك فى ان هذا المكان ليس « دار تتر »[1] التى نقضها الخليفة المقتفى لأمر الله العباسى سنة ٥٤٧هـ (١١٥٢م) ، والتى انشأ عليها الناصر لدين‌الله « دار المسناة » كما يذهب الى ذلك الزميل الدكتور « مصطفى جواد[2] » وبعبارة أخرى ليست هذه العمارة « دار المسناة » التى انشأها الناصر لدين‌الله العباسى •

---

(١) هو احد امراء السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى •

(٢) مجلة سومر • الجزء الثانى من السنة الاولى ص ٦١ ـ ١٠٥ •

ان عدد الحجرات ، والغرف فى الضلع الشرقية من هذه العمارة يبلغ ١٦ غرفة • ويحتمل انه كان يقابلها ١٨ غرفة ، فى طابقى الضلع الغربية كما هو واضح فى المخطط المرقم (١) • وقد نتج هذا التباين فى عدد غرف هتين الضلعين المتناظرتين بسبب اتخاذ طرفى الضلع الشرقية مجازين يتصلان بالرواق ، والدهليز • وليس الامر كذلك فى الضلع الغربية • وفى هذه البناية غرف صغيرة أخرى غير التى ذكرناها ، ولذلك يمكن ان يبلغ مجموع ما فى هذه البناية من حجر وغرف ، الاربعين ، ما عدا القاعات الكبرى ، والمنشآت الاخرى •

ان عرض الحجر والغرف بوجه عام لا يتجاوز ٣٢ سم ٢ متر (مترين واثنين وثلاثين سنتيمترا) وان طولها ٨٠ سم ٣ متر (ثلاثة أمتار وثمانون سنتمترا • واكثرها خال من الكوى ، والمشاكي • ولذلك يمكن أن نتساءل عن الاغراض التى انشئت من اجلها هذه الحجر ، والغرف التى تطل على ساحة واحدة ، أو صحن واحد ، وعلى أروقة مزخرفة ، هل كانت تتخذ لسكنى الخليفة ونسائه ؟ أو أن نساء الخليفة وجواريه كن يستقبلن سيدهن الخليفة فى هذه الغرف الضيقة ، البسيطة ، الخالية من كوى الاضاءة ، والتهوية ، أم أن الغرف الكبيرة التى كان يسكن فيها الخليفة الناصرلدين الله ، ونساؤه ، وحاشيته ، وأهل بيته قد نقضت ، وبني مكانها هذه الغرف الصغيرة • وللوصول الى الجواب الصحيح ينبغى علينا ان نبحث فى أمرين اثنين اولهما : هل هذه الغرف اصلية أم محدثة ؟ وثانيهما : هل يوجد مثل هذه الغرف فى قصور الخلفاء فى بغداد ، وسامراء ، اتخذت مساكن للخلفاء ، ونسائهم وجواريهم ، أم لا ؟

ان التحريات ، والتنقيبات التى اجرتها مديرية الآثار فى هذه البناية ، تدل على أن الغرف الصغيرة فى الطبقتين العليا ، والسفلى ، والايوان ،

والمجازات ، والاروقة ، والدهاليز ، والقاعات الكبرى ، والمدخل ، والزخرفة على اختلافها هي من المباني الاصلية كما اسلفنا ، بنيت حين وضعت تصاميم هذه البناية ، وليست من المباني التي استحدثت بعد ذلك لاتصال الزخرفة ، وتناسق الدعائم ، والجدران ، وانسجام بقية المرافق الاخرى • ويهمنا في بحثنا هذا ان نثبت للقارىء ان الغرف الصغيرة المذكورة بنيت في أول الامر بهذا الحجم الصغير كغرف المستنصرية ، والمرجانية • واذا كانت غرف المستنصرية التي تكبرها شيئا قليلا قد اتخذت بيوتاً للطلاب فمن الاولى والاقرب الى الواقع ان تكون غرف « القصر العباسي » بيوتاً للطلاب أيضا • ولا بد ان نقرر أيضا ان هذه الغرف الصغيرة تختلف اختلافا كبيرا عن تلك الغرف الواسعة التي وجدناها في أثناء التنقيب في سامراء ، تلك الغرف المبلطة بالآجر المزجج ، أو القاشاني المعرّق ، المؤزرة بالرخام المفوّف ، المطعمة جدرانها بالفسيفساء ، المموهة سقوفها بماء الذهب ، المحلاة بشبابيك الزجاج ذي الالوان المختلفة ، المزينة بالمشاكي الجميلة من الجبس أو الجص •

اين هذه البناية المظنون انها قصر أو دار المسناة الناصرية ، من المباني الواسعة ، والقصور الفخمة في سامراء وواسط ، وبغداد • ان التنقيبات التي أجريناها في سامراء سنة ١٩٤١م في الموسم الخامس في دور العامة ، ودور القواد ، ودار الخلافة ، وقصور الخلفاء ، وابنائهم وامرائهم قد دلت على وجود حجر ، وغرف أوسع بكثير من الحجر والغرف التي اشتملت عليها البناية المدعوة خطأً بـ « القصر العباسي » بل اننا لم نجد تقريبا بين الغرف في دور السكنى على كثرتها غرفة واحدة عرضها كعرض هذه الغرف سواء كان ذلك في دار الخلافة في سامراء أو بيت « الامام » الواقع بلصق الضلع الجنوبية لجامع المتوكل المعروف بجامع « ابي دلف » اليوم ، أو في قصر « الحويصلات » • ولا في الاقسام التي بنيت على الطراز الحيري ذي الصدر

والـكُمَّيْن[1] في كثير من دور السكنى في سامراء • ولا في دور القواد والامراء التي بنيت على جانبي الشارع الاعظم الذي كان عرضه مئة متر ، فالغرف فيها مزخرفة وواسعة كأنها القاعات الفسيحة • وقد وجدنا في أثناء التنقيبات في احد دور الشارع الاعظم بهواً فخماً يتكون من ٥ حجرات × ٥ حجرات أكثرها مزخرف ، تنفتح على بعضها ، وتكون منظرا خلابا • اما في بيت الخليفة ، وقصر المعتز الذي يسميه أهل سامراء (المنقور) ، والمعشوق ، والجعفري ، والقصور الاخرى فالغرف فيها عديدة جدا وواسعة جدا ، ومزخرفة بأنواع الزخارف الرخاميــة ، أو الجصية أو الجبسية وبالفسيفساء ، والآجر المزجج • هذا في سامراء قبل رجوع الخلفاء الى بغداد • ولا نشك مطلقا في ان غرف القصور البغدادية ، كقصر الذهب أو باب الذهب ، والخلد ، والقرار ، وقصور البرامكة ، والتاج ، والفردوس ، والثريا ، والحسنى ، والدار المعزية ، ودار المسناة كانت أعظم بهاء ، وسعة من تلك الغرف • فالاخبــار متواترة ومتظافرة عن سعة هــذه القصور ، وجمال مشتملاتها •

ويكفي للدلالة على ذلك ان نذكر ان طول سور « المنقور » وهو الذي بناه المتوكل لابنه المعتز يبلغ ١٢٠٠ متر ، ومساحته تزيد على ثلاثة أضعاف مدينة سامراء الحالية • واطلال قصر المتوكل المعروف بالجعفرى كأنها مدينة قائمة بذاتها • وبيت الخليفة أو دار الخلافة تبلغ مساحتها نحو ٨٠٠ × ٩٠٠

(١) الحيرى • نسبة الى الحيرة • قال المسعودى : (وأحدث المتوكل في أيامه بناءً لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيرى والـكمين والاروقة وذلك ان بعض ســماره حدثه في بعض الليــالي ان بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بنى نصر احدث بنيانا في دار قراره وهي الحيرة على صورة الحرب ، وهيأتها للهجته بها ، وميله نحوها لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله ، فكان الرواق مجلس الملك وهو الصدر ، والـكمان ميمنة وميسرة • ويكون في البيتين اللذين هما الـكمان من يقرب منه من خواصه • وفي اليمين منهما خزانة الـكسوة ، وفي الشمال ما احتيج اليه من الشراب • والرواق قد عم فضاؤه الصدر ، والـكمين ، والابواب الثلاثة على الرواق • فسمى هذا البنيان الى هذا الوقت بالحيرى والـكمين اضافة الى الحيرة • واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماما بفضله ، واشتهر الى هذه الغاية) •

متر • وطول بناية المعشوق الداخلية ١٣١ مترا وعرضها ٩٦ مترا • وبين هذه البناية وسورها الخارج مبان فرعية عديدة[١] • اما فى بغداد فقد روى ياقوت الحموى ان قصر عيسى بن علي عم المنصور بالجانب الغربى كان يسكنه أربعة آلاف نفس[٢] • وسمي قصر المنصور بالخلد تشبيهاً له بجنة الخلد لما يحويه من كل منظر رائق[٣] • واما الثريا قصر المعتضد بالله فكان نهر موسى الآخذ من نهر (بيـْن) يدخله ، ويدور فيه ، ويخرج منه • وأما نهر المعلى فكان يدخل قصر الخلافة المسمى بالفردوس فيدور فيه ، ويصب فى دجلة • وكان نهر آخر يدخل القصر الحسني ، ويدور فيه ، ويصب فى دجلة • وكان نهر المهـدي يصب فى بركة فى جوف قصر الرصافة[٤] •

فأين اذن هذا البناء الصغير ، وغرفه الضيقة من هذه القصور العظيمة ؟ ولأى الامور كانت تستخدم هـذه الغرف الصـغيرة العديدة الموجـودة فى ما يسمى بـ « القصر العباسي » اليوم ؟ • وللاجابة على هذا السؤال ينبغى ان نقارن بين هذه البناية وبين المستنصرية والمرجانية لعلنا نظفر عندها بالجواب الذى يكشـف لنا عن حقيقتهـا • ان التشـابه بين هـذه البنـاية وبين المدرستين : المستنصرية ، والمرجانية قوى وشديد بحيث لا يترك مجالا للشك فى ان « القصر العباسى » كـان مدرسة عباسية • واليك اوجه الشبه فى الامور التالية :

١ ـ مخطط « القصر العباسي » ومقارنته بمخطط المستنصرية والمرجانية •

ان هذا المخطط قريب الشبه جدا بمخطط مدرستين معروفتين هما : المستنصرية والمرجانية • ففى الضـلع القبلية فى كل من هـذه العمارات الثلاث : أ ـ مسجد أو جامع • وقبالة الجامع ايوان فخم فى كل من « القصر العباسى » والمرجانية • اما جامع المستنصرية فيقابل ايوان المدخل الفخم ، الرفيع ، المزخرف • ب ـ فى البنايات الثلاث حجرات وغرف عديدة فى

(١) سامراء ـ نشرة مديرية الآثار سنة ١٩٤٠ •
(٢) معجم البلدان ٤ ص ١١٨ •
(٣) الخطيب البغدادى ١ : ٧٥ •
(٤) الخطيب البغدادى ١ : ١١٤ ـ ١١٥ •

الطابقين عدا الضلع القبلية حيث المسجد أو الجامع • ج ـ في البنايات الثلاث سلالم في الطابقين يصعد بها من الصحن الى الطابق الثاني والى أعلى السطح يظهر منها أربعة سلالم في المرجانية وستة في المستنصرية واثنان في « القصر العباسي » تبدو آثارهما في الغرفتين الواقعتين على طرفي الايوان• ولا شك في أنه كانت فيه سلالم أخرى مما يلي الجامع أو في أمكنة أخرى غيرهـا •

٢ ـ الابواب والمداخل :

ان الباب الرئيس في المستنصرية مدخل رفيع مزخرف أعلاه وجانباه من الخارج بزخارف رائعة ، وكانت عليه كتابة آجرية بالخط النسخي ، محشاة بزخارف آجرية في منتهى الذوق • والباب يفضي الى مجاز معقود عال ، مزخرف ، على هيأة الاواوين الكبرى • وفي المرجانية باب عال أيضا فوقه كتابة ، مزخرفة ، كما زخرف أعلاه ، وجانباه أيضا ، وجهته المطلة على الصحن • والباب يفضي الى مجاز معقود يتصل بمشتملات المدرسة الاخرى •

وفي « القصر العباسي » باب درست معالم الزخرفة والكتابة التي يحتمل أنها كانت على جبهته • وهو يفضي الى مجاز أنيق ، مزخرف سقفه وجدرانه بزخارف آجرية جميلة للغاية • وفيه دكات يظهر انها كانت للبوابين والفراشين ولذلك فان هذا المدخل أحرى ان يكون مدخل مدرسة من ان يكون مدخل قصر أو دار • وهذا المدخل يتصل بالمسجد ، والصحن ، والدهليز ، والرواق •

ان هذه الابواب الثلاثة في هذه المدارس الثلاث تتشابه من جميع الوجوه الا في أمر واحد هو ان في باب المدرسة المرجانية اليوم مئذنة قائمة في الركن الايسر منه • وليس الامر كذلك في المستنصرية و « القصر العباسي » وينبغي ان يلاحظ ان هذه المئذنة مستحدثة ويحتمل ان سليمان باشا والي بغداد بناها في سنة ١٢٠٠هـ حينما وسع المصلى وجعل من المدرسة جامعاً •

ويظهر ان المعمار الذى بنى بناية « القصر العباسي » كان أدق من

غيره حين جعل المجاز وما يتصل به من الاروقة والدهاليز متصلة بعضها ، لتقي الطلاب ، وأرباب هذا المعهد من المطر ، والشمس • وليس الامر كذلك في المستنصرية لأن مدخلها يفضي الى الصحن مباشرة • وربما استنتجنا من ذلك ان هذه البناية قد بنيت في أثناء بناء المستنصرية أو بعدها وليس قبلها • وأن المعمار الذي اشرف على بنائها استفاد من هذا النقص الملحوظ في بناية المدرسة المستنصرية فعالجه في بناية « القصر العباسي » •

٣ ـ الساحات أو الصحون :

وهي الافنية التي تتشابه في هذه المباني الثلاثة ، مما يدل على ان بناية « القصر العباسي » كانت مدرسة أيضا ، فالصحن فيها واحد ، وليس ثمة أي احتمال في تعدد صحونه أو رحباته • أي انه ليس فيه صحن آخر للحرم • والاحتمال الوحيد ان يكون ذلك في الحد الاعلى من البناية • وحيث ان الاسس والغرفتين الموجودتين في هذه الضلع ، وبقايا الجدران الارضية ، والفوقانية لا تزال موجودة حتى هذه الايام ، وحيث ان التناظر يستلزم ان تكون هذه الضلع كالضلع الشرقية المقابلة لها ، باستثناء المجازين ، اللذين في هذه الضلع الشرقية فاننا نستطيع ان نجزم ان هذه البناية تتكون من ساحة أو رحبة واحدة[١] فقط يطل عليها المسجد ، والايوان المقابل له بحجره وغرفه ، كما تطل عليها الحجر ، والغرف التي في الضلعين الشرقية والغربية • ويتصل الصحن بالاروقة والدهليز •

ان هذا الصحن يشبه تماما صحن المدرسة المرجانية ، وصحن المدرسة المستنصرية اللذين يطل على كل منهما المسجد ، والاواوين • وتتصل به الاروقة والدهاليز ، ومنه يفضى الى بيوت الطلاب •

وتختلف هذه الصحون بسعتها وشكلها ، ففي كل من « القصر العباسي » والمرجانية صحن مربع تقريبا ، والصحنان رحبتان صغيرتان اذا

---

(١) ترى مديرية الآثار العامة في نشرتها عن « القصر العباسي » سنة ١٩٣٥ ان القصر كان مؤلفا من عدة احواش وليس الامر كذلك لانه ليس لدينا ما يدل على هذا الامر •

قيستا بصحن المدرسة المستنصرية ، علاوة على ان المستنصرية بالنظر لسعتها وكثرة طلابها ، وتعدد أقسامها العلمية ، كان فيها فيما يظهر أكثر من صحن واحد • فمدرسة الفقه كان لها صحن كبير هو الرحبة الباقية حتى اليوم وتبلغ مساحتها « ٦٢٫٦٠ مترا × ٢٦٫٧٥ متراً » • ودار القرآن ، كان لها صحن فيه اليوم جامع الآصفية • ومما يدل على ذلك فتحة الايوان الذى فى دار القرآن • وربما كان لمبانيها الاخرى التى كانت تجاورها أو تصاقبها ساحة أخرى درست معالمها •

ويمكن ان نقارن بين هذه الصحون فى هذه البنايات الثلاث • فصحن « القصر العباسى » مربع تقريبا ، طوله (٢١٫٥) واحد وعشرون مترا ونصف المتر • وعرضه (٢٠) عشرون مترا •

واما المدرسة المرجانية ، فصحنها مربع أيضا طوله نحو (٢٣) مترا ، وعرضه مثل ذلك •

٤ ـ الاواوين :

ويمكننا ان نعرّف الايوان بأنه طاق كبير عال مدبب العقادة يشبه قاعة كبيرة • يبنى فى صدر احدى الاضلاع فى المبانى الكبرى ، كالمدارس أو دور الخلافة أو القصور • والايوان فى هذه العمارات يقابل الصدر فى الطراز الحيرى ذى الصدر والكُمَّيْن • ويكون عادة مفتوحا على الصحن من جهته الامامية ، ويعرف فى العراق باسم « الليوان » • ومنه ايوان كسرى فى المدائن « سلمان باك اليوم » • وقد يتخذ للتدريس ، والاحتفالات • وفى المدرسة المستنصرية اليوم أواوين عظيمة منها : ايوان دار القرآن • وايوان الشافعية • وايوان الحنفية • وايوان المدخل • وعقود عديدة تمثل بعض الاواوين الصغيرة • والاواوين الكبرى فى هذه المدرسة تشبه تماما الايوان الموجود حاليا فى بناية « القصر العباسى » من حيث طراز البناء ، والسعة ، والزخرفة ، والمتانة • ومثل ذلك يقال عن ايوان المدرسة المرجانية الفخم الذى كان يتميز بوجود كتابة فيه تحيط بها الزخرفة •

ان السقف فى ايوان « القصر العباسى » بيضى الشكل ، ومزين

بزخارف تبدأ من علو ثلاثة أمتار ونصف المتر . وقد جعلت كذلك لئلا تمسها الايدى فتتلفها . والقسم المزخرف من الجدران يبرز عن أقسام الجدران السفلى على هيأة افريز جميل . والقسم الامامى من الايوان مزدان بنطاق من الزخارف تزيد في جمال الايوان . ويلاحظ ان هذا النطاق الزخرفي الامامي ينزل الى ما تحت مستوى الافريز الذى في داخل الايوان . ويتصل بطاقين صغيرين يعلوان العقدين الجانبيين الواقعين في طرفى الايوان . اما اواوين المستنصرية فتشبه هذا الايوان من حيث الشكل ، والسعة ، والارتفاع ، وتنوع الزخرفة ، وارتفاعها عن الارض . وكانت الزخرفة واضحة في ايوان الحنفية وضوحا تاما عندما اثبتنا في مقالنا الذى نشرناه في مجلة التفيض سنة ١٩٤٦م ان « القصر العباسى » مدرسة وليس قصرا ولا دارا . ولم تكن الزخارف يومئذ واضحة في ايوان الشافعية الذى يقابله ، ولا في المدخل ولذلك قلنا : « اما زخارف الاواوين الاخرى فيظهر ان بعضها مستور تحت طبقة التبيض » . ولقد صدق حدسنا فقد ازيل الجص عن زخارف الايوان الشافعى ، وعن ايوان المدخل . وظهرت زخارف رائعة جدا لا تقل روعة عن زخارف ايوان « القصر العباسى » ، بل تماثلها من حيث الاتقان ، والتنوع . ان ايوان « القصر العباسى » واواوين المستنصرية وايوان المدرسة المرجانية بهيأتها وارتفاعها توازى الطبقتين وتتشابه حتى في حجومها فسمك الايوان في القصر العباسى أكثر من تسعة أمتار ، وطوله ثمانية أمتار ونصف المتر وعرضه نحو خمسة أمتار ، وسمك الايوان في المستنصرية أكثر من تسعة أمتار وعرضه ستة أمتار . ومثل ذلك يقال عن ايوان المدرسة المرجانية .

٥ ــ المجازات والدهاليز :

في الضلع الشرقية لكلتا العمارتين مجازان متشابهان ، يفضيان الى دهليز طويل شاهق ، ذى كوى سقفية ، ممتد من وراء الحجرات . طوله في « القصر العباسى » ٢٦٫٧٠ مترا . وعرضه ١٫٢٨ . وسمكه أو ارتفاعه ٩٫٢٠ ، وطوله في المستنصرية

٣٤٫٦٠ • وعرضه ١٫٤٠ • وسمكه تسعة أمتار • والدهليزان متشابهان تشابها تاما • وحيث ان المستنصرية أوسع من المدرسة التى فى « القصر العباسى » والتى نرى أنها « المدرسة الشرابية » لذلك نجد فيها دهالير أخرى قصيرة على هذا النسق ، كالدهليز الذى يقع خلف القاعتين الكبيرتين الواقعتين مما يلى ربع المالكية •• الخ • (راجع صور الدهاليز) •

٦ ـ القاعات الكبرى :

وفى كل من هذه الدهاليز أبواب تفضى الى قاعات كبرى عددها سبعة فى المستنصرية ، وخمسة فى « القصر العباسى » [الشرابية] وهذه القاعات متشابهة تشابها غريبا فى التخطيط ، والارتفاع ، والحجوم تقريبا • وكذلك فى الكوى السقفية ، والمنافذ الهوائية ، وهى « الملاقف » التى تسمى عندنا « بادكيرات » • وأرى ان هذه القاعات كان بعضها للتدريس ولرجال الادارة ، وبعضها الآخر كان لخزن الكتب • فان (أ) و(ب) و(ج) و(د) فى المستنصرية كانت للتدريس وكل واحدة منها تتسع ل ٦٢ طالبا • وان (هـ) للناظر فى مصالح المستنصرية • وان (و) إما ان تكون لجلوس المدرسين أو للموظفين التابعين للناظر كالمشرف والكاتب • وكذلك يمكن ان يقال عن قاعات المدرسة الشرابية انها بنيت لنفس الغرض الذى استعملت من اجله القاعات الكبيرة فى المستنصرية فان ق٥ كانت للتدريس وهى تتسع ل ٢٥ طالبا وهم الطلاب الذين كانوا فى المدرسة الشرابية اذ ان مساحتها ٨٫٨٠ × ٤٫٢٠ • واما ق٤ و ق٣ وهما تنفتحان على بعضهما ويفضى اليهما من الدهليز ، من مدخل واحد ، فنرجح انهما كانتا لخزانة الكتب • وهما تشبهان القاعتين اللتين فى المستنصرية واللتين قلنا ان من المحتمل انهما كانتا محل خزانة الكتب المستنصرية • وهما تنفتحان على بعضهما ويدخل اليهما من صحن المدرسة كما انهما تشبهان قاعتين اخريين فى الضلع الشرقية يدخل اليهما من الدهليز الكبير ومن الدهليز الجانبى الصغير ، وهما تنفتحان على بعضهما أيضا • وحجم هاتين القاعتين ق٤ يبلغ ٦٫٥٨ × ٥٫٢١ ومساحة ق٣ تبلغ ٦٫٥٨ × ٤٫٦٥ • وارتفاع كل واحدة من هذه القاعات نحو تسعة

أمتار • واما القاعة ق١ فنرى انها غرفة الناظر فى مصالح المدرسة • ومساحتها ٢٠ر٤ × ٢٠ر٥ مترا واما القاعة ق٢ فمن المحتمل ان تكون لجلوس المدرسين وهى أكبر قليلا من غرفة الناظر • والقاعتان ق١ و ق٢ تتشابهان الى حد كبير مع قاعتى المدرسة المستنصرية هـ ، و • لاحظ المخطط •

٧ ـ غرفة الناظر :

ان ق١ أول قاعة من قاعات « القصر العباسى » فى الضلع الشرقية مزخرف رتاجها ، أى أعلى بابها بزخارف آجرية جميلة جدا كما انه يوجد فى الضلع الشرقية من المستنصرية قاعة على الدهليز الكبير تشبه القاعة المذكورة هى الوحيدة بين قاعات المستنصرية فى الضلع المذكورة مزخرف رتاجها بزخارف آجرية أيضا • مما يدل على انهما كانتا تستعملان لغرض واحد • فاذا كانت تستعمل فى المستنصرية للوالى أو للناظر فى مصالحها فلا شك ان الثانية كانت تستعمل لنفس الغرض • ويلاحظ ان كلاً من القاعتين المذكورتين تطل على مجاز يفضى الى صحن المدرسة •

٨ ـ الحجر والغرف :

فى القصر العباسى حجرات وغرف صغيرة فى الطابقين على طرفى الايوان وفى الاضلاع الاخرى ، ذكرنا ان عددها قد يناهز الاربعين • وفى المستنصرية نحو ١٠٠ من هذه الحجر والغرف عدا القاعات الكبرى ، والاواوين ، والمسجد ••• وعرض الغرف الصغيرة فى الطبقة السفلى ٤٢ سم/٢ متر • وطولها سبعة أمتار • وعرضها فى الطبقة العليا ٤٢ سم/٢ متر أيضا • وطولها ٣٢ سم ٥ متر • وتقع هذه الغرف على جوانب الاواوين المذكورة فى الاضلاع الاربع • فاذا كانت غرف المستنصرية التى رأيت سعتها قد اتخذت بيوتا للطلاب فمن الاولى ان تكون غرف « القصر العباسى » بيوتا للطلاب أيضا •

٩ ـ الزخارف الآجرية :

ان الزخارف فى « القصر العباسى » وفى المستنصرية ، والمرجانية تتشابه الى حد بعيد فى الكمية ، والنوعية فلقد يخيل للناظر الى هذه الزخرفة انها حقول واسعة من الوشى والتزويق يكاد لا يخلو منها مكان فى كل واحدة من هذه العمارات المهمة • ويظهر ذلك جليا بعد العثور على تلك الثروة الزخرفية فى المدرسة المرجانية التى كانت مستورة تحت طبقة من الجص منذ العهد العثمانى • كما ان الزخارف التى ظهرت فى باب المستنصرية ، وايوان المدخل والايوان الشافعى تدل على ان هذه الزخارف الآجرية تمتاز بتنوعها ووفرتها • ولقد كان يظن ان زخارف « القصر العباسى » لا مثيل لها من حيث الدقة والكثرة[1] فلما كشف عن زخارف المستنصرية ، وزخارف المدرسة المرجانية التى كانت مستورة تحت الجص فى المصلى ثبت لنا ان هذه الزخارف من طرز ممتاز ، وانها تتشابه تشابها تاما مما يدل على ان « القصر العباسى » كان قد بنى مدرسة منذ الاساس •

لقد ظن بعض العلماء كما أسلفنا ومنهم (هنرى فوليه) الفرنسى ان هذه الزخارف مصنوعة من الكلس (Stuc) بواسطة قوالب ، غير أن العراقيين يدركون تماما خطأ هذا الظن لانهم لا يزالون يستعملون الزخارف الآجرية وبخاصة المقرنصات Stalactites فى مبانيهم الخاصة ، والعامة لاسيما فى الجوامع والمآذن •

ان زخارف هذه العمارات الثلاث سواء كانت فى السقوف ، أو الجدران أو المقرنصات التي في الاروقة تتألف من قطع من الآجر محفورة ، ومنقوشة • وبتراصفها أو غرزها فى الجدران ، والسقوف تتكون أشكال هندسية أو زهرية • كما ان بعض الزخارف تتكون من خليط من الاشكال الهندسية والزهرية فى آن واحد • وأن الزخارف الهندسية كل جزء من أجزائها مزخرف أيضا بنقوش إما هندسية ، وإما زهرية •

---

(١) بقايا القصر العباسى ص ٢٣ •

ويلاحظ ان أكثر الزخارف فى هذه المبانى الثلاثة تتكون من قطع من الآجر المزخرف يلتحم مع بعضه بواسطة قطع آجرية رقيقة تقع زخرفتها على جزئها السميك ، وليس على سطحها العريض • وقد يرى ان حافات هذه القطع الرقيقة كثيرا ما تبرز عن سطوح القطع التى تقع بينها وبذلك تكون الزخارف ذات نتوآت كثيرة تزيدها جمالا •

ويلاحظ أيضا ان هذه القطع الرقيقة تكون فى بعض الاماكن منحنية السطوح تقع زخارفها على سطوحها المقعرة • ونتيجة تلاصقها وتراصفها يتكون منها مقرنصات ، وقبب مزخرفة في غاية الاتقان ، والجمال •

وقد يظهر للباحث في الزخارف ان أجمل الزخارف تظهر فى مجاز « القصر العباسى » (المابين) ورواقه ، وزواياه ، وفى الايوان • كما انها تظهر بشكلها الرائع في باب المستنصرية ، وصحنها واواوينها • اما دار القرآن المتصلة بالمستنصرية فى الحد الاعلى منها فقد قال ابن الساعى عنها : « لم ير مثلها احد ، وليس لادراك وصفها أمد»[1] • ولا عجب فان المؤرخين المسلمين اجمعوا على ان المستنصرية لم يكن لها نظير فى العالم ، كما انه لم يبن مثلها ، قبلها ، ولا بعدها • ويظهر ان مدارس بغداد كانت كلها تحظى بمثل هذه العناية الفائقة من الناس • فقد قال ابن جبير يتحدث عن مدارس بغداد وعناية القوم بأمرها : « والمدارس بها نحو الثلاثين ، وهى كلها بالشرقية وما منها مدرسة الا ويقصر القصر البديع عنها ••• ولهذه البلاد فى فى أمر هذه المدارس ، والمارستانات شرف عظيم ، وفخر مخلد »[2] • واما الزخارف فى المرجانية فقد ظهرت فى المصلى الذى نقل مكانه القديم الى مكان يجاوره بغيـة تعديل استقامة شارع الرشيد سنة ١٩٤٨م • وكانت من الاتقـان والبداعة بحيث يمكن مقارنتها من حيث الـكثرة ، والتفرع ، والدقة ،

---

(١) راجع كتابنا تاريخ علماء المستنصرية ص ١٨٣ ـ ١٨٤ •
(٢) ابن جبير طبعة اوربا ص ٢٢٩ • وطبعة المـكتبة العربية ببغداد ص ١٨٣ •

بزخارف المستنصرية ، و « القصر العباسي » مما لا يدع مجالا للشك في ان « القصر العباسي » كان مدرسة كالمستنصرية ، وكالمرجانية .

لقد ظهر التنوع والتفنن في الزخرفة في هذه المباني الثلاثة بعد أن ظل المعنيون بالآثار يرون أن زخارف « القصر العباسي » لا مثيل لها في بغداد ، لان التزيينات الهندسية ، والزهرية والزخارف المتكونة من امتزاج هذين النوعين ، ومن التزيينات التي تحاكي السجاد ، والمقرنصات التي تشبه خلايا النحل ، أو الاحجار المنقورة ، والنقوش التي تشبه الاخشاب المحفورة ، كلها تتنوع من ناحية الى أخرى . وفي الناحية الواحدة تتنوع من بقعة الى أخرى بصورة عجيبة ، محيرة . كل ذلك حدا بمديرية الآثار ان تعتقد ان هذه الزخارف قد اكسبت هذا « القصر » ! مكانة فنية خاصة فقالت عنه : « غير أنه لا يوجد قصر أو معبد بلغت فيه الزخرفة بواسطة الآجر الى هذا الحد من التنوع ، في الفروع مع البداعة في المجموع »[1] . على اننا نرى ان هـذا التنوع ، والابداع قـد ظهرا في المستنصرية في الباب ، وايوان المدخل . وفي ايوان دار القرآن ، وفي ايوان الشافعية والحنفية ورتاجات الحجر والغرف كما ظهر في مصلى المرجانية بشكل لايقل عن تلك المكانة الفنية الخاصة في « القصر العباسي » وان زخارف هـذه المباني الثلاثة تمثـل « الدرجة القصوى » التي وصلت اليها زخرفة الريازة العربية في الآجر مما يدل أيضا على ان هذا « القصر » اتخذ مكانا للتدريس كالمستنصرية وكالمرجانية .

١٠ ـ المساجد والمصليات :

وفي القصر العباسي آثار قاعـة كبيرة طولها ١٢٫٨ مترا وعرضهـا ٥٠ سم ٤ أمتار ويزيد ثخن اسسها على المترين تقابل الايوان ، وتطل على الصحن . ونستطيع ان نجزم انها كانت مسجد المدرسة . حيث يصلي الطلاب ، وأرباب هذا الوقف . وهذا المصلى يشبه مصلى المستنصرية الواقع

---

(١) بقايا القصر العباسي ص ٢٩ .

قبالة ايوان المدخل ، ويطل على صحنها ، وقد ظهر محرابه بعد ما كان مستوراً ببعض المبانى المحدثة • كما ان مصلى المدرسة المرجانية يشبه هذين المسجدين الى حد كبير • فهو بارتفاع الطابقين ويتكون سقفه من ثلاث قبب • ويقابله ايوان فخم • وفيه كتابات محفورة بين شبكات من الزخرفة الآجرية الزهرية والهندسية •

١١ ـ طراز التسقيف :

واما طراز التسقيف فى المستنصرية و « القصر العباسى » فهو متماثل تماما بل هو واحد فى البنايتين • فعقادة الايوان فى « القصر العباسى » تشبه تماما عقادة اواوين المستنصرية والمرجانية • وتسقيف الدهليز والغرف الصغيرة ، والقاعات الكبرى ، والاروقة لا يختلف مطلقا عما هو فى المستنصرية يضاف الى ذلك ان جميع العقادات فى هاتين البنايتين مبنية اما على الشكل المعروف باسم « الدور » وهو الذى يشبه مقطع نصف البيضة كما يظهر ذلك فى سقوف الاواوين ، والمجازات فى كلتا البنايتين • واما على الشكل المعروف بـ « المدنى » الذى يشبه مقطع سلة مسطحة القعر ، مقوسة الجانبين ، كما يظهر ذلك فى سقوف الغرف الصغيرة ، والقاعات الكبيرة فى هاتين البنايتين •

وينبغي ان يلاحظ :

١ ـ ان طاق الايوان فى « القصر العباسى » يعتبر أكبر طاق معقود على الطراز الاول • والسقف قائم على جدارين تبلغ المسافة بينهما خمسة أمتار • اما طوق أواوين المستنصرية فتعتبر أكبر الطوق المعقودة على الطراز الاول أيضا وتبلغ المسافة بين جداري الايوان ستة أمتار •

٢ ـ ويلاحظ أيضا ان أكبر سقوف القاعات الكبرى المعقودة على الطراز الثانى فى « القصر العباسى » يرى فى القاعة المرقمة (٤) كما يلاحظ ان السقف محمول على جدارين تبلغ المسافة بينهما ٥ر٢١ أمتار • بينما نجد ان أكبر السقوف المعقودة على الطراز نفسه فى المستنصرية فى القاعة المرقمة (ب) فالسقف فيها يعلو جدارين يبعد احدهما عن الآخر ستة أمتار •

٣ ـ ان عقود الابواب فى كلتا البنايتين تجمع بين الطرازين الاول

والثاني المذكورين لان كل باب يتألف من طابقين ، الخارجي منها على شكل « الدور » والثاني على هيأة « المدنى »[1] .

لم يبق بعد هذا التشابه العام الذى شرحناه ، بين بناية « القصر العباسى » وبين المستنصرية الا ان نذكر الفوارق التى بينهما لنرى انها فوارق لا تستحق الذكر ولا تكون برهاناً على خلاف ما فصلناه من أمر « القصر العباسى » وكونه مدرسة من المدارس العباسية . ويمكن ان نجمل هذه الفوارق فيما يأتى :

أ ـ فى المساحة . فان المستنصرية كانت أكبر من « القصر العباسى » لانها كانت تضم ٢٤٨ طالبا فى مدرسة الفقه ، و ٣٠ طالبا فى دار القرآن و ١٠ طلاب فى دار الحديث ، و ١٠ فى مدرسة الطب ... الخ واذا كان « القصر العباسى » هو المدرسة الشرابية فانها كانت تضم (٢٥) طالبا فقط . وهذه البناية تكفى لمثل هذا العدد .

ب ـ فى الرواق . فان رواق المدرسة الشرابية أى بناية « القصر العباسى » رواق مزخرف وهو يتكون من طبقتين ويقع أمام الحجر الصغيرة ، بينها وبين الصحن . اما فى المستنصرية فلا يوجد رواق فى الطابق الاسفل منها بل تفضى الغرف الى الصحن مباشرة . اما فى الطابق الاعلى فثمة رواق امام الغرف فى كل ربع من ارباع المستنصرية الاربعة منه يدخل اليها ومنه يطل على الصحن . وهو فى هذه الحالة يشبه تماما رواق « القصر العباسى » أيضـــا .

مما تقدم يمكننا ان نستنتج ان بناية « القصر العباسى » تشبه الى حد كبير بناية المستنصرية ، وبناية المدرسة المرجانية أى ان « القصر العباسى » اشبه ان يكون مدرسة من أن يكون داراً أو قصراً فهو يشبه المستنصرية والمرجانية فى الشكل العـام ، والتخطيط ، وحجـم الغرف ، والمجازات

---

(١) بقايا القصر العباسى ٢١ ـ ٢٣ .

والدهاليز ، والقـاعات الـكبرى ، والاروقـة ، والسقوف ، والـكوى ، والزخارف ، والمساجد ، والاواوين ، ومواقع السلالم .. الخ فالقصر العباسي والحالة هذه لا يمكن ان يكون قصرا ولا دارا بل لا يمكن الا ان يكون مدرسة . وايوانه كان محلا للتدريس في غير فصل الشتاء على مذهب واحـــد . واما في المستنصرية فكان التدريس على المذاهب الاربعة لان المستنصرية أول مدرسة في العالم الاسلامي جمعت فيها المذاهب الاربعـة بصورة رسمية .

و « القصر العباسي » بناء على ما تقدم ذكره لا يمكن ان يكون دار سكنى للخليفة ، أو لنسائه ، وجواريه ، أو لغيره من الامراء ، والقواد . واحرى به بعد التفاصيل والشروح التي سردناها والمقارنة بينه وبين مدرستين معروفتين ان يكون هو أيضا مدرسة عامرة بالفقهاء ، وان غرفه الضيقة التي هي أصغر من غرف المستنصرية لا تصلح الا لسكنى الطلبة على غرار ما كانت عليه الحال في حجر المستنصرية وغرفها ، وفي حجر المرجانية وغرفها .

الفصل الثاني

١ ـ موقع المدرسة الشرابية

وبعد أن اثبتنا بالادلة الفنية ، والتاريخية أن بناية « القصر العباسي » لا يمكن الا ان تكون مدرسة عباسية ، فانه يلزمنا أن نبذل جهدا آخر ، لمعرفة موقع هذه المدرسة ، ومعرفة منشئها .

لقد ظهر لنا في بحثنا عن مدارس بغداد القديمة[1] ان في البقعة المحصورة بين باب المعظم ، ومحلة الميدان الحالية ، وبين نهر دجلة ، والتي كان يقع فيها « باب سوق السلطان » وهو « باب المعظم » وسوق العميد ، وسوق العجم أربعة من كبريات المدارس التي انشئت في العصرين : العباسي ، والمغولي . وهي : المدرسة النجيبية ، والعلائية ، والزيركية ، والشرابية

(١) مدارس العراق في عشرة قرون ـ وهو معد للطبع .

فأما النجيبية فهى المنسوبة الى الشيخ ضياءالدين ابى النجيب عبدالقادر السهروردى المتوفى سنة ٥٦٣هـ ولا يزال ضريحه قائما فيها ٠ والمدرسة لا تزال قائمة حتى اليوم[١] الى جانب المدرسة السليمانية وجامع النعمانية ، والاعدادية المركزية ، قبالة دار الضباط ٠ وأما المدرسة العلائية وهى مدرسة للحنفية تنسب الى الامير علاءالدين بن عبدالمؤمن التركستانى ٠ ويقال لها الشاطئية ، فقد انشئت على كرسى الجسر العتيق المحاذى للمدرسة النجيبية المذكورة آنفا ، فى موضع حسن سنة ٦٩٣هـ ٠ وأما المدرسة الزيركية فهى مدرسة للحنفية أيضا ٠ وكانت فى سوق العميد الواقعة قبالة سوق السلطان ٠ وقد يبدو لاول وهلة ان « القصر العباسى » قد يكون المدرسة العلائية غير أننا بعد البحث والتحرى استرجحنا ان يكون هذا القصر المدرسة الشرابية وهى المدرسة الاقبالية ، أو الشرفية التى اسسها شرف‌الدين اقبال الشرابى ٠ لأن المدرسة العلائية بالرغم من كونها كانت « جميلة البناء ، شاهقة الارجاء » كما يقول ابن الفوطى لا يصح ان تكون هى « القصر العباسى » ولا يمكن ان تدانيه أو تضاهيه من حيث الروعة والجمال بدليل ان ابن الفوطى ذكر انهم ذبحوا لها بقرة تصدقوا بلحمها على الفقراء عند وضع الملبن على الباب[٢] ٠ مما يدل على قلة ثروة مؤسسها اذا قيس ذلك بالبدل الذى بذله اقبال الشرابى وأغدقه على المدعويين يوم افتتاح مدرسته ٠ مما يجعلنا نستنتج ان الزخارف والمقرنصات التى حفلت بها هذه العمارة التى تعد من آيات الفن الاسلامى ٠ وما انفق عليها من أموال طائلة لا يمكن ان تكون فى المدرسة العلائية ٠ ومن المعقول جدا ان يكون هذا البذل والانفاق للشرابى على المدرسة الشرابية ، ناهيك بما بذله على عماراته الاخرى فى العراق ، والحجاز ٠

---

(١) وقد جدد بناؤها سنة ١٩٤٩م ٠ واضفنا اليها مدرسة كبيرة فى تلك السنة عندما كنت مديرا لاوقاف منطقة بغداد ٠ وجعلت المدرسة متوسطة أول الامر وهى اليوم اعدادية ٠

(٢) لا تزال هذه العادة متبعة فى بغداد وهى ان تذبح ذبيحة وتوزع على الفقراء وعمال البناء عند تركيب باب الدار ٠

لقد كان الشرابي اثيرا عند المستنصر بالله ويظهر انه كان يتقرب إلى والى الناس بخدمة العلم ، والدين ويقوم بالاعمال الجليلة الاخرى كبناء المدارس ، والرُبط ، ووقف الاوقاف الكثيرة عليها . فقد روى المؤرخون أنه بنى ببغداد المدرسة الشرابية ، كما بنى مثلها فى كل من واسط مدينة الحجاج . ومكة المكرمة .

اما مدرسته التى ببغداد ، وهى التى تهمنا فى بحثنا هذا فقد بنيت فيما ذكره العماد الحنبلى « فى سوق السلطان[1] » . وذكر النعيمى انها بنيت « بسوق العجم من بغداد[2] » وذكر مؤلف الحوادث الجامعة : ان بناءها كان « فى سوق العجم بالشارع الاعظم بالقرب من عقد سور سوق السلطان [باب المعظم[3]] ، مقابل درب لملاحين »[4] وقال أيضا : « وبنى [الشرابى] ببغداد مدرسة فى سوق السلطان[5] .

وذكر ابن النجار ان سوق السلطان كانت قريبة من دجلة فقد جاء فى الجواهر المضية[6] ان محمد بن محمد البلخى الزاهد المتوفى ببغداد سنة ٦٠٢هـ قدم بغداد واستوطنها « بسوق السلطان فى مسجد له قريبا من دجلة » .

وقد ذكر كثير من المؤرخين ان الذى بنى جامع سوق السلطان هو الناصر لدين الله العباسى وقد بناه مقابل سوق العميد ، ويظهر ان المحلة التى عرفت بسوق السلطان كانت حول سوق السلطان وهى محلة الميدان[7] الحالية . كما يظهر ان معظم هذه السوق قد اندمج فى القلعة .

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٦١ .
(٢) الدارس فى تاريخ المدارس ج ١ ص ١٥٩ .
(٣) احد أبواب بغداد الرئيسة وقد هدم سنة ١٩٢٣م .
(٤) الحوادث الجامعة ص ٢٤ ، ٣٠٨ .
(٥) الحوادث الجامعة ص ٣٠٨ .
(٦) ج ٢ ص ١١٨ .
(٧) راجع حاشية الدكتور مصطفى جواد فى ص ٣٧ من « تكملة اكمال الاكمال » للصابونى وص ١٤٨ من الجامع المختصر لابن الساعى والكتابان من تحقيق الدكتور مصطفى جواد .

فاذا كانت سوق السلطان هى سوق الميدان التى بالقرب من باب المعظم ، ومسجد سوق السلطان فى اغلب الظن هو جامع القلعة الحالى الذى بناه الناصر لدين‌الله العباسى ادركنا ان المدرسة الشرابية يحتمل جدا ان تكون هى « القصر العباسى » واذا كانت هذه المدرسة قريبة من درب الملاحين أو مقابل درب الملاحين كما ورد ذلك فى الحوادث الجامعة فان درب الملاحين لا بد ان يكون مما يلى دجلة على مقربة من بهو أمانة العاصمة ، وهذه المشرعة قريبة جدا من « القصر العباسى » أى انها قريبة جدا من المدرسة الشرابية ، على ان الذى يؤيد هذا الرأى ويقويه ان المسافة بين باب « القصر العباسى » وبين نهر دجلة تبلغ نحو ثمانين مترا ، ولذلك فمن المحتمل جدا ان يكون فيها أو على مقربة منها « درب الملاحين » الذى بنيت المدرسة الشرابية قبالته أو على مقربة منه ..

٢ ــ افتتاح المدرسة الشرابية

ويحسن بنا بعد الذى ذكرناه عن هذه المدرسة ان نشير الى افتتاحها والى بعض اخبارها ..

ذكر النعيمى[١] نقلا عن ابن كثير قال : « وقال ابن كثير فى سنة ثمان وعشرين وستمئة : وفيها تكامل بناء المدرسة الاقبالية التى بسوق العجم من بغداد ، المنسوبة الى اقبال الشرابى ، وحضر بها الدرس ، وكان يوما مشهودا ، واجتمع فيها جميع المدرسين ، والمعيدين ببغداد ، وعمل بصحنها قباب الحلوى ، فحمل منها الى جميع المدارس والرُبط ، ورتب فيها خمسة وعشرين فقيها لهم الجوامك الدارّة فى كل شهر ، والطعام فى كل يوم ، والحلوى فى أوقات المواسم ، والفواكه فى زمانها ، وخلع على المدرسين ، والمعيدين ، والفقهاء يومئذ ، وكان وقفا حسنا ، تقبل الله منه » . وذكر مؤلف الحوادث الجامعة قال : « وفى شوال [سنة ٦٢٨هـ] تكامل بناء المدرسة التى انشأها شرف‌الدين اقبال الشرابى بسوق العجم ، بالشارع

(١) الدارس فى تاريخ المدارس ص ١٥٩ ــ ١٦٠ .

الاعظم ، بالقرب من عقد سور سوق السلطان مقابل درب الملاحين ، وكان المتولى لبنائها شمس‌الدين ابو الازهر أحمد ابن الناقد[1] ، وكيل الخليفة المستنصر بالله • وشرط الواقف له النظر فيها وفى اوقافها ثم بعده الى من يلى وكالة الخلافة ، وفتحت فى آخر شوال ورتب بها الشيخ تاج‌الدين محمد ابن الحسن الارموى مدرسا وخلع عليه ، وعلى الفقهاء ، والمعيد وجميع الحاشية ، ومن تولى عمارتها • وحضر جميع المدرسين ، والفقهاء على اختلاف المذاهب • وقاضى القضاة عبدالرحمن بن مقبل ، فجلس فى صدر الايوان • وجلس فى طرفى الايوان محى‌الدين محمد بن فضلان • وعماد‌الدين ابو صالح نصر بن عبدالرزاق بن عبدالقادر فكلاهما كان قاضى قضاة • وعمل من أنواع الاطعمة ، والحلواء ، ما تعبى فى صحنها قبابا ، وحمل من ذلك الى جميع المدارس والاربطة ، وقرئت الختمة ، وتكلم الشيخ محمد الواعظ ، ثم جلس المدرس بعده ، وذكر دروسا أربعة فأعرب عن غزارة فضله ، وتوسع علمه »[2] • وجاء فى الحوادث الجامعة أيضا ان الشيخ تاج‌الدين محمد ابن الحسن الارموى مدرس الشرفية المذكور توفى فى سنة ٦٥٣هـ وقد جاوز عمره ثمانين سنة قال : « وكان وحيد عصره فضلا ، وفريد داره علما • قرأ على الامام فخرالدين الرازى وصحبه ، وكان متواضعا لمن دونه ، مترفعا على من فوقه ، وكان عريض النعمة ، واسع الجاه بوجود الشرابى ، يستكثر من المماليك الحسان الترك وغيرهم • وكان اهل بغداد يتحدثون فيه ، فلا يعبأ بحديثهم ولا يكترث لذلك • حكى عنه بعض أصحابه قال : قلت له يوما : ان الناس قد

---

(١) نصيرالدين ابو الازهر من كبار رجال العرب العلويين ، ولى وكالة ام الخليفة الناصر فى وقوفها ، فلما ولى الظاهر وكله لاولاده العشرة • فلما ولى المستنصر احضره يوم مبايعته ، واشهد له بوكالاته ، واضيفت له استاذية الدار سنة ٦٢٧هـ ثم نقل الى الوزارة سنة ٦٢٩هـ والوكالة باقية عليه • مولده فى شوال سنة ٥٧١هـ ووفاته ٦ شهر ربيع الاول سنة ٦٤٣هـ ودفن فى الكاظمية •

(٢) الحوادث الجامعة ص ٢٤ ــ ٢٥ • وراجع تاريخ علماء المستنصرية ١١٢ ، ١١٦ ، ٣٠ عن ابن مقبل وابن فضلان وابى صالح الجيلى •

اكثروا القول فى هؤلاء المماليك فقال : الست تعلم ان الانسان يحب ان يسكن أحسن الدور ، ويلبس أفخر الثياب ، ويأكل أطيب المآكل ، ويركب أجمل المراكب ؟ قلت بلى . قال : فلم لا يكون من يلي خدمتى به ، ويقرب منه على احسن صورة ! وان شئت أريتك ما بدارى من الجوارى الحسان ، فامسكت عنه . وعرفت انه كذا ينبغى للعاقل ان يفعل . وقيل له يوما : ان جاريتك فلانة تحب مملوكك فلانا ، وكانا فى غاية الحسن ، والجمال فقال : الآن ثبت عندى صحة عقلها . ودفن فى قبة بنيت له فى الشونيزى »[1] .

الفصل الثالث

اقبال الشرابى مؤسس الشرابية

جاء فى الحوادث الجامعة انه شرف الدين أبو الفضائل اقبال الشرابى[2] وكان اولا لعزالدين نجاح الشرابى . وانتقل الى زوجته بعد وفاته فلما افضت الخلافة الى الظاهر حملته اليه فقبله ، فأبعده عنه رشيق ، وانفذه الى ولده المستنصر فلما دخل عليه قال له : ما اسمك ؟ فقال : اقبال . فسر بذلك واستبشر ، وتفاءل به فلما افضت الخلافة اليه ، قربه ، وقبض على رشيق وحبسه ، وجعل اقبالاً شرابياً ، ثم جعله سرخيل العسكر ، فلما توفي زعيم إربل سار بالعسكر اليها ، وأخذها وعاد مظفراً فلما افضت الخلافة الى المستعصم زادت منزلته عنده ، وقرب من قلبه ، فلما وصلت عساكر المغول سنة خمس وثلاثين [وستمئة] خرج الى لقائهم ، وظهر من حسن تدبيره ما اوجب زيادة الانعام عليه . وكان حال الملك منتظما بصائب رأيه فلما توفي اختلت الاحوال بعده »[3] .

---

(١) ص ٣١٠ — ٣١١ . والشونيزى هى مقبرة الجنيد البغدادى بجانب الكرخ .

(٢) ص ٧٦ و ٣٠٨ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٠٩ .

ولما غيرت ثياب العزاء بعد الحداد على المستنصر وتولى ابنه المستعصم الخلافة خلع على شرف‌الدين اقبال الشرابى فى حضرة الخليفة المستعصم ، وقلده سيفين بيده . وقُدم له مركوب من خيل الخليفة فى البستان ، فخرج راكبا وبين يديه الخدم بسيوف مشهورة ، فخدمه الامراء بين يدى مركوبه . فخرج من باب النوبى فلما انتهى الى باب البدرية استأذنه علاء‌الدين الطبرسى الدويدار ، وكان راكبا فى آخر الامراء فى العود الى داره فأذن له ، وللامراء فنزل علاء‌الدين وعضده ، وقبل يده وعاد[1] .

وجاء فى الحوادث الجامعة انه بنى فى الجانب الشرقى من واسط مدرسة للشافعية ، فتحت فى سابع عشر شعبان من سنة ٦٣٢هـ بناها على دجلة مجاورة لجامع كان داثراً فأمر بتجديد عمارته ، ورتب به مدرسا العدل أحمد بن نجا الواسطى . ورتب بها معيدان ، واثنان وعشرون فقيها وخلع على الجميع وعلى من تولى عمارتهـــا من النواب ، والصناع ، والحاشية الذين رتبوا لخدمتها . وعمل فيها دعوة حسنة حضرها صاحب الديوان « ابن الدباهى » والناظر بواسط ، والقاضى ، والنقيبان ، والقراء ، والشعراء . وكان المتولى لعمارتها والذى جعل النظر اليه والى عقبه فى وقفها ابو حفص عمر بن ابى بكر بن اسحق الدورقى[2] .

وذكر قطب‌الدين الحنفى فى كتابه الاعلام باعلام بيت الله الحرام[3] انه « بنى بمكة مدرسة على يمين الداخل الى المسجد الحرام من باب السلام ووقف فيها كتبا كثيرة فى سنة ٦٤١هـ ويظهر ان هذه الـكتب كما يقول قطب‌الدين « ذهبت شذر مذر والمدرسة باقية الى الآن وقد صارت رباطا وفيه محل التدريس » .

وجاء فى الحوادث الجامعة[4] انه جدد بمكة الرباط الذى اشتهر ذكره

(١) الحوادث الجامعة ١٦٧ ـ ١٦٨ .
(٢) الحوادث الجامعة ٧٧ .
(٣) ص ٨٢ .
(٤) ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

فى الدنيا ، وعين عرفة التى فى الموقف ، وأجرى ماءها لانتفاع الحاج به واوقف على ذلك الوقوف السـنية . قال : وكـان كثير الصـدقات ، والمواصلات . كان فى خدمة الخليفة بالحلة فمرض بها وحمل الى بغداد فى شبّارة ، وهو مثقل ، فوصل فى سابع عشرى شوال [سنة ٦٥٣هـ] وتوفي فى ثامن عشريه . وصُلي عليه فى جامع القصر ، ودفن فى تربة ام الخليفة المستعصم بباب القبة على يمين الداخل . وجلس الوزير ، وارباب المناصب فى العزاء بالمدرسة المستنصرية . وكان شيخا شجاعا كريما ، شريف النفس ، عالى الهمة[1] .

(١) راجع ص : ٩٨ و٩٩ و١٠٩ و١١٠ من الكتاب المظنون انه الحوادث الجامعة عن اعماله العسكرية وجهوده فى صد المغول عن اربل ، وبغداد .

المراجـــع

١ ـ الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ·
٢ ـ شذرات الذهب لابن عبدالحى الحنبلى ·
٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير ·
٤ ـ الحوادث الجامعة المنسوب لابن الفوطى · تحقيق الدكتور مصطفى جواد ·
٥ ـ الفخرى لابن الطقطقى ·
٦ ـ الاعلام باعلام بيت الله الحرام لقطب‌الدين الحنفى ·
٧ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ١
٨ ـ معجم البلدان لياقوت الحموى
٩ ـ مراصد الاطلاع لصفى‌الدين عبدالمؤمن
١٠ ـ مروج الذهب للمسعودى
١١ ـ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى ·
١٢ ـ رحلة ابن جبير ·
١٣ ـ بقايا القصر العباسى · لمديرية الآثار القديمة ·
١٤ ـ سامراء · لمديرية الآثار القديمة ·
١٥ ـ تكملة الاكمال للصابونى
١٦ ـ الجامع المختصر لابن الساعى
(وهما من تحقيق الدكتور مصطفى جواد)

١٧ ـ تاريخ علماء المستنصرية · ناجى معروف
١٨ ـ النصوص الكتابية على جدران المستنصرية والمرجانية ·
١٩ ـ مجلة سومر ·
٢٠ ـ مجلة التفيض ·
٢١ ـ مباحث عراقية ليعقوب سركيس ·
٢٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ·
٢٣ ـ ابن الفوطى : للشبيبى ·

24 — Mission en Mesopotamie. Louis Masignon. VII.
25 — L'architecture Musulmane du XIIIe Siécle en Iraq. Paris 1913.

المزيديون
في
شعر العصر السلجوقي

للدكتور علي جواد الطاهر
الاستاذ المساعد في قسم اللغة العربية

ملوك العرب وامراؤها بنو مزيد الاسديون النازلون بالحلة السيفية على الفرات ، كانوا ملجأ اللاجئين وثمال الراجين وموئل المعتفين وكنف المستضعفين ؛ تشد اليهم رحال الآمال ، وتنفق عندهم فضائل الرجال .. وأثرهم في الخيريات أثير ، والحديث عن كرمهم كثير ...

العماد الاصفهاني ـ الخريدة

كانت مكانة بني مزيد في الشعر بارزة بروزها في التأريخ[1] . ولقد مدح الشعراء نورالدولة دبيس بن علي بن مزيد ، فلما توفي سنة ٤٧٤ رثوه فأكثروا[2] ، ولقد رثوه « بعد وفاته بأكثر مما مدحوه في حياته »[3] . وظل ذكره يتردد عند مدح أعقابه ، فمن ذلك ما قاله ابن الهبّارية :

.. كم قد حمىٰ ببأس نفس مرة ... منابر الاسلام والاسرة
انجد قرواشا على الاتراك ... وانتاشه من مخلب الهلاك

(١) بنو مزيد من بني أسد ، نزحوا عن خوزستان ، على أثر خلاف عائلي ، بقيادة علي بن مزيد ، وحلوا عام ٤٠٥ في النيل ـ عند بابل ، وعندما توفي علي سنة ٤٠٨ خلفه في الرياسة ولده دبيس ثم منصور ثم صدقه ... وكانت لهم عدة حلل ، ولكن الحلة التي شيدها صدقه هي التي غلبت على ما سواها ـ وما زالت قائمة الى اليوم .

ينظر عن بني مزيد ومصادر دراستهم ... وعن الاعلام التي ترد في هذا البحث الجزء الاول من كتاب « الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي » ، بغداد ، ١٩٥٨ .

ومن أكثر من مدحهم في العصر البويهي ، مهيار الديلمي .

(٢) ابن الاثير ١٠ : ٧٨ سن ٤٧٤ .

(٣) ابن خلدون ٤ : ٢٨٠ .

في يوم سـنجار فلولاه هـرب   لـكن دبيس وحده حمى العرب[1]

ولما أفضت الامارة بعد وفاته الى ولده بهاءالدولة منصور ، هنـأه البندنيجي ودعا للسلطان[2] (ملـكشاه) .

وكانت بين شـرفالدولة مسـلم بن قريش بن قرواش العقيلي[3] مكاتبات .. ومعاتبات وقـد استنجد العقيلي مرة بهاءالدولة « وترقب منـه السرية » فلما لم ينجده ، عزم واعتمد على نفسه وانتصر ، فأجابه بهاءالدولة معتذراً :

.. ولو أني جريت على اختياري   قـددت اليكم الفلوات قـدا
لتعلـم أن بيت بني عـلي   لـكم وبكم يعد اذا استعدا[4]

ولابد من تصديق عـذر منصور لانه معروف بالشـجاعة والنجدة ، ولأنه يقول ـ والتأريخ يؤيده :

.. فان أنا لم احمل عظيما ولم أقد   لهاما ولم أصبر على فعل معظم
ولم أجر الجاني وأمنع حوزه   غـداة أنادي للفخار وانتمي
فـلا نهضت بي همـة عربيـة   الى المجد ترقى بي ذرى كل مخرم[5]

وفي عام ٤٧٦ لما « استولى العسكر السلطاني على حلل العرب [في ديار بكر ...] وغنموا أموالهم وسلبوا حريمهم .. بذل صدقة بن منصور الاموال وافتك اسرى عقيل ونساءهم وأولادهم وجهزهم جميعهم وردّهم الى بلادهم ففعل أمراً عظيماً وأسدى مكرُمة شريفة[6] » « فشكره الناس

(١) ابن الهبّارية : الصادح والباغم ص ٩ . وينظر ديوان الابيوردي :
(٢) العماد ، الخريدة ، و ١٠٣ ب .
(٣) اخباره في خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ج ٢ (ط ١٩٥٩) ص ٢٥٥ ـ ٢٧٠ .
(٤) العماد ، الخريدة ، قسم الشام ، الموصل و ١٧٣ ـ (= ص ٢٦٤ من المطبوع) .
(٥) ابن الاثير ٨ : ١٤١ سن ٤٤٩ ، سن ٤٧٨ ، وتنظر البداية والنهاية ١٢ : ١٣٠ سن ٤٧٨ .
(٦) ابن الاثير من ٤٧٧ .

على ذلك[1] » « وامتدحه الشعراء فأكثروا[2] » .

وقد وصف السنبسي هذه الحادثة وصفاً يتفق والتأريخ[3] في قصيدة منهـا :

كمـا أحرزت شكر بني عقيل ... بآمد يوم كظهم الحذار
غداة رمتهم الأتراك طراً ... بشهب من حوافلها ازورار
فما جبنوا ولكن فاض بحر ... عظيم لا تقاومه البحار
فحين تنازلوا تحت المنايا ... وفيهن الرزية والدمار
مننت عليهم وفككت عنهم ... وفي أثناء حبلهم انتشار
ولولا أنت لم ينفك منهم ... أسير حين أعلقه الاسار[4]

وأجود من أبايات السنبسي أبيات البندنيجي[5] :

.. ويمسي له في جيد كل متوج ... صنائع لم تخطر ببال حسابها

* * *

كيوم عقيل والرماح شواجر ... وبيض الظبى يردي الكماة ضرابها
غداة غدت للترك في الحي وقعة ... أباحت حمى دار عزيز جنابها
فأقسم لولا نخوة مزيدية ... لباتت على حكم السبايا كعابها
ولكن سيف الدولة بن بهائها ... حمى عرضها والترك يحرق نابها
تناشده الارحام والنقع ثائر ... ولا يحفظ الارحام الا لبابها
وكم ذاد عنها « المزيديون » بالقنا ... سيوف العدى من حيث غص شرابها
عشية لاذت بالفرار من الظبى ... وعاثت بأسلاب الاسود ذئابها
ولولا عوالي « نور دولة » خندف ... لما انجاب عن تلك الشموس ضبابها
اذا نابها خطب فأنتم ملاذها ... وان رابها جدب فأنتم ربابها

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢ : ١٢٦ سن ٤٧٧ .
(٢) ابن الاثير ١٠ : ٨٧ .
(٣) نفسه ١٠ : ٦٦ ـ ٨٧ (= ٨ : ١٣٥ من ط . الاستقامة) .
(٤) نفسه سن ٤٧٧ .
(٥) العماد ، الخريدة ، قسم العراق ، و ١٠٤ .

ولما مات بهاءالدولة (عام ٤٧٩) ، أحزن موته نظام الملك والمستظهر والخليفة وكثيرا من الشعراء[1] •

وولى الامارة بعده ولده سيف الدولة صدقة • وصدقة أخطر رجال بنى مزيد ، ومن أعاظم رجال زمانه • وقد مدحه — غير السنبسى والبندنيجى — شعراء كثيرون مثل المطاميرى وابن أبى الصقر الواسطى وابن واثق الانبارى ، ومحمد بن حيدر ، وشبيب البروجردي[2] ويحيى بن التلميذ[3] والابيوردى وابن الهبّارية •

واياه خاطب جحوش الكلبى الخفاجى بقوله :

فان ترض عنا فالعراق نحله والا نزلنا منزلا عنه أزورا

ومن عرف خفاجة وأذاها وعرف وقعات صدقة بها أدرك معنى هذا البيت •

ويقول ابن الهبّارية فى كتابه « الصادح والباغم » الذى اهداه لصدقة — بعد حديثه عن اجداد الممدوح :

ولم تزل « حلته » ملاذا لكل من يهرب من بغداذا
يقصدها الملوك والخلائف وجائع ذو فاقة وخائف
فيشبع الجائع فى ذراها ويأمن الخائف فى حماها

★ ★ ★

يا ليتنى سكنت تلك الحله بين شموس المجد والاهله

★ ★ ★

فى خير دار ضيف خير مرتجى ملك يعز عنده أهل الحجا[4]

(١) ابن الاثير ١٠ : ٩٨ •
(٢) تراجع الخريدة ، مخطوطة باريس ، وليدن ، المحمدون للقفطى
(٣) ابن أبى أصيبعة ١ : ٢٧٨ •
(٤) الخريدة • مخطوطة باريس •
(٥) الصادح والباغم ٩ — ١٠ •

ومن قصيدة القاضي شبيب البروجردي في سيف الدولة :

قطعت انفيافي لاضنينا بمهجتي ولا كارها وعر الجبال وسهلها
الى « حلة » ما حلّها اللؤم والخنا بل المجد والعلياء والجود حلّها[1]

وكانت مملكة صدقه في اتساع ، وقد قال مهذب الدولة بن أبي الجبر – أمير البطائح – يخاطبه :

كشفت عن قناعها لك بغدا د وأعطتك واسط ما تشاء

* * *

وعطت جيدها اليك من الشو ق خانيك البصرة الفيحاء[2]

وقد سار صدقة نحو البصرة وملكها[3] ، فهنأه الشعراء بهذا النصر[4] وهم يرثون خاله .. الذى قتل فى المعركة[5] .

أما الابيوردى فانه مدح صدقة منذ وصوله العراق[6] فتحدث عن نسبه ، وذكر أيام أجداده ووصف أحدها[7] . ثم قصد الحلة[8] فاستقبل أحسن استقبال ، وقد أساء الشاعر فهم بعض الاحوال وفسرها بالاهمال ، وحاول ترك الحلة وهو يردد أبياتا هجائية :

أبابل لاواديك بالخير مفعم لراجٍ ولاناديك بالرِّفد آهل
لئن ضقت عنى فالبلاد فسيحة وحسبك عاراً أنّنى عنك راحل
فان كنت بالسحر الحرام مدلّة فعندى من السحر الحلال دلائل
قواف تُعيرُ الاعينَ النجلَ سحرَها وكلُّ مكانٍ خيّمت فيه بابل

---

(١) الخريدة ، قسم بلاد العجم ، مخطوطة ليدن .
(٢) الخريدة ، المجلدة الاولى ص ٣٣٨ –
(٣) ابن الاثير ١٠ : ٢٧٨ .
(٤) نفسه .
(٥) نفسه .
(٦) ديوان الابيوردى ص ١٩٨ .
(٧) نفسه ١٣٣ – ١٣٧ ، ٣١١ – ٣١٤ ، ٣٣٤ – ٣٣٧ .
(٨) ياقوت ، ارشاد ٦ : ٢٥٦ (= ج ١٧ : ٢٣٦ –) وينظر ديوان الابيوردى ص ٣٣٤ – ٣٣٦ .

ويفهم من سياق رواية الخبر أن هذه الابيات نظمت بالمناسبة ، وهذا غير صحيح ، لان الابيات في الديوان جزء من قصيدة طويلة كان الشاعر قد وجهها لمؤيد الملك بن نظام الملك مستعينا به على عميد الدولة بن جهير[1] • والابيات في ذم بابل ويراد ببابل العراق كله ذلك ان الحلة لم تكن قد شيدت يوم نظمت القصيدة • ومن المحتمل ـ ان صحت الرواية ـ ان يكون انشاده لها من قبيل الاستشهاد •

واذا كان هناك شاعر غير مرتاح من الحلة فهو الغزي • فقد قصدها مرة فقال :

أنا في الحلـة الغـداة كـأني	علـوي في قبضـة الحجـاج
بين عـرب لا يعـرفون كلامـا	طبعهـم خـارج عن المنهـاج
وصـدور لا يشرحون صـدورا	شغلتهم عنهـا صدور الدجـاج
والمليك الـذي يخاطبـه النـا	س بسـيف ماض وفخـر وتاج
مـاله ناصـح ولا يعلـم الغيـ	ب وقد طال في مقامي لجاجي[2]

وواضح أن يكون بين أسباب هذا الهجاء اعراض لقيه من الامراء وخيبة أصابته في آماله بالكسب ـ وفيما عدا ذلك ، لم يقل قوله انسان :

وعندما قتل صدقه عام ٥٠١ فرح الغزي فرحا شديدا كأنه انتقم لنفسه وثأر ، ثم دبّج قصيدة يهنىء بها غياث‌الدين السلطان محمد ووزيره ضياء الملك أبا نصر أحمد بن نظام الملك[3] :

جلا لك وجهه الفتح المبـين	ومد بضبعك السبب المتـين
وكان الخطب في التقدير صعبا	فهان وأى خطب لا يهـون

★ ★ ★

(١) ديوان الابيوردي ٢٤٧ ـ ٢٤٩ •

(٢) ديوانه المخطوط • معجم البلدان : الحلة •

(٣) ديوان الغزي ، مخطوطة باريس ص ٤٥ ـ (= ديوان الابيوردي المطبوع ٣٥٨ ـ ٣٦٠) •

وما اللجب اللهام بذي امتناع ... غداة يقوده الضرع المهين

رمى « أسداً » مقدمها سفيها ... بمعضلة يشيب لها الجنين

وأوردها الردى والهام تهوى ... كما يتهافت الخيط الدرين

وغـرته السـرية يوم فلت ... سجالا كانت الحـرب الزبون

وظن الترك قد تركته خوفـا ... وعند السـبر تنتقض الظنون

أقام بأرض « بابل » مستبدا ... يراسله « الامير » فمـا يدين

ويوسعه « غياث الدين » حلما ... وغـير مثقف من لا يلـين

يتيـه بثروة وطنـين صيت ... وأجنحة البعوض لها طنـين

ومال به الحران الى التمـادى ... وكـل مزند لحـز حـرون

ولمـا لم يعظـه من الليـالى ... قرائن بعد ما خلت القـرون

سرى ورمى الفرات وراء ظهر ... فنونا جمـةً كان الجنـون

فأقبل وهو لاسم أبيه ضـد ... وأدبر والبـوار لـه قرين

توبخـه الغـوامض والروابى ... وتلعنـه الدوامث والحـزون

حمى الليث العرين و « آل عوف » ... ليوث كـان يحميها العـرين

فلمـا أصحروا صاروا نقادا ... ومن شر الحميـة ما يهون

كـأن الاعوجيـة حين فروا ... مقيـدة القوائم أو صـفون

توالوا والسـيوف من التراقى ... مخضـبة وباللمـات جـون

تخال بها الجماجم بعـد حقب ... كريتـا للصـوالج تسـتبين

رجا أن يدخل الزوراء قهـرا ... وينصـر باطـلا ليذل دين

فجيء بنصف رأس منه ترنو ... الى مكروه منظره العيـون[1]

لعـاملة القنـاة له اهتـزاز ... كمـا يهتـز بالثمر الغصون

وخيل البغي جامحها عثـور ... مصارع راكبيه كـذا يكون

وما اجتمع الغنى والبخل الا ... وللآفـات بينهمـا كمـين

وغرض الشاعر الشخصي واضح ، وأهواؤه الشامتة بيّنة ، ولهجته

(١) ينظر اليافعي ٣ : ١٧٠ .

العدائية مفضوحة ، وما رمي أحد صدقة بسفاهة أو بخل أو كفر ولا آل مزيد بجبن وما يشبه الجبن ، ولا مدح أحد ضياء الملك هذا المدح[1] ونحن نعرف ضعفه وبعده عن المقارنة بأبيه ، ونعرف غاية الغزى « الاستجدائية » من مديحه[2] .

ولكن القصيدة ــ على ذلك ــ تجلو نقاطا تأريخية مهمة ، فهي ترينا أن السبب المباشر للمعركة هو قوة صدقة واتساع نفوذه وآماله وقلة اكترائه لاوامر السلطان ، ثم انها تدلنا على أن جيش السلطان كان يستصعب حرب صدقة وانه أرسل سرية فلّها جيش صدقة .

وليلاحظ أن الغزى قد نص على أن صدقه كان يريد أن يملك بغداد ، وأن غايته من ذلك أن ينصر الباطل ويذل الدين . وقد يكون في الشطر الاول من هذا النص شيء من الصحة ، الا ان صدقه لا يمكن أن يكون بأي حال من الاحوال من أنصار الباطل ، فلم يعرف عن الرجل غير نصرة الحق والتقوى . ولعل الغزى قصد الاشارة الى تشيع صدقه ، وقد كان تشيع صدقة ذنبا برأي بعض المؤرخين[3] . اما اذا أراد نسبته الى الباطنية فذلك مزعم غير صحيح وقد فنّده ابن الاثير .

« لما قُتل صدقة ، أقطع بلاده الاكراد وغيرهم ، وضَمِن كشف تلك الاعمال رجل يقال له « ثابت بن سلطان بن ثابت » ، ومن الاكراد جماعة

---

(1) أعيد لنا نظام الملك حيّا   بأحمد بعد ما خفّ القطين

* * *

نبأ عنك القياس وفقت حتى   كأنك جوهر والناس طين

ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠ .

(2) وهو القائل :

أجب بحر الكفاة فلي سؤال   وأنت بكل منقبة قمين
أترضى أن يقال « الصدر » يرضى   بجعجعة وليس يرى طحين
ولست أشك أنك بحر جود   ولكن ما لمنتظر يقين

(3) مخطوطة العبر (باريس) ج ٢ سن ٥٠١ .

يقال لهم بشيرية وجماعة نرجسية »[1] .

وقد أنشأ مرجا بن بتاه (؟) البطائحي قصيدة[1] يستهجن هذه الافعال ويسخر على طريقته الخاصة :

لقد سن للسلطان « ثابت » سنة ... فلا يأمن السلطان زيد ولا عمرو
موافقة النظار والكشف عنهم ... ولو كان ممن لا يصح له العشر
وقد كثر الاقطاع حتى أظنه ... سيقطع كلب فى الجزيرة أو هرّ
ثلاثون ألفا « للبشيرى » وحده ... فدع عنك ممن لا يجوز له ذكر
وعشرون ألفا أقطعت « نرجسية » ... كثير له ألف ولو انها بعر
ولولا سفاه الرأى كان عليهم ... من الغنم الاعشار والصوف والشعر
وما كان « أسياكيل » يركب خلفه ... جياد البراذين البشيرية الحمر
ويركب « سلار » أخوه بزهوة ... ومن خلفه فهدٌ وقدامه صقْرُ[2]
ورمحان مدهونان يخفق فوقها ... عقابان مكتوب على وجهها نصر
وأصبحت لا أدرى اذا ما رأيته ... أقد جن « أسياكيل » أم خرف الدهر
سلام على مال العراق فانه ... مضى حيث لا نفع لذلك أو ضير
فشطر لاتراك ومن دونها النهر ... وشطر لاكراد ومن شأنها الغدر
وشطر لكتاب وما فيهم صدر ... وشطر لحجاب وما فيهم فخر
وشطر لصبيان يتامى ونسوة ... أيامى وما فى بر أكثرهم أجر
وفى هيت والانبار للناس عبرة ... اذا أبصروا «يُمنا» كما انكسف البدر[3]
كأن غرابا فوق اعواد سرجه ... لك الخير ان لاقيته وله الشر
كأن عليه حُلةً من اهابه ... وقد طليت بالقار أو مسها الحبر
فورام من ورام خير سجية ... وليس سواء بافراس وبانصر[4]

(١) الخريدة و ١٧٠ ب ، وتنظر النصرة و ١٠١ . وتنظر مقالة الدكتور مصطفى جواد ج ٢١ م ٤ من مجلة المجمع العلمى ص ١٠٠ .

(٢) بزهوة . لم ترد الكلمة واضحة فى مخطوطة النصرة . اما فى مخطوطة باريس للخريدة فقد وردت « بدهرة » .

(٣) يمن : هو أمير الجيوش ، ولى امارة الحج الى أن توفى .. أقطع هيت والانبار ، وكان خادما حبشياً خيّراً سرياً .

(٤) هما كرديان : أحدهما ورّام بن بافراس ، والآخر ورام بن بانصر .

حمــاران صواماں قرد وافقـــم		وأعمى له عـــين وليس له شفر

واذا استبعدنا اللهجة الساخرة الهازلة من هذه القصيدة بقيت لدينا معلومات قابلة التصديق وتفصيلات لا نجدها فى أى كتاب من كتب التأريخ التى بين أيدينا •

واستطاع دبيس بن صـدقه أن يستعيد امارة أبيه • وقـد مدحـه الشـعراء ، وحدّث المجحف القشيرى عن فترة الانتقـال التى مرت بين الاميرين ، فقال[1] وهو يطرى دبيساً :

وقــد حكمت كــل الملاحم أنه		على الجانب السعدى قابلك السعد
وقلنــا بأرض « الجامعين » وبابل		وقد أفسدت فيها الاعاريب والكرد :
ألا فتنحــــوا عن دبيس وداره		فلابد من أن يظهر الملك الجعد

وقال فيه حيص بيص فى أول لقيته[2] :

انى لأفكــر فى عــلاك فأنثنى		حيران لا أدرى بماذا أمــدح
ان قلت : ليث ، كنت أقتل سطوة		أو قلت : بحر ندى ، فكفك أسمح

ولحيص بيص فيه كذلك[3] :

توالت عليه الفادحات ولم يحــد		عن الصبر حتى أدرك المجد أجمعا
وما زال يرخى للنوى من قيــاده		الى أن أفاد الحى شملا مجمعــا

وله أيضا ـ وقد لقبه « سيف الدولة الملك المرجّى » :

•• طليق الوجـــه أغلب مزيدى		مضــىء النــار مرفوع العمــاد

★ ★ ★

وباعثهــا الى الغــارات تهفــو		سراعا مثــل مبثــوث الجـــراد
فيــوما فى المشــارق فى مغــار		ويومـــا بالمغــارب فى جـــلاد

---

(١) ياقوت ، بلدان (جامعين) ٢ : ١٠ ـ ١١ •
(٢) الخريدة ، قسم العراق مط • ص ٢٢٤ •
(٣) نفسه ص ٢٦٨ •

أجلت الخيل في الآفاق حتى ... تخوفت السماء من الطراد
وبارك الملوك فكنت منهم ... مكان الشامخات من الوهاد[1]

والشعر حسن ، وكان دبيس كثير الحروب والاغارات ولكن المبالغة واضحة • ويبدو أن وشاية كانت قد دبت بين حيص بيص ودبيس فجاء الشاعر يعتب الامير بهذه الدالية •

ومن قصيدة أخرى نستدل على ان حيص بيص صحب دبيساً حين خرج الى حرب المسترشد مما أغضب الخليفة ووزيره الزينبي ، فاعتذر حيص بيص اليهما بقصيدة يقول فيها[2] :

أقمت بها حيث الرضا ذو مخايل ... وفارقتها لما بدا لى غرورها

قتل دبيس عام ٥٢٩ فرثاه حيص بيص وأثنى عليه بشجاعته وكرمه ولطفه ومنطقه وكنّاه أبا الاعز[3] :

هبني كتمت لواعج البرحاء ... فمن المكتم عبرتي وبكائي

* * *

فلتبكه البيض الصوارم والقنا ... والسابقات لواحق الامطاء
وليبكه اليوم العصيب من الوغى ... ينزو بكل كتيبة حمساء
وليبكه رأد الصباح أعاده ... بطراده كالليلة الليلاء
وليبكه اللطف الذى لم تؤته ... خمرٌ ولم يُرزقهُ صفو الماء
وتألفُ القلب الشديد بمنطق ... أغنى مؤمّله عن الاعطاء

ولاشك في أن الثناء على دبيس كان ضربا من حسن الظن لأن دبيساً كان من اضطراب الشخصية وهوج التصرف ما لا يجعله مستحقا كل ما قيل فيه ـ ولا بعضه • وللمرء أن يرجع الى التاريخ ، الى كامل ابن الاثير ـ

---

(١) الخريدة ، مط • ص ٢٣٩ • وينظر من ديوان حيص بيص : و ٦٩أ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٧٣ ، ١١٠ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٦٩ ، ٢٤٠ ؛ وتنظر الخريدة ص ٢٦٧ ، ٣٤٣ •
(٢) الخريدة ، مط • ص ٢٥٤ •
(٣) الخريدة ، مط • ص ٣٣٧ •

مثلا ، ليرى دبيساً في بعض حمقه - ولأمرما كان حيص بيص أكبر مادحيه .

وخلف دبيساً آخرون من بني مزيد ، لم يكن بينهم أمير ذو خطر في السياسة أو ذو بال في الشعر .

ولنلاحظ أن بني مزيد كانوا يتذوقون الشعر وربما قالوه ، وكثيرا ما أجازوا الشعراء عطايا لا تخطر بالحسبان وأكرموهم اكراما منقطع النظير .

* * *

وكان صدقة .. يهتز للشعر اهتزاز الاعتزاز ، ويخص الشاعر من جوده بالاختصاص والامتياز ، ويؤمّنه مدة عمره من طارق الاعواز . يقبل على الشعراء ويمدهم بجميل الاصغاء وجزيل الاعطاء . لا يخيب قصد قاصده من ذوى القصائد ويبلغ آمليه الى أغراضهم والمقاصد .

العماد الاصفهاني - الخريدة -

الجمناستيك العلاجي

Remedial Gymnastics

القدم المسطحة

بقلم السيد بهنام باسيليوس

مدرس التربية الرياضية في كلية الآداب

بكلوريوس في التربية الرياضية

بدرجة شرف

القدم المسطحة ، اصطلاح عام يطلق على كل العيوب التي تصيب القدمين ؛ وهذه العاهة ليست امرا ميسرا ولا سهلة الوصف والتعريف •

يصاب الكثيرون بهذه العاهة في اقدامهم لانخفاض القوس الطولي Longitudinal Arch في القدم ، دون ان يشعروا بألم ما ودون ان تعيقهم عن عملهم • وعلى العكس من هؤلاء نجد اخرين صحيحة اقدامهم ، تامة التقوس ولكنهم يتألمون عند قيامهم ببعض التمارين أو الوقوف لساعات طويلة ؛ فلا يجزع هؤلاء فهم غير مصابين بعاهة القدم المسطحة ، بل جل ما هنالك ان الاعاقة عن العمل حاصلة عندهم متأتية من العمل الوظيفي • اما الاولون فهم المصابون بعاهة القدم المسطحة التي يجب ان يسرعوا في معالجتها لانها قابلة للمعالجة خاصة اذا كانت في ادوارها الاولى •

ان تسمية القدم المصابة بالقدم المسطحة ، انما هي تسمية جامعة وشاملة ولا يسوغ لنا ان نعبر عنها بغير هذا التعبير سواء أكان الاختلال في القوس أم كانت القدم معوجة الى الجهة الوحشية او الانسية "Valgus" او كانت تعيقهم عن العمل ، او نتجت عن فقدان العضلة موازنتها ومرونتها •

تعتبر القدم من اهم اعضاء الجسم في علم التشريح ، ليس لانها تحمل ثقل الجسم أثناء الوقوف فحسب ، بل لانها تقوم بأكثر الفعاليات الجسمية ، التي لا تتناسب وصغر حجمها او ما يحيط بها من اربطة وعضلات ، فمجرد

اصابة للعضلة فى قوتها وموازنتها ، ولو كان طفيفا ، يعرض القدم كلها الى عاهة ، او ضعف ، او تشويه .

نقرأ فى علـــم التشـــريح ان للـــقدم قوســـين ، القوس الطولى Longitudinal Arch والقوس المستعرض Transverse Arch وهذان القوسان تنظمهما عظام صغيرة رتبت ترتيبا محكما بوساطة الاربطة التى تحيطها من جميع الجهات ، بشكل يسمح لها بالحركة بين بعضها البعض، كما يجعل العظام ان تقوم بنوع خاص من الحركة . اما العضلات ، فانهـــا تقوم بمحافظة وضعية وموازنة بنائها المرن الدقيق . وعلى هذا يكون تركيب القدم مرنا دقيقا .

ان الالم والاعاقة عن العمل ينتجان عن سببين مختلفين :

أ ــ فقدان المرونة فى مفاصل القدم

Loss of flexibility in the joints of the foot

تعتبر هذه السبب الرئيسى لآلام القدمين ، وتنتـــج عن قلة التمرين والحركة المحدودة ، وضيق مجال الدورة الدموية لضيق الحذاء او عـــدم ملائمته للقدم .

ومثل هذه القدم لا يمكن اعتبارها قدما مسطحة ، اذ قد يكون القوس الطولى الداخلى طبيعيا ، أو فوق الطبيعى ، انما هذا الالم ومن ثم الاعاقــة عن العمل ، ناتجان عن تمدد الاربطة القابضة والشكل الذى أصبحت فيه القدم تزداد سوءا بفقدان العضلة .

وممـــا يجدر ذكره بهـــذا الصدد أنه يمكن ملافاة الادوار الاولية والدرجات البسيطة من هذه العاهة وتحسين شكل القدم بوساطة تمارين خاصة تساعد على اعطاء الحركة والمرونة للمفاصل لتكتسب العضلة شيئا من القوة والشدة .

ب ـ فقدان العضلة قوتها ونموها غير المتزن

"Loss of Muscular tone & unbalanced development"

ان ضعف العضلات ، سبب رئيسى لحصول هذه العاهة التى تؤلم المصاب بها وتعيقه عن العمل • وهذا الضعف الذى يصيب العضلة ينشأ عن فقدانها قوتها ونموها غير المتزن ، فتتحمل أربطتها جهدا كبيرا يؤدى الى تمددها واستطالتها ، مما يجعل شكل العظام غير طبيعى ، ومما يؤدى أيضا الى أن يكون القوس المستعرض عرضة للتشويه والالم •

ان الادوار الأولية لهذه العاهة يمكن ملافاتها بمعالجتها بالتمارين فقط • أما ان كانت العاهة أصيلة فى القدم فتجب معالجتها بطرق أخرى علاوة على التمارين البسيطة •

يتبين مما تقدم ، أن سبب حدوث هذه العاهة ، هو فقدان العضلة قوتها ومرونتها ، وعليه فيجب أن تكون المعالجة بتمارين من شأنها اعادة القوة والمرونة الى العضلة • وقبل أن نشرح أساليب هذه التمارين ، نبين بصورة مختصرة وظائف بعض العضلات المهمة التى لها صلة وثقى بأداء القدم وظيفتها •

العضلات الرئيسة للقدم والكاحل ووظائفها

١ ـ العضلة القصبية الامامية Tibialis Anticus

المنبت Origin :ـ فى الثلثين الاعلين من السطح الخارجى من عظم القصبة ، حيث يوجد الغشاء الفاصل بين هذا العظم وعظم الشظية •

المغرز Insertion :ـ فى الحافة الداخلية من رسغ القدم Tarsus عند العظم الاول من عظام مشط القدم •

العمل Action :ـ تثنى القدم وترفع الحافة الداخلية لها ، وهو ما يسمى بعملية القلب أى قلب القدم للداخل Inversion •

ان ضعف هذه العضلة (القصبية الامامية) يؤدى الى الشتر Eversion أى قلب القدم الى الخارج ، وهو نتيجة ميكانيكية للقدم المسطحة • [أنظر شكل (١)] •

٢ ـ العضلة القصبية الخلفية Tibialis posticus

المنبت :ـ فى النصف الاعلى من السطحين الخلفين لعظمى القصبة والشظية •

المغرز :ـ فى السطح الداخلى الاسفل من القوس الطولى •

العمل :ـ تساعد على ضبط المجموعة العظمية للقدم فتسند القوس الطولى الداخلى • [انظر الشكل[1]] •

٣ ـ العضلة الشظية الطويلة Peroneus Longus

تمتد على طول الشظية وعلى السطح الخارجى من الساق •

المنبت :ـ فى رأس عظم القصبة وفى القسم الاعلى من السطح الخارجى لعظم الشظية •

المغرز :ـ فى القسم الاسفل من السطح الخارجى لقاعدة عظام مشط القدم الاولى وفى عظم الرسغ •

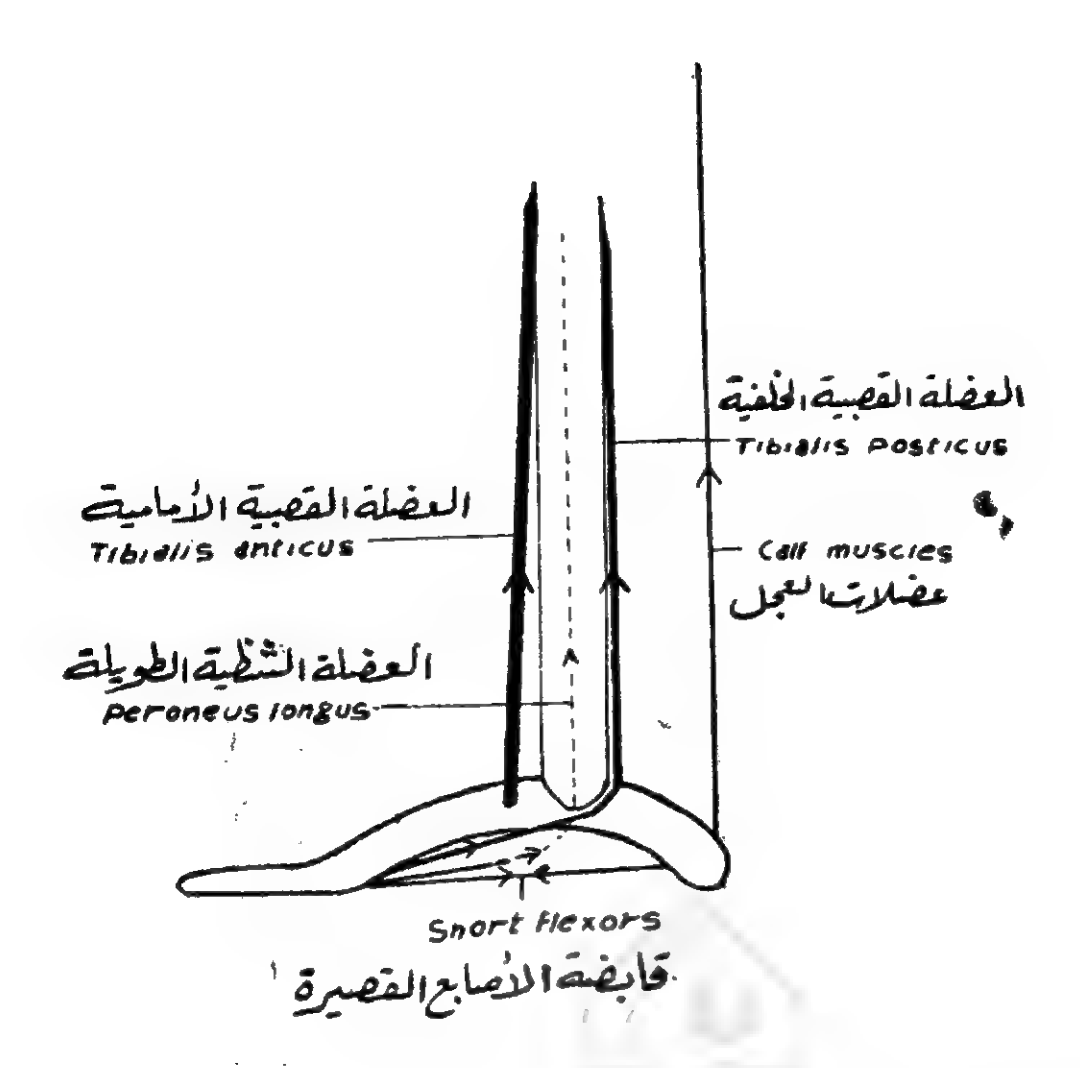
العمل :ـ تسحب قاعدة الاصبع الكبير الى الخارج والخلف ، فتحفظ لقوسى القدم حالتها الطبيعية •

ان ضعف العضلة الشظية الطويلة يؤدى حتما الى انخفاض قوسى القدم ، وهو سبب رئيسى فى حصول القدم المسطحة • [انظر الشكل[1]]

٤ ـ قابضة الاصابع القصيرة Short flexors of the toes

وهى مجموعة كبيرة من العضلات الصغيرة فى اخمص القدم ، ينشأ بعضها من السطح الامامى من عظم العقب الى الاصابع • ان تماسك الاعمدة الداخلية لهذه العضلات يساعد على المحافظة على القوس الطولى •

ان اى ضعف او فقدان قوة Tone يصيب اياً من العضلات المذكورة آنفا ، يساعد على جعل القدم مسطحة ، ولهذا يجب ان تكون خصائص تمارين المعالجة تقوية وتقصير هذه العضلات [انظر شكل (١)]



شكل (١) العضلات التي تعمل على القدم

٥ ـ عضلات العجل The Calf Muscles

وهى مجموعة من العضلات يدخل ضمنها عضلة بطن الساق والعضلة الاخمعية التى تقع تحتها • [انظر شكل (١)] •

أ ـ عضلة بطن الساق Gastrocnemius

ان هذه العضلة تكوّن القسم الاكبر من عضلة العجل •

المنبت :ـ فى السطح الخلفى لنتوأى عظم الفخذ المستديرين بوساطة رأسين•

المغرز :ـ فى السطح الخلفى من عظم الكاحل داخل رباط اووتر آخيل Tendo Achilles

العمل :ـ ان هذه العضلة تساعد على ثني الركبة بالاشتراك مـع العضلات الفخذية ، كما انها تبسط مفصل رسغ القدم أي مد الامشاط ورؤوس اصابع القدم •

ب ـ العضلة الاخمصية Soleus

المنبت :ـ في القسم الاعلى من السطح الخلفي من عظمى القصبة والشظية •
المغرز :ـ في عظم الـكاحل Oscalis بوساطة وتر آخيل •
العمل :ـ بسط رسغ القدم •

ان قصر عضلات العجل سبب في حصول القدم المسطحة ، وعليه يجب ان تكون تمارين المعالجة مساعدة على استطالة هذه العضلات •

سبق وان ذكرت بان للقدم قوسان فحسب ، غير انني لم اشـر الى مواقعها الحقيقية ، التي يسهل على القارى والمريض من التعرف عليها بصورة جلية ، ليستطيع من متابعة البحث وفهمه جيدا والافادة منها حين القيام باجراء التمارين الاصلاحيةالتي سندرجها في مؤخرة المقال : القوس الطولى "Longitudinal Arch" وموضـعه على الجانب الداخلي للقـدم ويمتـد من العقب الى قاعدة الاصبع الكبرى • والقوس المستعرض "Transverse Arch" ويمتد من قاعدة الاصبع الـكبرى الى قاعدة الاصبع الصغرى •

وان حالة تراخي العضلات وضعفها تسمح بنقل عظام القوس الطولى من موضعها الى اسفل • واذا كانت هذه الحالة غير ظاهرة بألا يكون القوس قد تلاشى تماما فيقال في هذه الحالة ان بالقدم ضعفا • وهنا ينبغي أن يلفت نظر التلاميذ الى استعمال منتهى العناية في مثل هذه الحالة لمنع أي ضعف ينتاب العضلات بعد ذلك ويكون من عواقبه زيادة في هبوط القوس ، وأن لـم

نعالج هذه الحالة بشد وتقوية العضلات المختصة ، فان القوس فى النهاية يصل من الهبوط بحيث يصبح لدى التلميذ ما يسمى بالقدم المسطحة .

تتداخل القدم المسطحة مع المشى وذلك بازالة القفزة من الخطوة ، وقد تكون أيضا السبب فى اهتزاز عنيف للجسم . وكثير من الناس يشكون آلام الرأس وقد عرف أخيرا أن سببها يرجع الى القدم المسطحة .

ومن أسهل الطرق لفحص القدم المسطحة أن يلاحظ المدرس اتجاه وتر آخيل "Tendon of Achilles" فى الطالب ، فاذا كان الطرف الأسفل لهذا الوتر يتجه الى الخارج فيكون لدى الطالب فى هذه الحالة ضعف فى قدمه أو تسطح فيها . كما أن بروز المفصل بين الساق والقدم الى الداخل دليل على وجود القدم المسطحة عند الطالب .

وهناك طريقة أخرى لفحص ذلك العيب الجسمى عند التلميذ وذلك بوضع الاصابع تحت القوس عندما يكون التلميذ واقفا على كلتا قدميه . وأيضا اذا تغير قوس القدم بالتراب من الداخل بعد المشى على سطح مترب اعتبر ذلك دليلا آخر على وجود القدم المسطحة .

اسبابه :

١ ـ ضعف عضلات القدم .

٢ ـ الاوضاع الرديئة التى يوضع فيها القدم .

٣ ـ زيادة الوزن الفجائية او الفائقة الحد .

٤ ـ بعض الاعمال التى يضطر معها التلاميذ الى الوقوف مددا طويلة وعلى الاخص على سطح خشن الملمس .

٥ ـ حمل الاوزان الثقيلة ، اذ أنه من شأنه ان يلقى مجهودا على عضلات القدم فيضعفها ويعرضها للتمدد ومن ثم ينشأ تسطحها .

٦ ـ الاحذية الضيقة .

٧ ـ الضعف فى عضلات القدم الناشىء من اصابة القدم او المرض

الطويل • والقدم المسطحة تكون عادة مقرونة بالجنف والجنأ واصطكاك الركبتين فى الاطفال • ويحتمل ان يكون السبب فيه نقصانا عاما فى قوة القوام •

التمارين العلاجية :

١ ـ تمارين تمهيدية :

(يخلع المصاب حذاءه عند تأدية تمارين القدم) •

أ ـ السير والوقوف ، يقف التلميذ مع ثنى اصابعه وطيها تحت القدم • يمشى التلميذ بخطوات قصيرة فى خط مستقيم على الارض • يستمر التلميذ بالحركة حتى تدفىء القدمين •

ب ـ (الوقوف) ـ رفع الكعبين وخفضهما مع المحافظة على اتجاه راس القدمين الى الامام •

٢ ـ تمارين تدوير القدم foot Rolling

أ ـ (الوقوف ـ اليدان على الخاصرة) • رفع ساق واحدة ، تدوير القدمين بالتناوب على الصورة الاتية :

(١) ثنى القدم foot flexion

(٢) قلب القدم الى الداخل قلبا تاما full Inversion

(٣) مد القدم او بسطها foot Extending

(٤) شتر القدم او (قلب القدم الى الخارج) foot Everting

يمكن اجراء هذا التمرين فى وضعية الجلوس ، بقدم واحدة او بكلتيهما معا •

يستحسن ان يجرى تطبيق هذا التمرين بالمساعدة أولا • ثم يقوم المريض باجرائها بدون مساعدة • يجب تجزئة الحركة خلال فترة محدودة• [انظر شكل **(٢)**] •



شكل (٢) تمارين تدوير القدم

٣ – تمارين ثنى القدم foot flexing

لهذه التمارين صفة مهمة وهى تقوية العضلةالقصبية الامامية واستطالة عضلة بطن الساق • وهذه التمارين هى :

أ ـ (الوقوف ـ اليدان على الخاصرة) • ثنى القدمين بالتناوب •

ب ـ (الوقوف بالاستناد) ـ ثنى القدمين على التوالى (احذر عدم ثنى الورك) •

حـ ـ (الوقوف) ـ السير على العقبين مع ثنى القدمين (الركبتـــان مستقيمتان) •

ملحوظة :ـ يجب ان يكون السير بخطوات قصيرة ثم تتسع تدريجيا لحفـظ عضلة العجل من الطول او التمدد •

د ـ (الوقوف باتجاه السلالم ـ اسناد القدمين الى اسفل ركن السلم ـ مسك ركن السلم باليدين على مستوى الـكتفين) ـ ميل الجذع الى الوراء ثم الرجوع الى السلم •

ملحوظة :ـ توضع القدمان اسفل ركن السلم اكثر ما يمكن ، وعند ازدياد قوة العضلات تسحب تدريجيا حتى تبقى الاصابع فقط تحت ركـن السـلم •

٤ ـ تمارين تقويس القدم foot Arching

يستعان بهـذه التمارين فى معـالجة عضلة قابضة الاصابع القصيرة



شكل (٣) تمرين تقويس القدم

وعضلتى القصبية الامامية والخلفية [انظر شكل (٣)] • وهـذه التمارين هـى :ـ

أ ـ (الوقوف) ـ تقويس القدمين بالتناوب •

ب ـ (الوقوف) ـ تقويس القدمين ومدهما بالتوالى •

حـ ـ (الوقوف) ـ التقاط بعض الاشياء من الارض بوساطة اصابع القدمين كالدعبل او القلم او البندق او الجوزة الصغيرة ••• الـخ •

د ـ (الوقوف) ـ السير على خط مستقيم من العقب الى الاصابـع ومحاولة تقويس القدم •

هـ ـ (الوقوف • اليدان خاصرة) ـ قلب القدمين الى الداخل ثـم تقويسهما •وهذا يؤدى الى تقلص عضلة قابضةالاصابع القصيرة والعضلة القصبية الامامية فتنكمش الاصابع وتقصر القدم عـلى قدر الامكان •

٥ ـ قلب القدمين الى الداخل والخارج (الشتر)

feet Inverting and Everting

ويستفاد من هذا التمرين فى تقوية عضلتى القصبية الامامية والخلفية وعضلات الشظية • يجب اجراء هذا التمرين على الصورة التالية :ـ

(الجلوس بمد الساقين • اليدان ممدودتان الى الوراء ومسندتان عـلى الارض) ـ قلب القدمين الى الداخل والخارج بالتناوب •

ملحوظة :ـ (يجب خلع الاحذية عند اجراء التمارين المذكورة سابقا والتى ستذكر فيما بعد • كما يجب التدرج فى التمارين من السـهل الى الصعب على قدر المستطاع) •

لا يسمح بالقفز او الوثب ما لم تقو العضلات ، وما لم يكن المفصـل اكثر مرونة ، وذلك عند ممارسته التمارين مدة من الزمن ليحصل على فائدة من الوثب او القفز • ويحسن بنا ان نتمم ذكر التمارين الاخرى التى قد

لا تخلو من فائدة ، اذا احسن المصاب ممارستها حسب الاصول وهي :

١ ـ (الوقوف ـ اليدان على الخاصرة ، اصابع القدمين متقاربة والعقبان متباعدان) ـ رفع العقبين وخفضهما على التوالى • (يعاد التمرين عشر مرات) •

٢ ـ (الوقوف بضم القدمين) ـ رفع العقبين وخفضهما على التوالى مع رفع الذراعين الى الامام وخفضهما •(يشترط عند اجراء هذا التمرين فتح العقبين الى الخارج بقوة عند رفعهما • (يعاد التمرين عشر مرات) •

٣ ـ (الوقوف بفتح الساقين ، اليدان على الخاصرة) ـ ثنى الركبتين وفتحهما الى الخارج ثم مدهما الى الاعلى(يعاد التمرين عشر مرات)•

٤ ـ (الوقوف بفتح الساقين ، القدمان متوازيتان والمسافة بينهما خمسة عشر انجا) ـ رفع الحافة الداخلية للقدمين وتركيز ثقل الجسم على الحافة الخارجية لهما • (يعاد التمرين خمس عشرة مرة) •

٥ ـ يمكن اجراء التمرين الرابع بالسير الى الامام والخلف مع حفظ القدمين متوازيتين • (يفيد هذا التمرين فى ازالة الالم الشديد الناتج عن استطالة الاربطة •)

٦ ـ (الوقوف بضم الاصابع وفتح العقبين) ـ السير الى الامام او الوراء مع المحافظة على وضعية القدمين •

٧ ـ (الوقوف) السير برفع العقبين (ان هذا التمرين مفيد جدا ، فيجب ممارسته كثيرا •

صحة القدمين :

ان العناية بصحة القدمين ، يجب ان لا تقل عن العناية باى عضو آخر من الجسم • كما يجب الا تقل عناية السليم بهما عن عناية المصاب ، (الوقاية خير من العلاج) وان كان هذا القول لا يحظى باهتمام يسير ممن لم يقعوا فى شرك الامراض عرضا • ان عناية بسيطة بقدمينا تكفينا تحمل آلام شديدة

قاسية ، واذا كنا نضجر ونتألم لوجود مسمار فى احدى اصابعنا فكيف بنا اذا اصيبت قدمنا ، لا سمح الله ، بالتهاب فى المفصل او خروج عظم من محله ؟ هذا سؤال لا اظن احدا يحسن الاجابة عنه الا من ابلاه الله بمثل هذه الاصابات لقلة عنايته بقدميه فى وقت كان ذلك يسيراً عليه •

ان اصابة القدم بألم مزعج ناتج عن :ـ

١ ـ عدم ملائمة الحذاء للقدم •

٢ ـ عدم استعمال القدمين بصورة صحيحة •

وعلى أساس هذين السببين ننصح باتباع النصائح الآتية :

أ ـ يجب ان تكون القدم مع محورها الطويل Long Axis أثناء المسير موازية لاتجاه تقدمها مما يجعل الامشاط ممدودة الى الامام وعلى هذا فليدرب الأطفال منذ الصغر • واذا خولفت هذه القاعدة اثناء المسير يشعر الانسان بتعب وتقل مقاومة قدميه وتضعف قابليتهما •

ب ـ يجب ان يطأ العقب الارض اولا ثم ينتقل الثقل تدريجيا الى كرة القدم بانتقال الجسم الى الامام •

ح ـ يجب ان تؤدى كل خطوة فى رفع الجسم عن كرة القدم لتتقلص عضلات القدم مما يؤول الى تقويتها •

د ـ اما عن الحذاء ، فيجب ان يكون له خط داخلى مستقيم نسبيا من العقب الى مقدمة الحذاء • مع ان اقدام الافراد متباينة الا ان اغلب الاقدام يلائمها الاحذية ذات الحدود المستقيمة •

هـ ـ يجب ان يكون ثمة تناسب بين مقدمة الحذاء وعرض القدم •

و ـ يجب الا يكون الحذاء ضيقاً بحيث يضغط على القدم وخاصة الاصابع ، فلا تتوفر الراحة للشخص •

ز ـ يجب الا يعلو كعب الحذاء عن الانج الواحد والا ينقص عن

ربع انج ، كما ان قاعدة الحذاء يجب الا تقل عن مساحة عقب
القـــــدم •

ح ـ كلما ازدادت مسام المادة التى تصنـع منهـا الاحـذية ، كانت
تلك الاحذية هي المريحة والصحية •

ملحوظة :ـ مما لا شك فيه ان جعل عقب الحذاء مطاطية ، مما يخفف مـن
وطأة الصدمة بالارض الصلبة •

ان اتباعنا النصائح الانفة يوفر علينا جهودا فى تحمل الالام نحن فى
غنى عنها •

مصادر البحث

1. Fundamentals of Health.
   by T. Bruce Kirkpatrik & Alfred f. Huettner.
2. Anatomy & physiology of phy. Education.
   by Major R.W. galloway.
3. Massage & Swedish gymnastics.
   by Thomas D. Luke, M.D.
4. Elementary Anatomy & Physiology.
   by Mary Rees Mulliner, M.D.
5. Theory of gymnastics.
   by J. Linhard.
6. Phy. Education in Boys' Schools.
   by F.J.C. Marshall, M.C. & W. Russell Rees.
7.

معجم العلوم الطبية والطبيعية ـ للدكتور شرف

مميزات الحياة القبلية الكردية

الدكتور شاكر خصباك

المدرس فى قسم الجغرافية

يبدو للباحث أن المميزات العامة للحياة القبلية الكردية تنحصر فى ثلاث صفات أساسية هى الرئاسة والقتال والمسؤوليات القبلية •

١ ـ الرئاسة :

يمكننا أن ندرس مميزات الرئاسة القبلية الكردية من خلال ناحيتين ، الاولى هى متطلبات الرئاسة والثانية هى مزايا الرئاسة •

متطلبات الرئاسة :

تنبثق رئاسة القبيلة الكردية من الحاجة الى تنظيم وتوجيه النشاطات المختلفة للقبيلة ، ومع أن منصب الرئاسة وراثى فى العادة الا أنه مع ذلك يتطلب صفات معينة أهمها القوة الحربية والثروة والمقدرة الشخصية •

فالقوة الحربية ميزة ضرورية للغاية ان لم تكن شرطا أساسيا لرئاسة القبيلة الكردية ، ذلك أن القتال يعتبر وجها مهما من نشاطات القبيلة ، واذا ما علمنا أن القبيلة الكردية هى مجموعة من الافخاذ ترتبط ببعضها عن طريق السكنى فى أرض معينة والخضوع الى رئاسة معينة أدركنا أهمية تمتع الرئيس بالقوة الحربية ، والواقع أن فخذ القبيلة الذى تنحصر فيه الرئاسة لا يمكن أن يحتفظ بزعامته ما لم يكن متمتعا بقوة حربية تؤهله لفرض سيطرته على بقية الافخاذ والدفاع عن القبيلة ازاء غارات الاعداء •

ان نواة القوة الحربية التى يحتفظ بها الرئيس هم المرافقون • لذلك كان عدد المرافقين ذا أهمية بالغة من وجهة نظر أبناء القبيلة أنفسهم أو أفراد القبائل الاخرى ، ويقوم المرافقون بالاضافة الى أعمالهم الحربية بحماية الرئيس وبتأديب معارضيه • ويتعهد الرئيس بدوره بالانفاق عليهم وعلى عوائلهم ، ويختار الرئيس هؤلاء المرافقين من شتى الافخاذ وهم لا يرتبطون

مع بعضهم برابطة النسب ، الا أنهم يشتركون بصفة واحدة هي كونهم رعاة مترحلين ، وهؤلاء بدورهم يكرهون الارتباط بعمل نمطي ويميلون بطبيعة حياتهم البدوية الى القتال •

أما الثروة فهي صفة ضرورية للرئاسة لانها ترتبط بعدد المرافقين وبدرجة ضيافة الرئيس • وقد ذكرنا أهمية عدد المرافقين ويمكننا القول أن درجة الضيافة لا تقل أهمية في أثرها عن عدد المرافقين • وتحدد درجة ضيافة الرئيس نوع « المضيف » الذي يتعهد بالانفاق عليه • فكلما اتسع هذا المضيف وكثر عدد زواره ارتفعت سمعة الرئيس وازداد نفوذه • ويمكن القول أن مضيف الرئيس يعتبر رمزا لوحدة القبيلة • ففيه يعلن الرؤساء الصغار (رؤساء الافخاذ) عن ولائهم للرئيس ، وبين جدرانه يحس أفراد القبيلة بالامان والاطمئنان • ولعل أبرز دليل على أهمية صفة الضيافة لرئيس القبيلة هو ما يقوم به رؤساء القبائل بالفعل من انفاق أغلب وارداتهم على المضيف ، حتى أن بعضهم كثيرا ما يضطر الى الاستدانة من التجار والمرابين •

أما المقدرة الشخصية التي لابد للرئيس من التحلي بها فتتمثل بتوفر صفات متعددة أهمها الشجاعة والتدين والذكاء • فالشجاعة صفة ضرورية للرئيس ما دام النظام القبلي يعرض القبيلة لحروب مستمرة ، وما دام رئيس القبيلة مسؤولا عن القيادة الحربية • أما التدين فهو صفة مهمة برأي الاكراد • واذا ما كان الرئيس ذا نسب أو صفة دينية كان مركزه أقوى وأرسخ • ولعل ذلك يعلل لنا كثرة رؤساء القبائل ممن يحملون ألقابا دينية في كردستان كلقب (الشيخ) أو (الملا) • أما الذكاء فانه يساعد الرئيس على توسيع نفوذه داخل القبيلة (بين الافخاذ) وخارجها (بين موظفي الحكومة) •

مزايا الرئاسة :

ان رئاسة القبيلة الكردية تضمن للرئيس ثلاث مزايا رئيسة هي السطوة المطلقة ورئاسة القضاء القبائلي والسيطرة على أراضي القبيلة •

فأما السطوة المطلقة فهي صفة مميزة للرئاسة في القبيلة الكردية ، وان كان الرئيس يستشير في العادة الرؤساء الصغار أو الرجال المسنين في القبيلة . ويقول نيكيتين انه متى ما تسلم الرئيس الفردي سلطاته فليس للفرد القبائلي أن يناقش مدى نفوذه في أية قضية كانت[1] . أما ملينجن فقد وصف سلطة الرئيس القبائلي الكردي بما يلي : (ان الرئيس القبائلي الكردي هو ديكتاتور مطلق ، ولا حد لسلطاته . وبوسعه أن يصادر ممتلكات أي فرد قبائلي ، وأن يأمر بقتله متى ما وجد ذلك مناسبا)[2] .

وتعد قرارات الرئيس في شؤون القبيلة نهائية ولا يمكن لأي فرد أو جماعة دحضها أو الغاؤها . أما من تحدثه نفسه بمعارضة الرئيس ومخالفة أوامره فلن ينجو من عقابه أو بطشه . ويقول شاكر فتاح في صدد الحديث عن سلطات الرئيس القبلي : (يحاول رئيس القبيلة في العادة حل المشاكل التي تحصل بين أفراد القبيلة أو العشيرة حسب الاصول العشائرية أو الدينية . أما القضايا التي تمس مصالحه أو كرامته أو حياته فلن تقيده في حلها أي قوانين دينية أو قبائلية ، وسبيله الوحيد الى حلها هو الانتقام . وقد يبلغ انتقام الرئيس أحيانا أقصى حدود القسوة ان لم توقفه قوة فوق قوته . فالرئيس يتمتع بسلطة غير محدودة ضمن قبيلته لا تشابهها الا سلطة الملك المطلق . وكل من يتجاهل أوامره من أفراد القبيلة فانه يعرض نفسه للعقاب الصارم بالضرب أو النفي بل وحتى القتل . وهذا هو الاسلوب الذي يتبعه جميع رؤساء قبائل الزيباري والهركي والسورجي التي تقطن لوائي الموصل وأربيل)[3] .

أما رئاسة القضاء القبائلي فانها بيد الرئيس الكردي ، فهو حامي القبيلة

(1) Nikitine, B., "Les Kurdes", Paris 1956, p. 133.

(2) Millengene, F., "Wild life among the Kurds", London 1870, p. 240.

(٣) قضاء عقرة ــ بقلم شاكر فتاح (كتاب غير مطبوع) عام ١٩٥١ ص ٦٢ ــ ٦٣ .

من الاعتداء الداخلي أو الخارجي • والواقع أن الفرد القبائلي يفضل قضاء الرئيس على قضاء الحكومة لسببين أولهما أنه يعتقد أن الرئيس هو مرجعه الحقيقي ، وثانيهما أن شكواه لدى المراجع الحكومية لا تأتي في العادة بنتيجة سريعة كما قد تكلفه بعض النفقات •

ان المحاكمات القبلية تعقد في العادة في مضيف الرئيس ويحضرها الرؤساء الصغار وبعض أفراد القبيلة • ولا يتدخل الرئيس في الخصام بين الافراد المتخاصمين ما لم يطلب منه أحدهم التدخل ، وتدخله في الحقيقة نوع من التحكيم • ويحاول الرئيس الحصول على تعويض للطرف المتضرر الذي قد يدفع على شكل مال أو حيوانات أو نساء (في القضايا الخطيرة) • وقد يقرر الرئيس في قضايا القتل نفي الشخص المذنب خارج أراضي القبيلة ومصادرة أملاكه • ولا يصدر الرئيس حكما بالسجن أو الموت • وعلى العموم فان قضايا القتل لا تعرض في العادة على الرئيس بل يلجأ الطرف المتضرر الى المقاتلة بالمثل بقتل فرد من أقرباء القاتل • وفي هذه الحالة تعد القضية مغلقة ، لكن أعمال المقابلة بالمثل قد تستمر في بعض الحالات زمنا طويلا مما يحمل الرئيس الى التدخل وحسم النزاع • وتعرض في الوقت الحاضر قضايا القتل على السلطات الحكومية مباشرة •

أما سيطرة الرئيس على أراضي القبيلة المشاعة فانه أمر يتمثل في جميع الاشكال القبلية الكردية • ففي قبيلة پشدر يمثل الاغوات الميراودليين – وهم رؤساء القبيلة – طبقة الملاكين • كذلك شأن البيكات الذين كانوا رؤساء قبيلة الجاف المترحلة والذين يمثلون الآن ملاكي أراضي قبيلة الجاف• وهذا هو شأن بقية أجزاء كردستان ، حيث يشير تايلور الى حالة شبيهة في كردستان التركي [١] •

ويمكن أن تفسر هذه الظاهرة على ضوء طبيعة تكوين القبيلة الكردية ،

(1) Tylor, "Travels in Kurdistan", Journal of Royal Geographical Society, vol. XXXV, 1865, p. 50.

فالفخذ الحاكم ينال مركزه بقهر الافخاذ الضعيفة واخضاعها لسيطرته ثم الاستيلاء على أراضيها • ولهذا فالرئيس الكردى يتمتع بمزايا المالك الاقطاعى ، وهو ذو مركز شبيه بمركز البارونات الاقطاعيين فى القرون الوسطى • وقد كان اعتماد الدولة العثمانية على رئيس القبيلة فى جمع الضرائب عن الارض عاملا هاما فى تثبيت حقه فى أراضى القبيلة بمرور الاعوام •

٢ ـ القتال :

ان القتال من الصفات المتميزة للحياة القبلية الكردية • وقد كانت الحروب بين القبائل الكردية دائمة أثناء السيطرة العثمانية • أما فى الوقت الحاضر فان الحكومة تتدخل فى أى صدام قد يحدث بين القبائل • والواقع أن أسباب تلك الحروب ترجع الى عوامل سياسية وجغرافية ولا ترجع الى حب الاكراد للسلب والنهب كما زعم كثير من الرحالة الاجانب • ويتمثل أثر العامل السياسى بفشل الادارة العثمانية فى السيطرة على القبائل الكردية• والوقائع أن السلطات العثمانية لم تكن تتدخل فى شؤون القبائل الداخلية اذا كانت تدفع الضرائب ، فوعورة المنطقة الكردية وندرة المواصلات فيها يجعل من الصعب فرض السيطرة عليها • ويعود أثر العامل الجغرافى فى تشجيع القتال بين القبائل الكردية الى طبيعة أرض كردستان الوعرة • فوعورة المنطقة الكردية قد أدت الى التنافس الدائم على الاراضى الزراعية الخصبة وعلى المراعى الغنية • ولهذا فان عامل الاحتكاك بين القبائل المختلفة كان متوفرا على الدوام • هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان قلة مصادر المياه فى القرى الكردية كانت تحمل السكان الزائدين الى ترك القرية والهجرة الى أماكن أخرى لتخفيف الضغط عن المياه • وكثيرا ما يكوّن أولئك الجماعة المهاجرون الذين تربطهم رابطة النسب فرقة حربية تشن الغارات على القرى الضعيفة وتغتصب أراضى سكانها •

ويقول برتن Burton ان انعزال السكنى الكردية فى قرى

متفرقة – وهو أمر ناجم عن وعورة تضاريسها – قد جعل التعاون بين سكانها أمرا متعذرا • وقد أدى هذا بدوره الى أن تستقل كل أسرة كبيرة بقرية خاصة وتعتمد على نفسها في انتاج حاجاتها الضرورية ، وأن تقف في وجه كل غريب يتطفل عليها معتبرة اياه تهديدا لأمنها واطمئنانها الاقتصادي(١) •

وهناك أسباب ثانوية أخرى للحروب القبلية منها الانتقام الشخصي والثأر ، الا أن أمثال تلك الحروب تحدث في أحوال نادرة للغاية ، وعلى نطاق محدود •

ويقوم الرئيس بقيادة المعارك المهمة ، أما الاغوات الصغار فيقومون بتهيئة جماعاتهم المسلحة ليكونوا تحت أمرة الرئيس ، ويشترك في المعارك الواسعة النطاق جميع الافراد القادرين في القبيلة الذين تتراوح أعمارهم بين سن الخامسة عشرة حتى الستين ممن يمتلكون السلاح ، بينما يقوم بقية أفراد القبيلة باعانة المتحاربين • أما المعارك الصغيرة فلا يشترك فيها الا أشخاص معينون ممن لهم ولع خاص بالقتال • (٢)

ان الغزوات والحروب القبلية الكردية تلتزم بتقاليد خاصة تكاد تشبه في سطوتها القوانين • وقد ذكر ويكرم Wigram في صدد الحديث عن تقاليد الغزوات الكردية انها تسمح بنهب الحيوانات والاسلحة والاثاث المنزلي ولكنها تحرّم حرق البيوت واتلاف المزروعات وتخريب قنوات الري • كما ذكر أن تقاليد الغزوات تحرّم التعرض للنساء أو الشيوخ بأذى حتى أنهم لا يحتاجون الى أية حراسة أثناء الهجوم • (٣) وقد أيد هذه الاقوال مارك سايكس Sykes واكد أن الغزوات القبائلية لا تمس الممتلكات الثابتة بأذى ، الا أنها لن تتقيد بأية قوانين اذا ما اشتركت السلطات

(1) Burton, H.W., 'The Kurds' Journal of Royal Central Asian Society, No. 8, p. 72, vol. XXXI, 1944.

(2) Barth, F., Principles of social organizotion of Southern Kurdistan' Oslo 1953, pp. 54-55.

(3) Wigram, W.A. & Edgar, T.A.,' The cradie of mankind' London 1914, pp. 167-8.

الحكومية فى تلك الحروب ، بل تحاول أن تنزل بها أفدح الاضرار [1] •

ويتصف الاكراد بكونهم محاربين شجعانا وصبورين • ولقد وصفهم الكابتن هاى Hay الذى اشترك فى عدة معارك ضدهم بأنهم محاربين فاشلين[2] ، الا أن مارك سايكس الذى شهد أيضا عدة معارك من معاركهم يؤكد أن قهرهم فى القتال أمر غير يسير [3] •

٣ ــ **المسؤوليات القبلية :**

لقد ذكرنا بأن الرباط العام بين أفخاذ القبيلة يتمثل بسكناها فى منطقة واحدة وخضوعها الى رئاسة مركزية • لذا نجد أن الرباط الوحيد الذى يربط الافخاذ المختلفة بعضها هو الاشتراك فى القتال ، ولا يوجد أى رابط اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى بين الافخاذ المختلفة ، ولكن أفراد الفخذ الواحد يرتبطون بروابط متنوعة تتمثل بالمسؤولية المشتركة والتعاون الاقتصادى والمشاركة فى الاحتفالات المختلفة •

فالمسؤولية المشتركة تتمثل بالاشتراك فى القتال مع أية جماعة من جماعات الفخذ تتعرض للاعتداء • ولا تظهر هذه المسؤولية فى الحوادث الفردية • فحادثة القتل التى تقع على فرد من أبناء الفخذ لن تجر أفراد الفخذ الآخرين الى معركة مع الطرف الآخر ، بل يتكفل أقرباء القتيل الاقربون بالانتقام ، الا اذا كان الشخص المقتول أحد الرؤساء • لذلك لا يمكن اعتبار (الثأر) مسؤولية قبائلية بل هو مسؤولية عائلية •

أما التعاون الاقتصادى فيتمثل بالملكية المشتركة لأراضى المراعى ولمصادر المياه ، وحتى للاراضى الزراعية فى بعض الاحيان • ولعل هذا التعاون يبدو أكثر وضوحا فى حالة القبائل المترحلة ، فالفخذ يمتلك مساحة معينة من الارض بصورة اجماعية كمرعى لحيواناته ، أو قد يؤجر أفراده بصورة مشتركة أرضا معينة كمرعى لحيواناتهم •

---

(1) Sykes, sir Marks, 'The Caliphat last heritage' London 1915, p. 234.

(2) Hay, W. 'Two years in Kurdistan' London 1921, p. 72.

(3) Sykes, Marks, 'Dar ul-Islam' London 1904, pp. 191-2.

وفى حالة القبائل المستقرة يتقيد أفراد القبيلة بالملكية المشاعة لمصادر المياه • ويتحمل الكوخا (مختار القرية) فى العادة مسؤولية تطبيق هذا القانون الاجتماعى بحيث لا يحاول أحد الافراد الاستيلاء على مياه للرى تفيض عن حقه • وبما أن الملكية الاسمية للارض الزراعية تعود الى الاسرة الحاكمة فى القبيلة فان للرئيس الحق فى الاراضى الزراعية بين أفراد المجتمع القبائلى • والواقع أن لكل فلاح من أبناء القبيلة حقا تقليديا فى مساحة معينة من الارض • ويتم اعادة توزيع الارض بين الفلاحين كل عام أو كل عدد من السنين • وليس من الضرورى أن يقوم الرئيس نفسه بهذه العملية • فقد يتولاها مجلس مؤلف من الشيوخ فى القرية يقوم بتوزيع الارض على فلاحى القرية كلا حسب طاقته وحقه المتوارث •

أما مراعى القرية فانها تعتبر ملكا مشاعا لجميع السكان • ويتضح التعاون الاقتصادى بين أفراد الفخذ الواحد أيضا فى داخل القرية بتأجير راع معين للقيام برعى حيوانات القرية بصورة مشتركة •

أما المشاركة فى الاحتفالات فانها تشمل الاعياد والزواج والوفيات ، ففى أيام الاعياد يقوم ابناء الفخذ أو القرية بتبادل الزيارات • كذلك ان أعضاء الفخذ ملزمون بالمشاركة بحفلات الزواج وبتقديم الهدايا لأسرة المتزوج • ولكن أعظم المناسبات أهمية هى مناسبة الوفاة ، فتجاهل تقديم التعزية لأسرة المتوفى وعدم الحضور الى حفلات الوفاة أمر لا يمكن أن يغتفر ، وخاصة اذا كان الشخص المتوفى أحد رؤساء القبيلة ، لذلك فان حفلات الوفاة للافراد القبائليين تستغرق وقتا أطول من حفلات الاشخاص غير القبائليين ، وهى لا تقل عن أسبوع على أية حال من الاحوال ، وفى حالة وفاة رئيس القبيلة أو أحد الرؤساء الصغار فان حفلة الوفاة قد تستغرق أكثر من شهر • وفى هذا الاثناء يتقاطر أفراد القبيلة على بيت المتوفى حاملين معهم الهدايا من السكر والشاى والرز والحيوانات •

هذه هى أهم المميزات للحياة القبلية الكردية وهى كما يبدو شبيهة فى أغلب مظاهرها بصفات الحياة القبلية العربية •

المياه الجوفية فى العراق

بقلم : الدكتور عباس احسان البغدادى

رئيس شعبة الهايدروجيولوجيا في مديرية الخـدمات الريفيـة العـامة (وزارة البلديات) والمحاضر فى علم الجيولوجيا بكلية الآداب

كلمة تمهيدية

لئن كان العراق بلدا زراعيا اشتهر منذ عشرات القرون بخصب تربته ووفرة محاصيله الزراعية فان ثروته المعدنيـة الآن أصبحت لا تقل شهرة عن شهرته الزراعية تلك بل أنها فاقتها بمراحل • ولما كان علم الجيولوجيا يعتبر الواسطة للولوج الى تلك الكنوز والثروات المعدنية المخبأة بين الطبقات الارضية لذلك وجب أن يولى ما يستحقه من الاهمية البالغـة ويشـجع الجيولوجيون بأن تقدم لهم كافة التسهيلات التى من شأنها تيسير مهمتهم فى الـكشف عن تلك الـكنوز المندثرة • فهم الذين يعينون المواقع المناسـبة لاستخراج الميـاه الجوفيـة واستعمالها فى شتى الاغراض سواء كان ذلك لغرض الشرب أو الاستعمالات المنزلية أم لغرض الرى وهم الذين يثبتون أماكن وجود النفط تحت سطح الارض ، واليهم يعود الفضل فى اكتشاف واستخلاص المعادن المختلفة كالذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والكبريت والبلاتين واليورانيوم وسائر المعادن الأخرى الفلزية التى هى عماد حضارتنا الحديثة والتى منها تستمد موادها الاولية •

فلولا هذا العلم الحيوى ـ علم الجيولوجيا ـ لمـا بلغت حضارتنا هـذا الشأو من التقدم والرقى ، ولمـا انتشرت العلوم والمعـارف والصناعات من أقصى المعمورة الى أدناها •

والواقع أن علم الجيولوجيا أخذ فى الآونة الاخيرة يحتل مكانا رفيعا

بين العلوم لما لفروعه المختلفة ـ بالتضافر مع سائر العلوم الاخرى ـ من أثر بارز في تقدم مدنيتنا ، هذا التقدم السريع الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ . ولا أدل على مدى تأثيره على مدنيتنا من أخذ النفط كمثل للدلالة على أهميته البالغة . فالنفط ومشتقاته هو في الحقيقة عصب المدنية الحالية ، فبه تدار معظم الآلات التي ترتكز عليها صناعاتنا التي هي بدورها عماد نهضتنا الحاضرة .

والماء ـ كما هو معلوم ـ مادة ضرورية للحياة اذ لا تستقيم حياة بدونه ذلك لان انعدامه أو شحّه في منطقة ما يحيل تلك المنطقة الى أرض جدباء يصعب العيش فيها وربما يستحيل . ولذا فان دراسة المناطق المختلفة لمعرفة وجود المياه فيها ، ثم تعيين مقدارها وعمقها عن سطح الارض فضلا عن بيان نوعيتها وخصائصها الاخرى تدخل كلها ضمن علم الجيولوجيا . وعليه فاننا ان أولينا هذا العلم العناية التي يستحقها ، وحاولنا الاخذ به وتطبيق ما يمكن تطبيقه فان آفاقا من الرخاء تنفتح أمامنا ونحصل على منافع عديدة .

وبناء على ذلك فان دراسة العراق جيولوجيا امر ضروري جدا كي يمكن تقدير ثروة البلاد المعدنية والمائية . فاذا علمت مصادر المياه ومقاديرها مثلا وامكن تعيين الطبقات الارضية التي تحتويها ونوعية كل منها فان ذلك يفتح الباب على مصراعيه امام المشاريع المختلفة كي تستثمرها وتفيد منها .

هذا وساتطرق في بحثي هذا الى التاريخ الجيولوجي للعراق والوضع الطوبوغرافي والجيولوجي وبيان الطبقات الارضية المختلفة مع الاشارة الى انواع الصخور التي تتكون منها ثم انوّه عن علاقة المياه الجوفية بهذه الطبقات الارضية لانها الهدف من هذا البحث .

التاريخ الجيولوجي للعراق :

لقد اظهرت الدراسات الجيولوجية لاراضي وادي الرافدين بان سطح العراق قد غمر تحت مياه البحر مرات عديدة ولمدد طويلة وفي كل مرة يغور فيها تتكون طبقات ارضية جديدة تتميز عما سبقها من طبقات سواء

كان من ناحية الصخور وخصائصها أم من ناحية المتحجزات التى تحتويها واختلاف انواعها • وعلى كل حال فالجيولوجيون أى علماء طبقات الارض يعتقدون بان اول ظهور لارض العراق فوق سطح مياه البحر كان فى عصر الكامبريوم الذى هو احد عصور الحقب الابتدائى المعروف لدى الجيولوجيون بالباليوزوئيك • ولم تكن الظروف وقتذاك كما هى عليه الان وانما كانت تتألف من قارتين واسعتين شمالية وجنوبية يفصلهما بحر متوسط وكان هذا البحر يؤثر بين حين وآخر على ساحلى هاتين القارتين فيغمر بعض اجزائهما ثم ينحسر عنهما • وعندما ظهرت ارض العراق للمرة الاولى كانت متصلة بشبه جزيرة العرب وايران غير ان الامر لم يدم على هذه الشاكلة بل غمرت هذه الاراضى فى اواسط الحقب الابتدائى ثم عادت وانغمرت ثانية بتأثير هجوم مياه البحر مجددا عليها •

وكان هذا الهجوم على نطاق واسع بحيث شمل اجزاء شاسعة من قارة آسيا ودام زمنا طويلا قبل ان ترتفع فوق سطح الماء •

وفى ابتداء الحقب الثانى او المتوسط الميزوزوئيك كان القسم الجنوب الغربى من قارة آسيا ـ بما فيه العراق ـ عبارة عن قطعة واحدة الا انهـا انغمرت فى اوائل هذا الحقب لتكون طبقات جديدة من الصخور وبعد فترة من الزمن ارتفعت الارض فوق سطح البحر حتى اذا شارف الحقب الثانى على الانتهاء ازداد تقدم مياه البحر على الارض اليـابسة بحيث بقى الجزء الشمالى من العراق مغمورا تحت المياه لمدة طويلة •

ثم اعقب ذلك الحقب الثلاثى (ترشيرى) وقد تميز اوائله بالنشـاط حيث ازدادت خلاله فعالية البراكين وكذا حركات القشرة الارضية بتأثير الانفعالات فى باطن الارض وقد صاحب هذه الفعالية تكون سلاسل جبلية فى انحاء مختلفة من العالم • اما الجبال الحالية التى نعرفها كجبال هملايا والالب وطوروس وجبال كردستان والبرنة والابنين وغيرها فقد تكونت فى اواخر الحقب الثالث الذى تميز بدوره بحصول اندفاعات وفعالية هائلة للبراكين • ويمكننا القول استنادا الى الدراسات الجيولوجية بانه فى أواخر

الحقب الثالث أخذت الارض بما فيها من قارات وبحار شكلها الحالى •

وفى الحقب الرباعى تجددت فعالية البراكين ونشطت حركات القشرة الارضية وكانت هذه هى آخر الاندفاعات الكبيرة التى حصلت وقد نجم عنها تكون بعض السلاسل الجبلية من جهة وفقدان سطح العراق مستنداً يستند عليه مما جعل سطحه يهبط ويظهر هذا بجلاء فى جهـات العراق الشرقية حيث يبدو مبتورا فى خط مستقيم تقريبا اتجاهه العام هو شمال غرب ـ جنوب شرق •

الوضع الجغرافى والطوبوغرافى :

تبلغ مساحة العراق حوالى ٤٥٣ الف كيلو مترا مربعا وتبلغ نسبة القسم الجبلى منه حوالى ٢٠٪ من مجموع مساحته وتبلغ مساحة الاراضى الواقعة ما بين النهرين حوالى ٢٠٪ • اما ما تبقى منها وتقدر بحوالى ٦٠٪ فهى عبارة عن صحراء شاسعة تمتد غربى نهر الفرات •

يحد العراق من الشرق ايران ومن الغرب سوريا وشرق الاردن وجزء من المملكة العربية السعودية ومن الشمال تركيـا ومن الجنوب المملكة العربية السعودية والكويت وخليج البصرة •

اما الوضع الطوبوغرافى فيمكن تقسيم سطح العراق الى ثلاثة اقسام رئيسية •

القسم الاول ـ وهو الذى يشمل المنطقة الجبلية ويتألف من سلاسل جبلية مختلفة الارتفاعات يربو ارتفاع بعضها على ثلاثة الاف متر كجبل حصارروست وجبال سلرساتى حيث يبلغ كل منهما حوالى ٣٧٠٠ متر وجبل رشكروان ويبلغ ارتفاعه ٣٣٠٠متر وجبل افرازداغ ويبلغ ارتفاعه ٣٠٠٠مترا واتجاه الجبال فى شمال العراق هو اتجاه شرق ـ غرب ثم تأخذ فى الانحراف فى الشمال الشرقى منه بحيث يصبح اتجاههما العام شمال غرب ـ جنوب شرق • وبذا يكون خط الحدود موازيا لها •

هذا ويلاحظ ان الجبال تزداد ارتفاعا كلما ابتعدنا عن سهل العراق العراق بصورة مطردة وتكون فيما بينها جبالا متوازية منتظمة الشـــكل ويستثنى من ذلك منطقة صغيرة ضيقة تمتد ما بين حلبجة وشمالى قلعة دزه والتى يطلق عليها الجيولوجيون اسم منطقة الزحف Nappe Zone ان جبال منطقة الزحف تتميز بفقدان الانتظام فى ارتفاعاتها ووديانها وتوازيها فليست المرتفعات بأنطواءات محدبة (إنتكلاين) كما وليست وديانها انطواءات مقعرة (سنكلاين) كما هو الحال فى السلاسل الجبلية الاخرى • فالوديان قــد حصلت بفعل التعرية ونحت المياه لها وانها تتميز بتعرجاتها الـكثيرة وشدة انحدار جوانبها •

والقسم الثانى — ويشمل الاراضى الواقعة ما بين النهرين وقد تكون القسم الشمالى منها من الرواسب التى خلفها البحر بعد تقهقره فى الاتجاه الجنوب الشرقى فى حين ان القسم الاوسط والجنوبى من هذه المنطقة يعتقد بأنها كانت تشكل دلتا النهرين دجلة والفرات فى ذلك الزمن وقد تكونت من الرواسب التى نقلها كلا من النهرين مع روافدهما بدليل طبيعة هـذه الارض وعناصر التربة المـكونة لها غير ان هناك رأيا جديدا يشجب قصة الدلتـــا •

والقسم الثالث — ويشمل الصحراء الممتدة غرب نهـر الفرات وهى تزداد ارتفاعا كلما اتجه المرء غربا الى ان تبلغ اقصى ارتفاعها قرب الحدود السورية ـ العراقية حيث يقرب ارتفاعها من ٩٠٠ مترا تقريبـــا • ويتميز القسم الشمالى من هذه الصحراء والمعروف بالبادية الشمالية فى كون وديانه ضيقة وعميقة وليس لمعظمهما مصبات بل تنتهى بمنخفضات طبيعية تعرف بالفيضة • وان معظم سطح البادية الشمالية تغطية طبقات من الصخور الصلبة فى حين ان القسم الجنوبى من الصحراء والمعروفة بالبادية الجنوبية يتكون بعض سطحها من رمال وحصى متخلخلة الامر الذى يجعل جريان ميـــاه الامطار المـكونة للسيول على سطحها ولمسافات بعيدة غير ممكنا بل انها تغور

سريعا في الاعماق وهذا مما يحول دون تكوين الوديان والاخاديد في هذه المنطقــــة •

الوضع الجيولوجي :

لقد اظهرت الدراسات الجيولوجية التي اجريت في العراق بان الطبقات المـكونة للجبال تغور تحت مجرى نهري دجلة والفرات في اعماق مختلفة الى ان تقترب من سطح الارض ثانية في غرب نهر الفرات وهذا مما يشكل انطواء مقعرا واسعا (سنكلاين) أو يتكون منه عدة انطواءات مقعرة صغيرة تعرف باسم سنكلانوريوم وفي هذا الانطواء المقعر تجمعت مواد مختلفة نقلت بواسطة الانهر من المناطق الشمالية والشرقية او انتقلت اليه بواسطة السيول الآتية من شبه جزيرة العرب او ما ذرته الرياح العاتية • اجل ان هذا التقعر الواسع مضافا اليه المواد التي تراكمت فيه قد اسبغ على سطح العراق طابع الوادي • ولذا فلا يجب ان يلتبس الامر علينا ونظن ان وادي الرافدين قد حصل نتيجة لفعالية النهرين وحفرهما له ، بل مرد ذلك الى وضع الطبقات الارضية التي جعلت للسطح شكلا يشبه الحوض محوره الطولي يمتد في الاتجاه شمال غرب ـ جنوب شرق •

اما كيف حصل هذا الحوض وما هي العوامل التي ساهمت في تكوينه فيجيب الجيولوجيون على ذلك بان القشرة الارضية لمنطقة العراق وما جاوره من مناطق تعرضت فيما مضى الى ضغط هـائل مصـدره في هضبة ايران واتجاهه الى الجهة الجنوبية الغربية وهم يعتقدون كذلك بان هذا الضغط قد خفت وطأته عند اصطدامه بالـكتلة الصلدة التي تتكون منها شبه الجزيرة العربية التي يعتبرونها جزء من قارة عريقة في القدم يطلقون عليها اســم (كوندوانالاند) وكنتيجة لذلك الضغط فقد تكونت التضاريس الارضية التي تتمثل بالجبال الشاهقة في منطقة كردستان حيث كان الضغط على اشدّه في حين ان الطبقـات التي كانت بعيـدة عن مركز ذلك الضـغط نالتهـا بعض التضـاريس البسـيطة هـذا وقـد كان من اثر الضـغط الشديد في الجهات الشمالية الشرقية ان حصل زحف لمساحات واسعة نسبيا مـن

القشرة الارضية من ايران ثم استقرارها في المنطقة الواقعة ما بين حلبجة وشمالي قلعة دزة هذه المنطقة التي يطلق عليها الجيولوجيون اسم منطقة الزحف .

ان التضاريس الارضية من جبال ووديان في المنطقة موضوع بحثنا تشير كلها الى حداثة عهد تكوينها بدليل تطابق التركيب الجيولوجي للطبقات الارضية مع الوضع الطوبوغرافي في لهذه المنطقة فان كل مرتفع سواء كان جبلا اوتلا ـ عدا منطقة الزحف طبعا ـ هو في الحقيقة انطواء محدب (انتكلاين) وكل منخفض هو انطواء مقعر (سنكلاين) ومن هذا يستنتج بان المدة التي مضت على تكوين هذه المرتفعات والمنخفضات اى الجبال والوديان لم تكن من الطول بحيث اتاحت لعوامل التعرية وحركات باطن الارض ان تغير من اوضاعها وبالتالي من تعقيدها .

اما العصور الجيولوجية التي تعود اليها الصخور المنتشرة في انحاء العراق فقد وجد بعد دراستها بانها تعود الى الاحقاب الجيولوجية الاربعة وهي الحقب الابتدائي (الباليوزويك) والحقب الثاني او المتوسط (الميزوزوئيك) والحقب الثلاثي (ترشيرى) والحقب الرباعي (كواترنرى).

فالصخور التي تعود الى الحقب الابتدائي توجد في منطقتي حلبجة والعمادية وهي تشغل مساحة صغير نسبيا والصخور التي تعود الى الحقب المتوسط فهي أكثر انتشارا وان صخور العصر الترياسي والجوارسي وهما اللذان يشكلان القسم الاول والثاني من هذا الحقب فتوجد في منطقة الجبال كما توجد في المنطقة الواقعة في شمال الرطبة وتتكون هذه الصخور على الغالب من الطفل (مارل) والحجر الكلسي (لايمستون) واحيانا الجبس والصخور التي تعود الى العصر الطباشيري وهو الذي يشكل الفترة الاخيرة من الحقب المتوسط فهي واسعة الانتشار في منطقة الجبال ومنطقة الرطبة ويقدّر سمك هذه الطبقات بما لا يقل عن عشرة آلاف قدم ان لم تزد عن ذلك بكثير وتتكون هذه الطبقات غالبا من صخور الحجر الكلسي والطفل والرمل .

اما صخور العصر الايوسيني وهو الذى يشكل اوائل الحقب الثلاثى فتغلب ان تكون من الحجر الكلسى وهى توجد فى المنطقة الجبلية وفى مساحات شاسعة من الباديتين الشمالية والجنوبية اما صخور الاوليكوسين فتوجد بقلة فى بعض الجبال ويعود ذلك الى انه قد تكون صخور هذا العصر قد زالت بعوامل التعرية او ان المواد المكونة لها لم يتهيأ لها الرسوب بسبب ظهورها فوق البحر آنذاك •

وصخور الميوسين تتكون على الاغلب من الحجر الرملى (ساند ستون) والطفل والحجر الكلسى والجبس فى الشمال يقابل ذلك الرواسب الرملية والحصوية الناعمة المعروفة بطبقات الدبدبة فى الجنوب •

وصخور عصر البلايوسين وهو العصر الذى يمثل اواخر الحقب الثلاثى فيغلب ان تكون من الحجر الرملى والطفل • امـا صخور الحُقب الرباعى (كواترنرى) فيغلب ان تكون ترسبات غرينية وحصى الانهـار والسيول او رمال ومواد ذرتها الرياح •

هذا هو مجمل العصور الجيولوجية مشفوعا بذكر انواع الصخور المكونة لطبقات كل عصر منها • والآن لابد لى ان اشير الى الطبقات الارضية التى تعود الى العصور المختلفة والتى لها فائدة مائية ويمكن اتخاذها كمصادر جيدة لتجهيز المياه الصالحة للشرب كالطبقات الارضية التى تعود الى العصر الرباعى وهى التى تتكون غالبا من الطمى والغرين والطين والحصى فقد يكون لها فائدة فى تجهيز مياه جيدة اذا كان سمك طبقاتها كافيا وكان الغالب فيها الحصى • فقد وجدت فى بعض الاماكن كما فى بدره ومندلى ان الآبار المحفورة فى طبقات الالوفيوم المتكون من الغرين والحصى يجهز الآبار المحفورة فيها بكميات كافية من المياه اذا كان سمك هذه الطبقات مناسبا اما صخور البختيارى فتتكون اجمالا من حصى ومكتلات (كونكلومرات) تتخللها طبقات طينية ويبلغ سمك هذه الطبقات فى المنطقة الجبلية اكثر من ١٠ الاف قدم الا ان سمكها يتناقص كلما اتجهنا الى سهل وادى الرافدين هذا النوع

من الطبقات يمكنها ان تستوعب كميات هائلة من المياه ولذا فهي أفضل الطبقات التي تجهز المياه في العراق واحسن مثل على منطقة تستمد مياهها الجوفية من هذه الطبقات البختيارية هو سهل اربيل فالآبار هناك قليلة العمق ومياهها غزيرة للغاية • ان طبقات البختياري واسعة الانتشار فهي توجد في منطقة كفري وكركوك واربيل وشمال سنجار وزاخو كما وتوجد ما بين دجلة ووادي الثرثار وغيرها من الاماكن وهي تعتبر اهم مصدر للمياه الجوفية •

ويلي الفارز الاعلى طبقات البختياري في الاهمية ذلك لانه يتكون من حجر رملي تتخلله طبقات طينية الا انانتشاره اقل من سلفه ولذا كانت اهميته محصورة كمنطقة سنجار مثلا •

اما صخور الحجر الكلسي المعروف باسم الحجر الكلسي الفراتي "Euphrates Limeston" فيبلغ سمك طبقاتها حوالي ٦٠٠ قدم وان هذه الصخور تجهز مياه العيون المنتشرة في الشمال وربما كانت هي التي تجهز المياه لمنطقة العيون التي تمتد من عانة الى الناصرية غربي نهر الفرات•

المياه الجوفية ومناطقها في ضوء التركيب الجيولوجي للعراق :

لقد اشرت آنفا في سياق بحثي الى ان تركيب العراق الجيولوجي الذي هو على شكل حوض امتداد محوره الطولي في الاتجاه شمال غرب ـ جنوب شرق هو وضع ملائم جدا لخزن مياه وفيرة تحت سطحه ذلك لان الصخور المسامية كالحصى والحجر الرملي والمكتلات (الكونكلومرات) وبعض انواع الحجر الكلسي منتشرة في المنطقة الجبلية والمناطق المجاورة لها عند سطح الارض او في عمق قليل تحته ولما كانت الامطار تهطل في تلك المناطق بغزارة لذا فان كميات هائلة من مياه الامطار تتغلغل خلالها وتتسرب الى الاماكن السفلى حيث تتجمع في اعماق مناسبة لدى مصادفتها لطبقات غير مسامية ثم تنساب عليها في اتجاه انحدار الطبقات التي تمتد تحت مجرى نهري دجلة والفرات حتى تبلغ الصحراء غربي نهر الفرات

واعتمادا على هذه المعلومات فأنه يعتقد بان الطبقات التى هـى تحت سطح وادى الرافدين تختزن كميات هائلة من المياه غير ان الامر يتوقف على عمق هذه الطبقات عن السطح فاذا كانت قريبة منه عندئذ يمكن الاستفادة منهـا واستغلالها على نطاق واسع اما ان كانت عميقة الغور فانها تصبح عند ذلك غير اقتصادية نظرا لتكاليف الحفر الباهظة وثم اقتناء آلات الضخ الكبيرة اللازمة وعلى كل حال فان معلوماتنا عن عمق الطبقات الحاملة للمياه الجيدة قليلة جدا فى الوقت الحاضـر بحيث لا نستطيع معهـا البت فى الموضوع وسيكون فى وسعنا قريبا ان نتوصل الى معلومات أوفى بعد ان تتم أعمال الحفر التجريبية العميقة التى تجرى فى انحاء مختلفة من القطر • وبهذه المناسبة فانى ارغب ان اشير الى ما يعتقده بعض الجيولوجيين من انه لو امكن حفر بئر عميقة فى اواسط وادى الرافدين بحيث يتجاوز عمقها الالفين أو الثلاثة آلاف قدما فان المياه الجوفية قد تتدفق بشدة الى ما فوق سطح الارض ،ان صحة هذا الاعتقاد من عدمه ستعلم بعـد انهاء حفر الابار فى هذه المنطقة •

اما مناطق المياه الجوفية فيمكن تقسيمها على أسس شتى وسأتبع هنـا فى تقسيمها على أساس مقادير المياه المختزنة فى كل منطقة وعلى ذلك يمكن تقسيم العراق الى خمسة مناطق •

المنطقة الاولى ــ وهى منطقة الجبال ومياهها الجوفية تكون غزيرة جدا نظرا لكثرة ما يهطل عليها من امطار سنوية فلا غرابة ان وجدت العيون بكثرة فى هذه المنطقة اما نوعية المياه فتعتبر من النوع الممتـاز نظرا لان صخورها هى من الحجر الكلسى التى تجهز افضل انواع المياه دائما •

المنطقة الثانية ــ وهذه تشمل الاراضى المتاخمة للمنطقـة الجبليـة وتمتد من منطقة سنجار غربا وتمر بالموصل وأربيل وكركوك وتنتهى قرب خانقين شرقا تختزن الطبقات الارضية لهذه المنطقة كميات كافية من الميـاه

ونوعيتها جيدة اما الصخور فتكون على الغالب من الحصى والحجر الرملي والمكتلات والحجر الكلسي • اما الابار التي تحفر لغرض الاستفادة من المياه الجوفية فليست آباراً عميقة وقد لا يتجاوز عمقها عن المائتي قدم •

المنطقة الثالثة ــ وهي تشمل الاراضي الواقعة ما بين النهرين تقريبا ــ عدا بادية الجزيرة ــ ويضاف اليها الاراضي الواقعة شرقي نهر دجلة في وسط العراق وجنوبه ان كمية المياه الصالحة ليست معلومة نظرا لقلة دراسة هذه المنطقة جيولوجيا وقد يكون سبب ذلك لان معظم سكان العراق الذين يقطنون هذه المنطقة يعتمدون في شربهم واستعمالاتهم الاخرى على مياه الانهار والجداول والقنوات المتفرعة عنها • اما نوعيةالمياهالجوفية فتختلف باختلاف الموقع الجغرافي والوضع الجيولوجي • أن عمق الابار الى تحفر في هذه المنطقة مختلفة ايضا فقد تكون في موقع ما قليلة العمق وقد تكون في موقع اخر عميقة جدا نظرا للرغبة في التخلص من المياه غير الصالحة للاستعمال والتي قد تكون موجودة في اعماق قليلة •

المنطقة الرابعة ــ وهذه تشمل اراضي باديةالجزيرة ويمكنان تجهز بعض اقسام هذه المنطقة مياها غزيرة الا ان نوعيتها بصورة عامة رديئة لكثرة الاملاح الذائبة فيها وتكون الآبار التي تحفر في هذه المنطقة غالبا عميقة •

المنطقة الخامسة ــ وهي منطقة الصحراء التي تشتمل على الباديتين الشمالية والجنوبية • ان مياه هذه المنطقة عميقة اجمالا ونوعية المياه الجوفية للبادية الشمالية افضل بكثير من المياه الجوفية للبادية الجنوبية اما كمياتها فهي قليلة في كلتا الباديتين نظرا لقلة هطول الامطار وعدم وجود موارد اخرى للمياه الجوفية من مصادر اخرى •

تصنيف المياه الجوفية بالنسبة الى نوعيتها :

لقد بحثنا آنفا مناطق المياه الجوفية وقد اخذنا ذلك باعتبار مقدار المياه

فى تلك المناطق وبوسعنا ان نشير ولو بأختصار الى نوعية تلك المياه وما تحتويه من املاح ذائبة فيها • وعليه فبوسعنا ان تقرر ما يأتى :ـ

أولا ـ المياه الحاوية على الـكربونات :

وهي التي توجدفي المنطقة الجبلية وفي الباديتين الشمالية والجنوبية حيث تحيط بمنطقة الرطبة وتمتد الى النخيب فى البادية الشمالية كما وتوجد فى المنطقة الممتدة ما بين الشبكة والمنطقة المحايدة بمـــا فيها الجل وعيدها فى البادية الجنوبية • وتتكون اغلبية صخور هذه المناطق من الحجر الـكلسى التى تعود الى عصور الحقب الاوسط وبعض عصور الحقب الثلاثى • وهى تكون بذلك ذات نوعية ممتازة واملاحها الذائبة تكون قليلة اذا ما قورنت بمياه المناطق الاخرى •

ثانيا ـ المياه الحاوية على الـكبريتات :

وهى المياه الى تحتوى على الـكبريتات سواء كانت على شكل كبريتات الـكلسيوم او غير ذلك وهى توجد غالبا فى المناطق التى تكثر فيها صخور الجبس العائدة الى عصر الميوسين الأوسط • ان طعم هذه المياه غير مستساغ• وتكثر هذه المياه فى المنطقة الممتدة ما بين الموصل ـ تلعفر ـ الشرقاط فى لواء الموصل ، كما توجد فى بادية الجزيرة وكذا فى منطقة مخمورة فى لواء اربيل وكذا فى منطقة طوز خرماتو وكفرى والحويجة فى لواء كركوك وكذا المنطقة المتاخمة للحدود الايرانية من الوية ديالى والـكوت والعمارة ومنطقة هيت وغربى الفرات • هذا وتوجد مثل هـــذه المياه فى الباديتين الشمالية والجنوبية حيث تشغل المنطقة الممتدة ما بين بصية والسلمان والشبكة وكور الصحن وشنانة والنخيب •

ثالثا ـ المياه الحاوية على الـكلوريد :

ان هذه المياه اقل انتشارا من تلك المياه المذكورة آنفا واهم منطقة لها هى التي تحادد نهر الفرات من جهته الغربية بالقرب من هيت الى الرحالية

وعين تمر (شثاثة) كما وتوجد منطقة اخرى فى جنوبها وتشغل الارض الممتدة ما بين البصرة والسماوة وبصية فى البادية الجنوبية •

رابعا ــ المياه الحاوية على النترات :

ان رقعة الارض التى تشغلها المياه التى تحتوى على النترات صغيرة نسبيا وقد وجدت مثل هذه المياه فى بادية الجزيرة والمنطقة الواقعة شمال سامراء التى يحدها جبل حمرين شمالا ، كما وتوجد مثل هذه المياه فى منطقة الهبارية من البادية الشمالية •

خامسا ــ المياه القلوية :

وهى المياه التى توجد فيها القلويات بنسبة اكبر من تلك العناصر التى تكون الحوامض القوية ، ومثل هذه المياه توجد فى منطقة القعرة الواقعة فى الشمال الشرقى من الرطبة •

ان هذا النوع من التصنيف لا يزال بحاجة الى مزيد من الدراسة للوصول الى معلومات اتم وادق ولا شك ان الجهود خلال السنين القليلة القادمة ستحقق هذه الرغبة •

هذه هى مناطق المياه الجوفية ذكرتها بأختصار تام ومنها يظهر ان بعض مناطق العراق تكثر فيها المياه الجيدة غير انها لم تستغل استغلالا تاما ولذا فأن دراسة المياه الجوفية بصورة تفصيلية تفسح المجال لزيادة الاستفادة منها لاغراض الشرب وربما لسقى المزروعات ايضا واذا امكن الاستفادة من المياه الجوفية على نطاق واسع فى المناطق التى تقل فيها المياه السطحية فعندئذ يمكننا ان نتوقع تحسنا ملموسا فى صحة السكان لاستعمالهم مياها غير ملوثة بالجراثيم كما يمكننا ان نتوقع زيادة فى الانتاج الزراعى الذى يزيد حتما من ثروة البلاد وبالتالى يؤدى الى رفع مستوى القرى والارياف اجتماعيا واقتصاديا وصحيا •

رأس المال والابتداعات

الدكتور عبدالرحمن الحبيب
مدرس علم الاقتصاد
كلية الآداب

اهتم الاقتصاديون ، خاصة في القرنين الماضيين ، في فهم طبيعةواسباب ثروة الامم • ولـكن الذي يؤسف له هو ان هؤلاء الاقتصاديين قد ضحوا بالنظريةالحيوية (Dynamic Theory) ليشرحوا لنا الاثمان النسبية•وهذا العمل هو غير محمود لان معالجة اقتصاد غير نام (Static Conditions) هو خروج عن الواقع والحقيقة وقد حرمنا من بحث موضوعات حيوية وشائقة • وجاء جان مينرد كينز بنظريته العامة وحطم الحواجز وبحث لنا مشكلةحقيقية وهي أسباب البطالة[1] • والذي يؤآخذ عليه كينز هـو اقتصـاره عـلى بحث الموضوعات للفترة القصيرة •

وفي الآونة الاخيرة اتجه اهتمام الاقتصاديين الى مشكلة كلاسـيكية وهي النمو العام في اقتصاديات البلد • وقد زاد هذا الاتجاه الأهتمـام بالعوامل التي تسهم في النمو الاقتصادي والاهتمام بالعوائق التي تقف في وجـه النمو الاقتصادي[2] •

يعتمد النمو الاقتصادي على البيئة والعوامل الانتاجية المتوفرة • ويقصد بالبيئة هنا مجموع الاحوال والمؤثرات التي تؤثر في حياة الانسـان وفي

---

(١) انظر
John Maynard Keynes, The General Theory of Employment Interest and Money (New york: Harcourt, Brace and Compny, 1935).

(٢) انظر
R.F. Harrod, Towards a Dynamic Economics (London: MacMillan and Co. Ltd., 1952) esp. 1-34.

تطوير سلوكه فى الجماعة • ومن هذا العوامل التى نود الآن بحثها هى تجميع رأس المال والاختراعات •

يعتمد التطور الاقتصادى على تجميع رأس المال وعلى مدى استخدام ما لدى الانسان من معلومات فنية وتسخير هـذه المعلومات فى تحسينات وابتداعات[٣] • تسعمل كلمة رأس المال Capital من قبل المحاسبين والمحامين والصيارفة والاقتصاديين ولـكنهم يختلفون فيما يقصدون • فى بعض الاحيان يقصد برأس‌المال الادوات الوسيطة (Intermediate Products) كما يفعل بوم بوفرك[٤] • وقد يقصد به النقد (Money) كما يفعل‌الرومان وكنت وكسل حيث يقصدون برأس المال المبلغ الاصلى عدا الفائدة[٥] • وفى احيان اخرى تستعمل كلمة رأس المال لتدل علـى ساعات عمل مجسدة فى سلع‌او ادوات كما استعملها كارل ماركس[٦] • وكثيرا ما تذكر الكلمة لتدل على الادوات والمصانع والمنشآت التي‌يحتاج اليها المنتجون فى‌الانتاج•

---

(٣) انظر

C.D. Tuska, Inventors and Inventions (New york: McGraw-Hill Book company, Inc, 1957), chapter VI, pp. 68-77.

شرح أساليب الاختراع

(٤) انظر

Eugen V. Bohm-Bawerk, the Positive Theory of capital (New york: G.E. Stechert & Co., 1888), p. 22; Joseph A. Schumpeter, History of Economic Analysis (New york: Oxford University Press, 1954), pp. 322-327, 633.

(٥) انظر

André Gabor and I.F. Pearce, "The place of Money Capital in the Theory of Production," The Quarterly Journal of Econohics, Volume LXXII, No. 4 (November, 1958), 537.

(٦) انظر

Karl Marx, Capital, Volume I (Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1958), pp. 41-46;

ويصنف ماركس رأس المال الى صنفين : الثابت والدوار أنظر
Volume II, pp. 189-214

والاستاذ نركسي يتبع هذا الاستعمال في كتابه[٧] • وتوجد مدرستان : (١)المدرسة التمساوية ورأس المال بالنسبة لها هو النقد ويحدث الانتاج للحصول على عوائد اكثر من من استثمار النقد • ان الحاجة الى رأس المال النقدي تظهر لانه في الواقع لا يمكن خلق سيل من الانتاج آنيا • ولهذا وجب تجميع هذا الانتاج في فترة بناء • ولبناء هذا السيل يلزم شراء واستخدام عوامل الانتاج • فالنقد وسيط وليس له اى انتاج حدى • (٢) المدرسة التي تسمى بالمدرسة النيوكلاسيكية التي ترتكز نظريتها على فكرة العلاقة الانتاجية (Production Function) وتعتبر النقد كأحد عوامل الانتاج ويمكن الحصول على النقد لقاء ثمن يدفعه المنتج الذي يكون غرضه زيادة عوائده وهي الفضلة او الربح • ومن ممثلي هذه المدرسة لتز وجوآن روبنسن وهكس[٨] •

ويمكن تكوين رأس المال بالطرق التالية[٩] : (١) التوفير الشخصي (٢)الصرف التضخمي(٣) الضرائب(٤) الاقتراض• والتوفير الشخصي يمكن الحصول عليه لسببين : (١) يوفر بعض الناس لان لديهم نقدا يزيد على ما يحتاجون اليه في مصروفاتهم • (٢) ويوفر الناس لان القيم الاجتماعية تتطلب منهم التوفير • وصعوبة الدافع الاول هي ان كثيرا من المال الموفر لا يستخدم بطريقة منتجة • فكثيرا ما استثمر الاغنياء وخاصة في البلدان

(٧) انظر
Ragnar Nurkse, Problems of Capital Formation in Underdeveloped Countries (Oxford: Basil Blackwell, 1955), pp. 1-3.

(٨) انظر
Friedrich and Vera Lutz, The Theory of Investment of the Firm (Princeton: Prniceton: Prniceton University Press, 1951), pp. 3-15, Princeton: Prniceton University Press, 1951), pp. 3 - 15, 67 - 86. Joan Robinson, The Accumulation of Capital (London: Mac Millan & Co. Ltd, 1956), vii, ix, 414 n., J.R. Hicks, Value and Capital, Second Edition (oxford: At the Clarendon Press, 1953), pp. 78-88.

(٩) انظر
Charles P. Kindleberger, International Eccnomics (Homewood, Illinois: Richard D. Irwin, Inc., 1955), pp. 384-387.

المتخلفة اقتصاديا اموالهم الطائلة فى بنـــاء او شـــراء القصور الشـامخة والاقطاعيات الواسعة او اقتناء الخيول الجميلة (والحيوانات والطيور الاخرى كالـكلاب والغزلان والديكة والحمام والبلابل) والسيارات الـكبيرة او المجوهرات والمعادن الثمينة •ويوقف هذا الاستثمار عملية التجميع المجدية• ولما يوفر الافراد من جراء العادة تبقى مشكلة ما سيصنعون بهذه الاموال الموفرة مهمة ولابد من ايجاد حل لها • ويجب ان تشجع قيم الجماعة التوفير المنتج وعلى المؤسسات العامة والخاصة ان تسهل هذا الامر وترعاه • وهذا ليس معناه ان نبجل الاقطاعيين (الزراعيين والصناعيين) ونترك لهم العنان بل يجب تحديد الملـكية وفرض الضرائب المناسبة كما تقتضيه المصلحـة العـــامة •

وقد يتم تكوين رأس المـــال بطريقة فرض الضرائب • والحـكومة تجبى الضـــرائب وتستثمر المقبوضات فى مشروعات منتجة كالـكهربائية ووسائل النقل والمواصلات والمدارس والمصانع الـكبيرة • وتدخل الدولة لازم لعدم وجود التنظيم المتطور فى القطاع الخـاص ولا يتمكن المرء ان يعتمد على الدافع الشخصى للحصول على توفـير كاف او لدفـع التطـور الاقتصادى • فالافراد مع حسن نياتهم غالبا ما نجدهم غير قادرين ، بدون مساعدة الدولة ، على انجاز الاعمال التى تعود بنفع عام على الجماعة • فقد تنقص الافراد والشركات المواد والمهـارات والقـــدرة على الاختراع او ادخال الابتداع فى المشروعات الاقتصادية •وبالاضافة الى هذا نجد ان هذه المشروعات تميل الى ان تكون كبيرة وتكلف مبالغ طائلة وكذلك فان بعضها لا يدر أى ربح[١٠] • وتوفر هذه المشروعات اقتصاديات خارجيـــة للقطاع الخـــاص •

اما طريقة تجميع رأس المال بالتضخم فهى منتشرة فى البلدان المتخلفة والمتقدمة • وهذه الطريقة شبيهة بطريقة الضـرائب • فالحـكومة تقـوم

---

(١٠) انظر بحثى « التخطيط الاقتصادى نظريا وتطبيقا » فى مجلة كلية الآداب ــ العدد الاول حزيران ١٩٥٩ ٠ ص ٥ ــ ٨ ٠

بالاستثمارات وترتفع الاثمان ويسهم اصحاب الدخل الثابت اكثر من غيرهم في تكوين هذا الدخل بينما اولئك الذين يحصلون على ربح عال لا يقدمون شيئا •ولهذه الطريقةمخاطر كثيرة•فربما يؤثر التضخم فيخلقرد فعلسلبي في التوفير الشخصي • وربما يتقاعس الافراد عن التوفير فيمتنعون عن شراء السندات الاستثمارية ولا يودعون مبالغ كبيرة في المصارف ويركزون على شراء الاراضي والسندات ذات الريع الثابت المضمون • وان ارتفاع الاثمان قد يوجه الاموال المستثمرة في مجالات غير مفيدة للجماعة(١١) •

اما الاقتراض فقد يتم من المصارفالوطنية او منالخارج •والاقتراض الاجنبي قد يقبل لانه لا يخفض مستوى المعيشة ولكن المخاطر السياسية والاقتصادية تخيم على رأس الدولة المقترضة • فمخاوف النفوذ السياسي والعسكري والاقتصادي هي من اهم العوامل التي لا تشجع على طرق هذا السبيل • ولكنه مع هذا يحبذ اذا ادي الى خلق توفير شخصي وتكوين رأس مال حكومي باستمرار وبزيادة تستعمل لتسديد الديون نفسها •

اي طريقة تتبع يتوقف على مرحلة التطور الاقتصادي وعلى مقدار المال اللازم وكذلك فالاوضاع العامة لها اثرها الكبير •

ان الحاجة الى رأس المال المنتج ومصادره تبقى تحت الاشتراكية كما هي تحت الرأسمالية • فاذا اريد رفع مستوى العيش تحت الاشتراكية(١٢) اصبح ضروريا ان تساعد قدرة الانسان المادية والعقلية بكميات متزايدة من الادوات والمكائن المختلفة • وعلى الجماعة بصورة عامة ان تستهلك سلعا وخدمات اقل مما تتمكن عمليات الانتاج ان تقدمه لهم • ويكون الفرق رأس مال منتج يستخدم في انتاج سلع وخدمات اخرى • وفي هذه الاحوال يجب اتباع التقشف والاكتفاء بالقليل والبسيط •

---

(١١) فارضين اقتصادا حرا غير مخطط •

(١٢) ويعتقد الاشتراكيون بهذه الرغبة ويقولون ان مستوى العيش سيرتفع بأسرع وقع وأكبر خطوات مما كان عليه في العقود الاخيرة المنصرمة William N. Loucks and J. Weldon Hoot, Comparative Economic Systems (Mew york: Harper & Brothers, 1952), pp. 313-314.

يتم تجميع رأس المال فى النظام الرأسمالى من قبل الافراد والشركات حسب المجالات المتوفرة لاستثمار المبالغ[١٣] • اما التوفير فى النظام الاشتراكى فهو مرسوم وليس له صلة بالمجالات النقدية المريحة للافراد • ويتم حسب حاجة الاقتصاد الوطنى بصورة عامة • فسعر الفائدة فى المدى الطويل يسيطر على كمية التوفير ، يزيدها تارة ويقلها تارة اخرى • اما النظام الاشتراكى فيحطم السلوك الذاتى للاقتصاد الوطنى ويجعل التوفير او تجميع رأس المال وظيفة مباشرة للتنظيم الاقتصادى المخطط •

وتتدخل الدولة تحت الاشتراكية فى السيطرة على ناتج الفعاليات الانتاجية فى اية مرحلة تعتقد انها مناسبة وتحول ما تعتقد انه مناسب من السلع والخدمات الاستهلاكية الى سلع منتجة • وتتحكم الاحوال الاقتصادية (والعسكرية) فى طبيعة ومدى هذا التدخل • ويعتقد الاشتراكيون ان اساليب التدخل مرنة وقابلة للتغيير • ويمكن اختيار المجالات التى يتم فيها التوفير بوساطة الرسم او التخطيط وتحت اشراف وكالات ذات اختصاص • اما السيطرة على الاثمان والضرائب فتستعمل كوسائل لتكوين رأس المال • فرفع اثمان بعض السلع والخدمات فوق التكاليف يمكن الدولة من استثمار الفرق فى تشجيع الصناعات والفعاليات الاقتصادية اللازمة • وهذه الطريقة تمكن الدولة من تقليص بعض الفعاليات وتوسيع فعاليات اخرى • والمستهلك هو الذى يتحمل التكاليف • والمهم هنا هو حسن التخطيط وكفاية الوكالات التى يجب ان يكون هدفها تخفيف العبء عن المستهلك وجعل هذه الاساليب سهلة التطبيق[١٤] •

ان كلا من الابتداع وتجميع رأس المال مهم حيث ان الاول يمكن الانسان من التغلب على ميل ريع رأس المال الى الانخفاض كلما ازداد رأس

---

(١٣) لاسباب غير اقتصادية أنظر

Ralph H. Blodgett, Comparative Economic Systems (Mew york: The MacMillan Company, 1944), pp. 122, 124.

(١٤) انظر

Blodgett, Comparative Economic Systems, pp. 125-140.

المال نفسه والثانى يدفع الانسان على تجنب التبذير وعلى التوفير فى مستويات الفائدة الواطئة وتكوين رأس مال جديد • وقد ركز الاقتصاديون على هذين العاملين (الابتداع وتجميع رأس المال)[١٥] • واهمل بعضهم اهمية توزيع العمل والتخصص فى التطور الاقتصادى[١٦] • ونظروا الى تقسيم العمل كنتيجة او كمصاحب للابتداع والنمو بدلا من كونه مسببا له وبينوا ان تقسيم العمل قد سهل ومكن استخداما كاملا للادوات وهذا بدوره ادى الى الحصول على عوائد عالية لرأس المال المنتج[١٧] •

تتناقص العوائد التى يحصل عليها رأس المال ببطء ولكن باستمرار تحت الاحوال الستاتيكية وبانعدام الزيادة فى المعرفة واستخدامها فى الابتداعات • ويختلف تجميع رأس المال باختلاف العوائد • ويتأثر ايضا برغبة الناس المؤثرة على التجميع وتصميمهم على التضحية ، تضحية كمية من السلع والخدمات فى الحاضر للحصول على كميات اكبر فى المستقبل • وعدم التأكد مما يكنه المستقبل يدفع المرء الى تفضيل الحاضر على المستقبل • فاى تأمين او تقليل فى عدم التأكد (مثل السلام والاستقرار والضمان وطول العمر) يقوى الرغبة للعدة للمستقبل • ويحبذ الانسان الحاضر على المستقبل ولو تساوت الظروف وكانت كلها مضمونة • واى شىء يزيد فى علاقاته مع ابناء جنسه (روابط العائلة والجاذبية الاجتماعية) يزيد فى رغبته المؤثرة على التجميع • وكذلك فالاستقرار وحكم القانون يزيدان فى رغبة الانسان على التجميع •

وفى المدى الطويل يعتمد تجميع رأس المال وتحسن احوال الانسان

---

(١٥) ومنهم جون رى وجوزيف شومبيتر انظر
Joseph J. Spengler, "John Rae on Economic Development: A Note," The Quarterly Journd of Economics, Vol, LXXIII, No. 3 (August, 1959) 395; Joseph A. Schumpeter, The Theory of Economic Development (Cambridge, Mass,: Harvard University Press, 1951), pp. 57-94.

(١٦) ومنهم جون رى •

(١٧) لم يعرجون رى اهمية كبرى لنمو السكان كما فعل آدم سمث الذى اعتبر نمو السكان مصدرا لتقسيم العمل •

على تجميع المعلومات وادخالها في المخترعات وعلى الابتداعات • وعدم وجود الاختراعات يؤدى الى زيادة التكاليف وتأخر في المقبوضات مما يقلل العوائد كلما تجمع رأس المال الى ان يبدأ تجميع رأس المال بالتكون ببطء • وهذه الظاهرة جلية حتى في الاقطار ذات التجميع العالى وهذا لا يقدم كثيرا في تحسن احوال الجماعة •

وقد تخلق الاختراعات والابتداعات الرغبة الى التجميع وقد يزيد التجميع في الحصول على اختراعات وابتداعات جديدة • وتميل الاختراعات ان تزدهر عندما تكون الفنون كثيرة ومختلفة لانه غالبا ما تكون الاختراعات من ربط عدة فنون • وكثرة الفنون تقلل من التقليد وتؤدى الى التباين الثقافي • وتوفر المواد وتباينها بفسح المجال امام الافراد لاختبار الروابط والمسالك الجديدة مما يشجع الاختراع • فبوجود الفنون تتقدم الاختراعات وبتقدم الاختراعات ينشط الابتكار وقد يستثمر الانسان الصحارى والقمر واجراما اخرى(١٨) •

لم يحصل الانسان حتى الآن على الخبرات الضرورية التى تمكنه من الحصول على الحد الاقصى من النمو الاقتصادى • وهذه الخبرات ناقصة ولاسيما في الاقطار المتخلفة اقتصاديا • وكثير من الاقطار ينقصها النمو الاقتصادى الملموس نتيجة للتوانى في استغلال الموارد الاقتصادية المتوفرة فيها • والانتاج الحدى واطىء في البلاد المتخلفة بسبب فقر مجموعات العوامل الانتاجية ولكنه ليس صفرا • وفي مثل هذه الاحوال يكون الانتاج الحدى للعامل واطئا لجميع اصناف العمل وليس في الحقل فقط • ومن الضرورى للحصول على نمو اقتصادى ذى اهمية في هذه الاقطار المتخلفة ان توزع وتستغل الجهود ورأس المال المنتج سعيا وراء :ـ

١ ـ زيادة في الناتج ، أى زيادة في السلع والخدمات سواء كانت للاستهلاك أو الاستثمار •

---

(١٨) ان وجود الاختراعات وادخال الابتكارات في اقتصاديات البلد يرفع الاجور ويزيد في الارباح •

٢ ـ تحسين نوعية الناس كعامل انتاج (أى رفع مستواهم الصحى والثقافى والتدريبى) •

٣ ـ رفع مستوى فن الانتاج الزراعى والصناعى [١٩] •

وتمكن الحكومة ان تشجع الاختراعات وتزيد الرغبة فى التجميع وترفع المستوى العلمى والفنى وتستورد العلوم والفنون والصناعات والخبراء من البلدان الاخرى وتحمى الصناعات الوطنية • وخير خدمة تسديها الدولة لاقتصاديات البلد هى توطيد السلام والطمأنينة والامان ومنع التبذير والتخريب وتأسيس المؤسسات العامة كالمصارف والمواصلات والاحتكارات الوطنية والمؤسسات العلمية والفنية •

---

(١٩) Theodre W. Schultz, "The Role of Government in Promoting Economic Growth." Unpublished paper read November 12, 1955 at the 25th Anniversary of the social sciences at the University of Chicago. Revised Copy, p. 1.

حقيقة القانون الدولي*

بقلم : كي · ستويانوفتش
ترجمة : الدكتور فاضل زكي محمد
المدرس في قسم العلوم السياسية

(١)

١ ـ تكتنف نظرية القانون العامة ، والتي يكوّن القانون الدولي جزءا منها ، الكثير من النواحي المليئة بالغموض والتعقيد • فبينما نجد القسم الكبير من النواحي التي بقيت قرونا عديدة تنتظر حلا ، فان حالات كثيرة أخرى لم تحض حتى بأية محاولة لتفسير مافيها من غموض • وحتى النظرية القانونية ذاتها التي هي الهدف الاساسي لهذا الجزء من بحثنا ، فانها لا تزال تحتاج الى التأييد الاجماعي • فهناك في الواقع عدد من التعاريف للقانون بقدر ما هناك من عدد للفقهاء • واذ كان كانت (Kant) محقا في سخره من الحالة المرتبكة ، فانه هو الآخر قد فشل في ايجاد حل مقنع • واليوم وبعد مرور أكثر من مائة وخمسين سنة على وفاة ذلك الفيلسوف الكبير ، فاننا لا نزال ندور حول نفس النقطة بالضبط • وربما كان من المفيد حقا التأكيد على العوامل النفسية التي دعت الى كل ذلك ، اذ المتوقع أنها تستطيع أن تقدم لنا بعض الجواب الشافي • لان الاسباب التعليلية ليس من الميسور ادراكها تماما : فالمفروض أن يكون لفرع من فروع العلم هذه أهدافه ليقف على رسمها بصورة واضحة • أما اذا كان الامر بالعكس فما عمله اذن ؟

تعتبر نظرية القانون الدولي في الواقع مثلا نموذجيا لفوضوية النظرية العامة للقانون • فلا يقتصر الامر على عدم وجود أي اتفاق حول النظرية

(*) عن مجلة القانون الدولي ، السنة السادسة والثمانين ، العدد الاول (كانون الثاني ـ شباط ـ مارت) ١٩٥٩ ·

From: Journal du Droit International' No. I (Janvier - Février - Mars), 1959.

القانونية فحسب ـ ونعنى بذلك قواعد القانون الدولى ـ وانما ما هو مبالغ فيه بدرجة أكبر ، هو وجود أو عدم وجود هذه القواعد ذاتها والتى لاتزال فى دور المناقشة • فنحن نجد من جهة ان قواعد السلوك العالمى قد حضيت لقرون مضت بالتنقيح والتفسير والتطبيق ، وانها عوملت معاملة القانون ، لان مصطلح القانون الدولى قد طبق فى مدارس القانون ، فمن الجهة الاخرى نجد الحاجة تدعو للوصول الى قرار واضح من حيث هل القانون الدولى هو قانون حقيقة •• ونعنى بذلك هل هناك مقاييس قانونية موحدة لها قوة الزامية على مواضيع ذلك القانون •• نجد أن هناك هروبا من هنا ورأى متردد أو متضارب من هناك ، مما يؤيد فعليا بالنظر لما يوجد من تطرف متحايل أو تحزب زائد من أن الشخص الذى يقدم الآراء لا يقف على أسس رصينة •

ولا شك أن اسباب ما تقدم ناتجة عن نقص فى طريقة البحث وعلى الاخص الباب القانونى بوجه عام • فالقانون هو موضوع لابد وأن يشعر الباحث فيه فى مستهل بحثه أنه متصل به اتصالا وثيقا • لأنه ذو صلة بمصير البشرية على الرغم من المحاولة التى تجرى عادة للتمييز بين القانون كما هو وبين ما يجب أن يكون : اذ أن كثيرا مما يعود الى الشق الاول قد حل بصورة لا شعورية فى الشق الثانى ، وخاصة فى الحالات التى تهدف الى بناء نظرية عامة • وربما كان هذا ناتج من طبيعة الاتجاه الانسانى التى لا يتمكن من التغلب عليها ولكنها من الناحية العلمية غير دقيقة كونها آراء متلبسة بثوب العلم • لان العلم ـ أى علم ـ اذا ما انحدر الى مستوى الآراء ، فلن يستطيع أن يظل علما بسبب امكانية ظهور اختلافات كبيرة فى الاراء السياسية حول مسألة واحدة ، وعدم امكانية اثبات أكثر من وجود علم واحد فى الوقت عينه •

٢ ـ ان عدم وجود خطة واضحة المعالم لدراسة القانون الدو أمر ظاهر لدى المناصرين والمعارضين • والسبب هو أن كلا الفريقين يقدمون

عددا من البراهين والمناقشات المتناقضة التى – هى بدلا من أن تحقق أهدافها المرجوة – نراها تتوصل الى اثبات أمور أخرى بعيدة كل البعد عنه • لذا فانه من المفيد استعراض كل ما قيل (من مؤيدين وغير مؤيدين) حول حقيقة القانون الدولى منذ بدايته • اذ أن بحث الموضوع من دون تقدير للزمن الدقيق والظرف الذى نشأت فيه جميع هذه الاراء المتباينة (وهنا يجب أن يكون التفسير والبحث بروح علمية) يوصلنا الى أجوبة مغلوطة كونها تستند على التخمين فقط • لان الاخذ بنظر الاعتبار لواقع الظروف والزمن يزيل الكثير من المعميات ويوسع من دئرة معرفة المتتبع، وتفتح آفاقا جديدة للنقد العلمى لكل ما يحيط بهذا الجزء من أمور غريبة ونقص فى وحدة الاجزاء وحتى التناقض فى اتجاه كل جزء على حدة • والواقع ان فاحص الأمر يجد بكل وضوح أنه أمام مناقشات وضعت لكى تثير خيال الحكام أكثر منها آراء مستندة على مبادىء هدفها استقصاء الحقائق التى هى فى طبيعتها سهلة وواضحة المعالم • وعلى ما يظهر أن الذين مروا بدراسات قانونية يفضلون فى اتجاههم دور المحامى على دور البحاثة • وللاسف ان مثل هذا الاتجاه يفقدنا البحث عن الحقيقة العلمية •

ولما كان من المستحيل استعراض جميع الآراء المتباينة ، فاننا سنقتصر على القسم الذى يحتل المكان العلوى من الاهمية بينها •

(٢)

٣ – ان الذين ينكرون القانون الدولى العام من الكتاب ، أو بصورة أدق ما يدعى بصورة عامة الصفة الالزامية فيه ، هم فى الواقع قليلون • ويأتى على رأس هذه الفئة الفليسوف الالمانى هيگل (Hegel) • ولكن جذور هذا الموقف تعود الى زمن أبعد بكثير • وعلى ما يبدو أن ذلك نشأ فى القرن السادس عشر بظهور معالم القوة والاستقلال والسيادة والتوسع فى الدولة الحديثة • ويعد ماكيفلى (Machiavelli) من الاوائل الذين كونوا هذه الفكرة •

وبالطبع فان نظريته لم تكن لتحوى النواحى التعليلية التى احتوتها الافكار التى جاء بها كانت (Kant) أو هيگل (Hegel) والتى لابد أن نقول عنها أنها جاءت لتعكس الزمن الذى عاشت فيه • فمما لا يخفى ان السلطة الروحية للدول المسيحية فى القرون الوسطى كانت قد استبدلت بعد الحوادث السياسية ، بسلطة زمنية تخص كل دولة على حدة • وبهذا أصبحت الدولة تفخر بنفسها وتحدد أعمالها بمصالحها المطلقة وتضعها أمام كل مصلحة أخرى • وهذه المصلحة المطلقة التى ظهر اسم ماكيفلى مرادفا لها ؛ تقدر قانونا واحدا للدولة ، وهو القانون الذى يسمح بالحكم المطلق على أبعد حدود المتطرفة • ولكن مصلحة الفرد المطلقة تقف ضد نفس مصالح الافراد الآخرين المطلقة ؛ والتى هى فى نفس الوقت ضد ضمانات القانون بوجه عام والقانون الدولى نفسه [1] •

فبالنسبة لهيگل ، فان الدولة هى مصطلح دايلكتيكى متطور من ناحيته الاجتماعية • وهى أعلى درجة للتفكير الموضوعى • فعن طريق الدولة يستطيع الفرد أن يجد حريته الكاملة والتعبير عما يدور فى خلده • وفوق الدولة درجة هو الحاكم المطلق • والدول بناء على ذلك متساوية ولا يمكن لها أن تخضع لسلطة انسانية ؛ وبذا فلا وجود للقانون الدولى • [2] ثم ان الخلافات التى تنشأ بين الدول تحسم عن طريق قاعدة طبيعية هى الحرب •

---

(١) انظر فيما يخص نظرية ماكيفلى :

Charles De Visscher, theories et réalilés en Droit international Public, paris 1953, (ص ١٩)

Louis Le Fur, Règles génerales droit de la paix, Recueil des Cours de l' A.D.I. de La Hayc, 1953, t. 54 (ص ١٩) ؛

(٢) لقد توصل بعض الكتاب الى القول بان وجود المساواة بين الدول معناه وجود للقانون الدولى : لانه بسبب هذه المساواة يجب على الدول احترام بعضها البعض الآخر ، ومثل هذا الارتباط المتقابل ما هو الا ارتباط ملزم • انظر :

G. Gidel, Droit et devoirs de Nations, Recueil des Cours de I, A.D.I. de la Haye, 1925 t. 10 (ص ٥٩٣) •

ولكن اذا ما سألنا ما هو وكيف يكون الجواب ، ان الحرب ليس بالحل العادل ولا بغير العادل ، كما أنه لس بالشرعي ولا بغير الشرعي .[٣]

ويشترك كل من هوبز (Hobbes) وسپينوزا (Spinoza) وكانت (Kant) في وجهة نظر مشابهة لما تقدم . فيقول هوبز فى هذا الصدد ان الدول مسقلة بعضها عن بعض . وبناء على ذلك فان نوع العلاقات بين الدول مرهون بعامل القوة . وعلى هذا الاساس فلا يمكن أن يوجد ما يسمى بالقانون الدولى .[٤] وعلى حد اعتقاد سپينوزا فان الافراد ينظمون أنفسهم على هيئة مجتمع بدافع ضعفهم ونتيجة تفكيرهم . ثم ان الدول ، من الوجهة الاخرى ، لا ترى حاجة الى رص أنفسها بصورة مجتمعة . لان لها من القوة ما يصد أى نوع من الاخطار ، وانها على النقيض من الافراد ، لا تدفع بعامل الخوف . وفى حالتها الطبيعية[٥] فانها تحتاج أن تأخذ بنظر الاعتبار مصالحها الانانية فقط : اذ ان القانون الوحيد الذى يحكمها هو قانون الامن العام .[٦] أما كانت (Kant) فانه يميز بين السلوك والقانون وبين النواحي الشرعية والنواحي الاخلاقية . فالقانون بنظره قاعدة للسلوك مشفوعة بضمان . واذ أنه لم يتحسس أى ضمان شرعى اعتيادى فى قاعدة من قواعد القانون الدولى ، الا أنه لمّح بأن القانون الدولى ليس بقانون ،

---

(٣) انظر فيما يخص Hegel
George Delvechio, Philosophie du droit, Paris, 1955
(ص ص ١٣٢ – ١٣٦)
انظر كذلك : Paul Roubier, Theorie génerale du droit, paris, 1956
(ص ٥١ وما بعدها) .

(٤) انظر
Hobbes, Leviathan, chap. XII, in Fine - Re. this see Charles De Visscher, مصدر سبق ذكره (ص ٢٧) .

(٥) علينا ان نكون دقيقين الا تخلط بين الحالة الطبقية وبين القانون الطبيعى كالخلط الذى وقع فيه بعض المفسرين لآراء هوبز . انظر مثلا :
Roberto Ago, scienza e Diritto inlernational, Milano, 1950, (ص ١٤) .

(٦) انظر
Spinoza, Tractatus ideologico - politicus Re this see charles de Visscher
مصدر سبق ذكره (ص ٢٨) .

وأنه في أعلى مراحله يمكن أن يكون فقط كعلم للسلوك الخلقي [٧] •

وهكـذا نرى أن حقيقـة القانون الدولى قـد أنكرها الـكتاب لوجود ما أسموه بمبدأ سيادة الدولة • لان هذا المبدأ اذا ما نظر اليـه من ناحيته المطلقة ، فانه يبعد من حيز الوجود كل احتمال بوجود قانون آخر بجانب القانون الداخلي •

وعلى غرار هذا المبدأ نرى الماركسيين ينكرون وجود القانون الدولى العام • ويجب ألا يخفىعن البال ، أن الماركسيين تلاميذ هيگل بصورة غير مباشرة الذى كان فى وقت من الاوقات ، استاذ كارل ماركس • وتبـدو الحقيقة غريبة ، على أية حال ، حين يجد المرء ، من جهة ، ان هذا المبـدأ يعود بتاريخه الى القرن السادس عشر وهو التاريخ الذى يبـدأ به نشـوء الدول المستقلة القوية ، ومن الجهة الاخرى ، فانالسلوك الماركسى السلبى، لا يدين ضعف الدولة المستمر فحسب وانما تلاشيها نهائيا •وهذا يرينا بأن من المحتمل التوصل الى خلاصة متناظرة على الرغم من أن احداها قد أتت بعد أربعمائة سنة من تاريخ الاولى بطراز تفكير مختلف • لانه يجوز ان نصل الى تعادل فى المصالح بطريقتين مختلفتين للمحاججة حين تكون كلا الغايتين متعادلتين ذاتيا أيضا •وعلىهذا يصبحموضوع العقيدة أمرا ذا تقدير ثانوى محض •

فبالنسبة للماركسيين ، يوجد القانون فى الدولة فى حالة اندماجـه الكلى معها فقط • وبهذا الفحوى ، يصبح القانون واسطة تستخدم من قبل الطبقة المستغلة للتضييق على الطبقـة المُستغَلَة فى مجتمع رأسمالى ، أو لتستغل الطبقة المحـكومة • والقانون و (الدولة) ، كونه ناتج من وسيلة معينة للانتـاج المتضـمن لناحية معينة من العمل الاجتماعى ، يبقى قائما مـا دامت تلك الوسـيلة للانتـاج قائمـة ويظـل يمتـلك خصـائص نفس الطبقـة المـارة الذكـر • وحـين يصبح القـانون معربا عن رغبات جميـع أفراد المجتمع ، يبطل عمله كقانون : اذ أن الوقت المناسب

---

(٧) انظر فيما يخص كانت : Louis Le Fur.
مصدر سبق ذكره (ص ٢١) •

سيأتى حينما تظهر وسائل جديدة للانتاج الاشتراكى تستطيع فيه ازالة جميع الطبقات الاخرى والقضاء على استغلال الطبقة الواحدة للاخرى .

فالمجتمع العالمى ليس بدولة : وانما يحتوى على عدد من الدول المستقلة.وهو لايستطيع أن يصنع القانون : اذ كما رأينا أن القانون من صنع الدولة وحدها.ذلك لان المجتمع العالمى ليس بدولة لان الدول المكونة ليست فيما يتعلق بعلاقة بعضها ببعض ، طبقات اجتماعية ولا تستغل احدها الاخرى اقتصاديا عن طريق أية وسيلة عامة للانتاج . ويصح هذا بقدر ما تكون كل دولة منها مستقلة وذات سيادة . فحينما تفقد الدولة سيادتها وتنتقل تلك السيادة الى دولة أو دول أخرى ، فسوف تظهر دولة أخرى ذات سيادة وحسب . وبنفس الطريقة ، اذا ما فقدت جميع الدول المكونة للمجتمع العالمى سيادتها ، فسيكون بمكانها دولة واحدة ، وعلى ما يظهر دولة ذات سيادة منذ أن تصبح الوحيدة ، وكما هو فى السابق، فانه بدلا من أن يوجد عدد من القوانين الداخلية فسيكون قانون واحد ، ولكن لن يكون هناك قانون دولى لانه فى مثل هذه الحالة لن يكون له مكان لانه لا يوجد سوى دولة واحدة فى هذا المجتمع العالمى . وأخيرا ، فانه فى اليوم الذى تزول فيه الدولة من عالم الوجود بحسب نظرية الانحلال التدريجى للدولة، فسوف يكون مجال ظهور القانون الدولى ضرب من المستحيل ، ولن يكون هناك أى قانون آخر مهما كان نوعه . ثم تنعدم الطبقات وينعدم معها استغلال الانسان للانسان ، فلا قانون هناك عندما يكون مجرد آلة لسيطرة طبقة معينة . (٨)

---

(٨) انظر فيما يخص النظريات القانونية الماركسية :
Hans Kelsen: The Communist Theory of Law, London, 1955.
انظر كذلك :
Ivo Lepenna, Les theories Soviétiques de droit international, paris, 1954.
يعترف الجزء الكبير من مبدأ الـ .U.S.S.R احتمال وجود القانون الدولى ، ولكن على اساس اشتراطى مستقل كونه واسطة ضرورية للتعايش السلمى بين الدول الرأسمالية والدول البروليتارية . وهذه الخاصّية التى ميز بها القانون الدولى ليست بذات اهمية . وبصدد الموقف الذى يتخذه المبدأ بوجه عام ، انظر .Hans Kelsen مصدر سبق ذكره (ص ١٤٨) .

ان اشتراط صفة الالزام فى القانون الدولى يمكن أن يكون منطقيا لو كان بامكان الفرد الاخذ بمبدأ سيادة الدولة كونه مبدأ صلب • والحقيقة فى هذه الحالة أن القانون الداخلى يستمد ضمانه من الدولة التى تتمتع بالسيادة • وبما أن جميع الدول تؤلف المجتمع العالمى (وهو مجتمع فعلى (de facto) وليس بمجتمع قانونى (de jure)) هى دول مستقلة ذات سيادة ، فان وجود القانون الدولى أمر مستحيل ، لان وجود سلطتين اجتماعيتين أحدهما سلطة وطنية والاخرى سلطة عالمية ، شىء مخالف ، كما لو كان كلاهما وطنيين ، طاردا أحدهما الآخر بنفس المبدأ الذى يوجدان بموجبه • كيف وبأى مبدأ يستطيع المرء أن يطبق ضمانا لقاعدة دولية عامة كالتى جاء ذكرها فى المادة(٢٦) من ميثاق عصبة الامم فى حالة رفض الدولة التى يرجى منها تطبيق تلك القاعدة الدولية ، ويساعدها فى رفضها المبدأ الشرعى ، وهو مبدأ سيادتها ، والنقد الذى يمكن توجيهه لمثل هذا الموقف ؟ نقول انه اذا نجحت احدى الدول فى مخالفة هذه القاعدة ، وهذا أمر محتمل الوقوع بتطبيق جزاء ضد دولة أخرى ، فان مركز الاخيرة كدولة يزول ، ونتيجة لذلك فان حكم القانون الدولى المرجو اثباته ، سوف يفقد خاصيته الدولية : وسيصبح فى حكم قانون داخلى لدولة أو لدول ترغم المقصر الرضوخ لحكمها • وبهذه النتيجة فلا يوجد أى أثر للقانون الدولى • والاشياء التى تبقى فعلا هى بعض قواعد العلاقات الدولية الخاصة أو قواعد التعايش السلمى بين الدول والتى تستند فى أساسها على السيادة لكل منها والتى يمكن الغاؤها من قبلها متى شاءت هذه الدول •

(٣)

٤ ـ والكتاب الذين يقرون حقيقة حكم القانون الدولى هم اكثر عددا • ويحمل هؤلاء الكتاب نظريات مختلفة تكوّن بمجموعها العام مادة بحث المبدأ التاريخى لهذا الجزء من القانون ان لم تكن مادة للنظرية القانونية العامة • وهذه النظريات تشكل فى الغالب مدارس فكرية عاشت الاجيال الطويلة بسبب ما احتوت عليه من افكار غنية •

واقدم هذه المدارس الفكرية التى ظلت تتمتع بتأييد المناصرين بصورة مستمرةهى مدرسةالقانون الطبيعى•ويبدأ تاريخهاـالجزء الذى يمس القانون الدولى ــ منذ نهاية القرون الوسطى ، اى منذ ظهور اللاهوتيين الاسبان مثل فيتوريا (Vitoria) وسوريز (Suraze) • ولـكن افكار هذه المدرسة حظيت بالتعديل وبصورة خاصةمن قبلهوجو كروشيوس (Hugo Grotius) الفقيه الهولندى الذى يعتبر خطأ المؤسس لهذه المدرسة وللقانون الدولى[٩] •

ولقد هاجمت مدرسة القانون الطبيعىمنذ نشوئها الاول نظرية السيادة المطلقة للدولة • فهى تقول : وان كانت الدولة صاحبة سيادة (وهو كذلك اذ بدونها لا تستطيع ان تكون دولة) فانها ليست بصاحبة القـوة المطلقة • اذ ان القوة غير المحدودة تؤدى الى اساءة استعمالها : وفى اية حال فهى لا تمنح تلك لتحفز الاخرين على الطاعة • ومثل هذه القوة لا يمكن ان توجد اذا لم تستند على رضاء الشعب وتحقق الرفاهية العامةوهى الامور الضرورية التى تضع الاسس والحدود لقوة الدولة • وعلى هـــذا الاســـاس يقول فرانسسكودى فيتوريا (Francesco de Vitoria) ان سيادة الدولة لا قوة لها حين تتخطى حدود المجتمع الدولى • وهذا يثير مشكلة عالمية فى القانون الدولى ، لان العالم لم يعد يضم العالم المسيحى كما كان الحال فى السابق وانما الانسانية جمعاء • ولـكنه يذهب الى ابعد من ذلك ، فيفرق بين القانون الدولى الطبيعى وبين قانون الشعوب (Jus Gentium) او القانون الدولى الخاص الذى يستند على قبول اغلبية الجنس البشرى • وهذا التمييز بقى حتى اليوم سائدا كخاصية اساسية لهذه المدرسة الفكرية •[١٠] اما سوريز (Surez) فانه يقبل الوحدة السياسية للدولة على ضوء مبـــدأ السيادة ولـكنه يحاول ايضا ان يوصله بوحدة الجنس البشرى اجمع • وهذه هى

---

(٩) انظر فى هذا الصدد : Louis Le Fur. (ص ١٥) •

(١٠) انظر
Franceso de Vitoria, Relectiones de Indis et de Jure belli, Ed. Carnegie, 1952.

النقطة بالذات التى تجعله يميز بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى • لان القانون الدولى الوضعى يفرض على الدول بسبب نفعه العام وهو يشتق اصله من مواقفهم جميعا • اما القانون الطبيعى فانه يفرض نفسه بسبب أن مصدره يستند على وحدة الانسانية كلها • فالقانون الطبيعى الذى هو الوجه الايجابى لقانون الشعوب هو قانون ذو غاية موضوعية لا تتغير لانه يتطابق مع تعليل لا يقبل التبديل • ولـكن يجوز تطور القانون الدولى ، فيصبح قانونا وضعيا مستمدا من الضرورة ، وبهـذه الوســيلة يســتطيع ان يفى بالحاجة[11] •

يشعر المرء بعد هذا ان كلا من هذين الكاتبين يسعى الى ايجاد توافق بين مبدأ سيادة الدولة الذى يوجد لاغراض تتصل بالمصالح الفردية للدولة والمعترف بها فى القانون الدولى الخاص وبين الحاجة الناجمة من تحديد التوسع الذى تسعى اليه كل دولة تلبيــة لمصالحها الانانيــة ، والى فرض احترام للقرارات التى تتفق عليها هذه الدول على اساس تبادل المنفعة والعرف والعادة ، لغاية عامة هى حفظ الجنس البشرى الذى هو الاساس الصحيح لـكل قانون وعلى الاخص القانون الدولى •

عـلى ان الباحث يرى فى اراء كروشيوس انه اكثر ميلا فى تفضيله فكرة انتشار نور العدالة الذى يبرهن عليه بطرق تعليلية تستند على القانون الطبيعى من فكرة المنفعة العامة المبنية على القانون الوضعى • لان الاخير ما هو الا مادة للقانون الطبيعى يأتى على ذكرها ليؤكد عليها وليكون ضمانا لها • ولـكن حقيقة القانون الطبيعى كما وردت اعلاه تنكر قبل كل شيء وجود القانون الوضعى • فكيف يمكن تصحيح هذا الانكار ؟ ويتم ذلك بالرجوع الى التعليل والتحسس بوجود الدولة والاراء التى تساندها المبادىء • ولكن

---

(١١) انظر Francesco Surez, Tructatus de legibus, (الفصل التاسع عشر) •
انظر كذلك c. Barcia Trelles, Francesco Surez, Recueil de cours de I.' A.D.I. de la Haye, 1932 (المجلد ٤٣) •

هذا يرينا بكل وضوح استعداد القانون الطبيعي للتغلغل[١٢] .

ولقد وجدت هذه المدرسة الفكرية منذ ذلك الحين مناصرين لها في جميع الاقطار وفي جميع الاوقات . واستطاعت بفضل عمرها الطويل ان تغير اتجاهاتها السياسية بصورة كلية عن الاتجاهات التي دعت بها في الأصل. فقد كانت ايام كروشيوس تحارب سياسة الأمراء المطلقين والتي اعتبرت من جراء موقفها بانها مبدءا تقدميا ، فانها اليوم تسعى ضد التقدميـــة الزائدة والحركة ، تحت شعار الاستقرار والامان . على اننا اذا ما اخذنا باي من الحالتين فاننا نجد هذه المدرسة تسعى الى ارغام الدولة ، على الصعيد الداخلي، الى اخضاع نفسها للقانون الوضعي الذي ينظـم حياة مواطنيها . اما عـلى الصعيد الخارجي فلا يقتصر الامر على الاخذ بتعاليمه فحسب وانما الاخذ بالعادة والعرف الدولي ايضا . انها تفرض هذا الواجب على الدولة باسم هذا النوع من التعليل الذي ينتهي ان عاجلا او آجلا الى مقاومة كل من يعـــاديه .

وعليه ، فان هذه المدرسة الفكرية ، كما يبدو ، تستند على مبدأ خلقي وروحي لاتخاذه واسطة له من القوة والقسوة ما يمكنه من فرض حـدود تعليلية لاعمال الدولة .

والجدير بالذكر ان دور هذه المدرسة يختلف في حاله علاقة بالقانون الداخلي عنه في القانون الدولي . ففي الحالة الاولى ، فان هذا الدور يدور حول جعل القانون الوضعي قانونا موضوعيا ؛ اما في حالة القانون الدولي فانها تفترض وجوده حتى اذا ما اختلف مـع اى فـكرة للقـانون الطبيعي صدفة . وهنا يمكن القول ان مثل هذا القانون الوضعي لا يمكن ان يكون دائميا ــ اذ أنه سيمر بتجربة مقاومته من الأفراد الذين يعملون على هدمه

---

(١٢) انظر :

Louis Le Fur, La théorie du droit naturel depuis le XVII Siécle et la doctrine moderne, Recueil des cours de I.' D.A.I. de La Haye, 1927, t. 18, (ص ٢٦٥ ــ ٣٩٩) .

ان عاجلا او آجلا • ويترتب على وجوده الفعلى ، مدى تطابقه مع القانون الطبيعى • هذا هو الحال ، ولكن ماذا يحدث لو كان هذا القانون موجودا فعلا ؟ لا يمكن الادعاء بصورة جازمة انه ليس بقانون وتسميته بالقوة مثلا • اذ أن جميع احكام القانون المشرعة فى قطر يسير على النظام الدكتاتورى تصبح حينئذ غير ذات أثر او قيمة او بعبارة اوضح ملغية حين يقضى على ذلك النظام • وعلى ما يظهر فان هذه القوانين لا يمكن ان تلغى جميعها فجأة • وعلى كل حال فان دور مدرسة القانون الطبيعى فى نطاق القانون الدولى ذو نطاق اوسع من غيره •ومهما كانت نوعيةاحكام القانون الوضعى ودرجة تطابقها مع العدالة والتعليل فانها لا تزال تحتاج الى قوة الزامية واخرى تشريعية • وسنرجع الى توضيح هذه النقطة فيما بعد •

(٤)

٥ ـ لم تكن نظرية السيادة المطلقة للدولة ، التى تنكر وجود أى احتمال للقانون الدولى ، ولا نظرية القانون الطبيعى التى لم تقبل احتمال وجود القانون الدولى فحسب وانما سعيها الحثيث لاثبات وجوده فعليا ، بامكانهما ، على الرغم من انهما اقدم النظريات وارسخها قدما ، من اثبات وجودهما فى موضوع دراسة كل منهما • وأن اول هاتين النظريتين ابدتا معارضتهما للقانون الدولىلا لانه غير موجود ، كما تدعيان ، وانما لانهيرى ان السيادة المطلقة التى تخدم كنقد ضد نظرية القانون والدولة لا تتفق والحقيقة•وسنرى فيما بعد ان القانون الدولى هو حقيقةواقعة ، اذ أنهيمتلك لعنصرين يحتويها اى حكم قانونى ، الا وهما القاعدة القانونية والضمان ، وعلى الرغم من هذه ، فانه ليس بجزء يحتلمرتبة علوية ودائمية فى الدولة، ويعود الى حكومة معينة ، وله قوة ملزمة وجيش وشرطة كما هو الحال فى الدولة القومية•واذا كانصحيح ان وجود مثل هذا القانون لاينسجم ومبدأ سيادة الدولة (وهو كذلك) ، فانه من المفضل ، من الوجهة العلمية ، تعديل مثل هذا المبدأ بدلا من انكار الحقيقة • كما سنرى ايضا ان مبدأ السيادة

النسبي او على الاقل اللا عالمي بامكانه ان ينسجم بنفس الطريقة التي ينسجم بها مع المبدأ القانوني بصورة عامة والقانون الداخلي بصورة خاصة •

وما هو صحيح بالنسبة لنظرية السيادة المطلقة للدولة هو كذلك ايضا بالنسبة للمبدأ الماركسي القانوني للدولة الذي ، على الرغم من انه لا يأخذ بنفس الاتجاه ، لكنه يصل الى نفس النتائج • واذا كان ادعاؤه بحرب الطبقات يمنعه من الاعتراف بالقانون الدولي في الوقت الذي لا يوجد مثل هذا الحرب ، وان القانون الدولي بذاته هو حقيقة ، فان على مثل هذا المبدأ تعديل أسسه ومواقفه بدلا من رفضه الدليل الواقعي •

اما بالنسبة لنظرية القانون الطبيعي ، فانها النظرية الاولى بحق التي احتجت على الصفة المطلقة لنظرية سيادة الدولة ، والتي قبلت باحتمال وجود القانون الدولي • ولكن مهمتها ذهبت الى ابعد من ذلك : حيث تضمنت ـ ليس مجرد قبول الوجود المنطقي للقانون الدولي ـ ولكن الاكثر من هذا فانها برهنت على حقيقة وجود هذا القانون • فهل حققت اية نتيجة ؟ والجواب •• لا •• لانها توصلت بالنتيجة الى افتراض قاعدة لهذا القانون بدلا من البرهان على وجوده • فلقد سعت الى التساؤل عن وجود احكام القانون الدولي او لماذا يجب ان توجد في الوقت الذي هي ليست موجودة فعلا • وبعبارة اخرى ، فانها بدلا من البرهنة على حقيقته ، تفترض ان تلك الحقيقة او تلك الحاجة مبرهن عليها مقدما ، كونها متفق عليها بداهة ؟ مكتفية بوصف الاسباب التي هي بنظر مؤيديها البرهان لارغام الدول على الاخذ به • وبناء على ذلك فانها تضع امامها نفس المهمة التي تضعها النظريات السياسية والقانونية ذات العلاقة بحكم القانون الداخلي الذي هو جزء منه والذي يعتمد عليه هذا الحكم لاثبات وجوده • لماذا تسير بهذه الطريق ؟ انها بنظرنا ترى في احكام القانون الدولي ، كما هو الحال في الواقع مع حكم اي قانون ، ناحيته القواعدية ، ومؤهلاته كحكم تطبيقي ، وناحيته الامرية فقط من دون أي ضمان مادي ذلك هو السلطة الاجتماعية المستقلة المتميزة بقوتها الالزامية او استعادة سطوتها حين مخالفة احكامها • اذ على هذه السلطة

يعتمد وجود احكامها القضائية الكلية التي نحن بصددها،وبمسلكها المتردد هذا يستطيع المرء ان يقول ـ خاصة اذا كان من نوع متهكم ـ انه بالرغم من جميع محاولاتها للبرهنة على العكس ، فان مدرسة القانون الطبيعي تنكر بصورة غير مباشرة وصريحة ، حقيقة وجود القانون الدولي بالذات •

٦ ـ وردا على هاتين النظريتين القديمتين اللتين لم تثبتا القدرة في مواقفهما ، فقد جرت محاولة بناء نظرية اخرى هدفت بالاساس الى تأييد احكام القانون الدولي • والواقع ، وبناء على قبولها مبدأ سيادة الدولة المطلقة ، فقد بات من الصعب عليها التأكيد على اية ناحية اخرى ، تزيل من الصعوبات التي تقف امام القانون الدولي • ولكنها مع كل هذا فقد التفتت بصورة تساؤلية (فضولية) الى ناحية ارادت منها ايجاد وفاق بين نظريتها السلبية وبين حقيقة القانون الدولي • وهذه هي نظرية التحديد الذاتي (Self - limitation) لسلطة الدولة التي اوجدها الفقيهان الالمانيان ايرينك (Ihering) وجيلنك (Jellinek) •

فيرى ايرينك ان ارادة الدولة وحدها تخلق القانون • وليس معنى هذا ـ في كل الظروف ـ ان الافراد يخضعون كما توجههم اليه اطماع الحاكمين فقط او انهم معدومون من اية قدرة • فالقانون هو « سياسة القوة » او هو ما يمنحه القوي • ذلك ان السلطان الجبار يتنازل عن بعض ميزاته لان ذلك في مصلحته ، ولان هذا التنازل يدعم قوته • وعلى هذا الاساس فان الحكام يحدون من قوتهم • وهذا يقودنا الى القول ان الدولة المالكة لقوة وضع القانون ، تملك قوة تحديدها ايضا • فالدولة تسعى لصالحها في قبول بعض القواعد الخاصة في علاقاتها مع القوى القانونية الاخرى • وبمجرد قبولها لهذه القواعد ، فهي تشعر بواجب الوفاء لها محافظة منها على كلمتها • وهذا ما يرينا بالضبط ان الاحكام في هذه الطبيعة تحدد علاقات الدولة مع غيرها من الدول • ولهذا فهي تفرض تحديدها لسلطانها الخاص بها • ولكن كيف يحدث ذلك ؟ فالقوة لا يمكن ان تحدد نفسها

بنفسها • فاذا كانت هى التى تكون قيودها وحدها فهلا تستطيع ان تحرر نفسها من تلك القيود ؟ يجيب على ذلك ايرينك بلا ، لان الدولة لا تستطيع ان تتحدر عن القيود التى قبلتها بنفسها • ولماذا يكون هذا الامر مستحيلا ؟ ولا يمكن ان يكون ذلك مستحيلا كما يبدو من كلا ناحيتى الامر الواقع والناحية القضائية منذ ان الدولة فى الحقيقة والواقع تتسلل من احكام القانون عندما ترغب الى ذلك وعندما لا يوجد فى القانون اى مبدأ أعلى ، ولا حكم مقصود بالذات ، على الاقل بالنسبة لهذه النظرية ، لارغام الدولة للاخذ بالاحكام الخاصة • ويرد (ايرينك) على هذا الاعتراض بقوله ان كل دولة ملزمة بالدخول فى علاقات مع غيرها من الدول وان سيادتها بهذه الوسيلة تختفى ؟ اذ أنها نتيجة ذلك تقبل احكاما نشأت من طبيعة العلاقات الدولية • وبذلك تصبح اهدافها مقترنة بهذه الاحكام التى تصبح قانونا وتلزمها بحيث يكون من الصعب عليها حينئذ التسلل منها • ولا يوجد فى القانون الداخلى شك من ان الدولة تملك السيادة ، ومع هذا فهناك قوانين يجب على الدولة مراعاتها ، من حيث المبدأ ، فلماذا لا يمكن ان يحدث نفس الموقف فى القانون الدولى ؟

وخوفا من الانتقاد اللاذع لنظريته ، فان ايرينك يتقبل هذا الاعتراض بصورة غير مباشرة ، حيث يذهب الى ناحية غير التى بدأ بها ، ثم يتركها كما لو كانت الاساس بالذات الذى يبنى عليها نظريته[١٣] •

ولقد تطورت وجهة النظر هذه على يد جيلنك • فهو يرى ايضا ان ارادة الدولة هى المصدر الوحيد للقانون • فكما ان هناك حدودا طبيعية بين القانون الوضعى والقانون الدولى (المبدأ الفردى فى القانون) فان هناك دوما ارادة الدولة التى تؤمن على الالتزام بالمعاهدات • لذا يجد القانون الدولى مصدره فى القانون الوضعى ، والذى يعني « امتداد قانون الدولة الى

---

(١٣) انظر

Rudolf Ihering, L'évolution du droit (Zweck im Recht) French Translation, esp. pp. 163 s.

الخارج » ، وهو بذلك قانون عام خارجي • وبالنسبة للرأى القائل بان ارادة الدولة تفرض التقييد على نفسها تمكنها من الخروج عنه فيجيب جيلنك عليه بالنفي • فهو يؤكد ، كأيرينك ، ان الدولة في حدود القانون الداخلي كما هو الحال في حدود القانون الدولي تلزم نفسها بدافع ارادتها الذاتية • فهلا على ضوء هذا التحديد الحاضر ، تكون هذه حدودا قضائية بحد ذاتها ؟ ربما يترتب عليها ان تضع حدودا قضائية لاعمالها ، او ربما توجه ارادتها الى اهداف معينة • فمنذ اللحظة الاولى التي تدخل فيها في علاقات مع دول اخرى ، فانها تفقد حريتها الكاملة : اذ أنها تكون ملزمة لقبول بعض الاحكام الناشئة منطقيا من طبيعة علاقاتها العالمية ، وكما هي تخضع للتعليلات المختلفة والمصالح وطوارىء العلاقات والى ما يسمى بالضرورات الواجب تحقيقها • ومنذ أن تقبل هذه الاحكام كمبادىء لسلوكها مع غيرها من الدول ، فعليها الخضوع لهذه الاحكام لانها دولة قضائية • ويلخص جلينك ، كزميله ايرينك ، بناء على ذلك ، قوله ان الدولة ملزمة بسلوك طريقة معينة منذ قبولها أحكام معينة في علاقاتها مع الدول الاخرى •[١٤] ولكن وجهة النظر هذه ، كما هو الحال في وجهة نظر ايرينك ، تنبعث من شيء آخر غير ارادة الدولة في سيادتها التي تجعلها تقبل الالتزام •[١٥]

٧ ــ ان الفشل الواضح لنظرية التحديد الذاتي للدولة (التي اعترف بها المدافعون عنها جزئيا) قد مهد السبيل لظهور مبدأ آخر ، الماني

---

(١٤) انظر

George Jellinck, L' Etat moderne et son droit: Introduction à l'étude du droit, trad - Française G. Fardis.

(١٥) فيما يتعلق بهذه النظرية ، انظر Louis Le Fur
مصدر سبق ذكره (ص ٢٢ ــ ٢٥)
انظر كذلك :
Georges scelles, précis de Droit de gens, I, paris, 1932, pp. 35 to 37
كذلك : Charles De Visscher,
مصدر سبق ذكره (ص ص ٤٦ ــ ٥٠)

المنشأ ، يرى أن قوة القانون الدولى لا تتصل بارادة كل دولة ، ولكن بمجموع ارادة دولتين أو أكثر • وتستمد هذه النظرية جذورها أيضا من المبدأ الذى يقول ان مصدر القانون هو الارادة المنبعثة من سيادة الدولة • وان هذه النظرية ترى هذه الارادة لايمكن مصدرا للقانون الدولى والقانون الداخلى فى وقت واحد ، وهى تؤكد وجود صفة ثنائية فى القانونين المذكورين الامر الذى لايتيح معاملتها بنفس الطريقة • لان القانون الداخلى هو القانون الخاضع : أى أن ارادة الدولة العليا توجه ارادة الفرد الخاضعة لها • ومن الجهة الاخرى فان القانون الدولى هو قانون التناسق • فموضوعه الدول والتى تكون متساوية • ثم ان القانون الداخلى يحكم فى العلاقات بين الافراد ، بينما يعترف القانون الدولى بالدول فقط بكونها مادته • وعليه فانه من الواجب علينا أن نجد أساسا آخر للقانون الدولى غير الاساس الذى الذى يستند عليه القانون الداخلى •

ولكى تبقى أمينة للمبدأ « الاختيارى » فان هذه النظرية تفترض وجود ارادة عامة لعدة دول (Gemeinuille) ! وهذه الارادة ليست دخيلة على ارادة كل دولة بسبب أنها جزء منها ولكنها ارادة من نوع مختلف بسبب أنها لا تكون بصورة فردية خاصة • هذا وأن الوحدة المتكونة من الارادة العامة هذه ليست بعقد ، وانما هى عمل اجماعى (Vereinbarung) ذلك أن العقد يبرم حين وجود ارادتين مضادتين وهدفين مختلفين ؛ وان وحدتها تتم بفضل موضوعية القانون فقط اللذين يكونان مادته • أما فى العمل الموحد فهناك تفسير مختلف للمصالح وهدف عام واحد • وهذا هو الاختلاف الكبير بين عقود المعاهدات والعقود القانونية المعروفة لدى فقهاء القانون الدولى المشهورين • ولكننا حين نتوغل فى النظرية عميقا فان من الصعب ان نرى كيف انها تأتى باراء معدلة لكل من ايرينك وجيلنك : وانه من الصعب ان نرى لماذا ان الدولة لا تستطيع الانسحاب ، حين ترغب فى الانسحاب ، من اتحاد للارادات او تعاقدا قانونيا كمثل ميثاق الامم المتحدة • وهناك اعتراض آخر على هذه النظرية ـ وهذا يخص بثنائيتها •

ولكننا سوف نرجع الى هذه النقطة متأخرا[١٦] •

٨ ـ وعند تقدير هذه المبادىء الذاتية نجد انها تحاول التأكيد على وجود القانون الدولى ، فى الوقت الذى تنكر الاسس الحقيقية للقانون الدولى لما يترتب على الاسلوب الذى تبنت فيه حججها بالذات • فيجب علينا ان نتطرق الى مبدأ يثبت بصورة عملية تطبيقية حقيقة هذا القانون بطريقة تعليلية ملزمة، تقدم كفكرة منتجة • وهذا المبدأ هو المبدأ القياسى (Normativist) ويطلق عليه احيانا بمدرسة فينا (Vienna School) ، الذى يقوده الفقيه النمساوى المشهور هانز كلسن (Hans Kelsen)

وقد كان كلسن فى السابق عضوا ينتمى للمدرسة الذاتية ، وأقصد أنه ربط القانون بارادة الدولة واعترف بالقانون الداخلى فقط : وكون القانون الدولى هو خارج حدود الدولة فانه لم يكن له وجود بنظره او أنه يمكن ان يوجد بقدر ما تعترف به كل دولة كونها عضوة فى المجتمع العالمى • ولكن كلسن نبذ هذه الفكرة بعد ذلك بغية ايجاد الانسجام مع تيار الافكار القانونية الجديدة • وكان قد توصل الى مذهبه الفردى (Monist System) ، الموروث من مبدأ التحديد الذاتى للدولة الذى شعر بانها النتيجة المنطقية لتسلسل الحوادث ، ولكنه بدلا من ان يختار المذهب الفردى للقانون الداخلى ، فقد رضى بالمبدأ الفردى للقانون الخارجى ، وفيه

---

(١٦) ان موجد هذه النظرية هو (Héinrich Triepel) انظر كتابه :

Rapport entre le droit interne et le droit infernational, Recueil de cours de I' A.D.I. de la Haye, t. I.

انظر كذلك : Dionisio Anzilotti' Cours de droit inlernational
الترجمة الفرنسية من قبل Gilbert Gidel ، باريس ، ١٩٢٩ •

ان هذا الكاتب يؤكد على المبدأ الثنائى فى القانون ، ولكن ذلك يتم بصورة تختلف عن النظريات « الذاتية » • انظر فيما يخص هذا :

George scelle, op. cit. pp. 37 to 40.

يفضل حكم القانون الدولي على حكم القانون الداخلي[١٧] • فهنا يتفوق القانون الدولي ، الذي يحتضن ويشرف على القانون الداخلي ، ولو كان الامر معكوسا ، فانه من المستحيل تفسير وجه الالزام المطلق على الدولة في الاخذ باحكام معاهدة دولية او تثبيت هوية الدولة عمليا اثناء الثورات الاجتماعية المختلفة التي يعكسها هذا القانون : وهذا الاثبات للهوية يحتاج الى حكم ذي مستوى أعلى يسمح بمثل هذا الاستنتاج المنطقي • وهنا يظهر بالذات المذهب المشهور من ناحيته الشرعية والهرمية (الحكم الاقل اهمية يصدر غالبا من الحكم الاكثر اهمية) متوجا بحكم فرضي للقانون ، الذي يراه كلسن ، بدافع الضرورة ، انه قانوني اساسا ، لانه « قانون محض » •••

ولكن البرهان على تفوق القانون الدولي يأتي بصورة خاصة عن طريق مبدأ المساواة بين الدول : وهذا المبدأ يكون من دون قيمة عملية اذا لم يوجد هناك ، فوق الدول ، أمر قانوني يحدد العلاقات بين الدول ويمنع اية دولة من التفكير بان لها حقوقا عليا على اية دولة اخرى •

والى هذا الحد ، فان النظرية القياسية لا تذهب ابعد من النظريات الموضوعية (objectivitist theories) كمدرسة القانون الطبيعي ونظرية التحديد الذاتي للدولة ، كما رأينا ، تطلب بصورة غير مباشرة وجود قانون موضوعي • ولكن كلسن يأتي بتماس مع جوهر المسألة فيما يخص بحقيقة القانون الدولي ، وانه يقترب اكثر في هذا الصدد من علماء القانون الاجتماعي الذين يستخدمون طرقا هي غريبة كليا بالنسبة له • وكون من خصائص حكم القانون تأمينه على ضمان عام غير مشروط ، فانه يرى ان القانون الدولي موجود ، بقدر ما يكون الحرب موجودا ، وهو اعلى ضمان له ، باعتباره اما كعمل مخالف او كضمان ضد ذلك العمل المخالف •

وبالطبع فان كلسن يؤكد على ان الحرب يمكن ان تفسر بنفس الدرجة كعمل

---

(١٧) انظر فيما يتعلق بتفوق القانون الدولي ، الكتاب القيم لاحد تلاميذ كلسن Josef L. Kunz :

La primuté du droit des gens, Recueil des Cours do I' A.D.I. de La Haye, 1925 p. 556 et Seq.

غير شرعى او كجزاء لايقاف مثل هذا العمل او كعمل شرعى ، وحينئـذ يكون معادلا للقول ان القانون الدولى هو ليس بقانون • ولـكنه على أية حال يضمن قوله ان الحرب اما ان تكون مخالفة او ضمان • وهو يبين تعليله على شعور اعضاء المجتمع الدولى فى هذا الصدد • وبناء على ذلك فهو يلمح على ان الدولة ملزمة بصورة فعلية بالقانون الدولى •فكونه بذاته قانون ، فانه يختلف عن القانون الداخلى بذكر الحقيقة وهى انه يمثل نظاما قانونيا لامركزيا ، واقصد ، بأنه نظام يشرع عن طريقه القانون ويضمن تنفيذه من قبل هيئات الدول المختلفة وليس من هيئة دولية خاصة •وعلى هذا الاعتبار يبدو القانون الدولى حين مقارنته مع القانون الداخلى ، بأنه يمثل كيانا قضائيا من مستوى أعلى ، قانون يوكل صفته القضائية الى القانون الداخلى فى الوقت الذى هو نفسه من نتاج الدولة ، كأى قانون آخر •

ولسوء الحظ فان مثل هذا الحل الذى يبدو لنا الحل الوحيد الممكن ، قد جاء ضعيفا بالطريقة التى اوردها كلسن ، بسبب التحفظات السياسية ـ القانونية أو العملية المحضة التى فى الواقع ليست ذات اثر بطبيعة السؤال المثار فى دراستنا هنا • فهو يقول بصورة خاصة ، بأن هذا الحل هو ليس بكاف لتأييد وجود القانون الدولى او لـكى يخـدم كحجة تقـرر فى حالة خاصة فيما اذا كانت مخالفة للقانون او ضمانا له • وهذه التحفظات تستند على تقديرات قانونية ، سار بها كلسن الى درجتها القصوى ولـكن كمـا سنرى هى ليست بالقانونية بصورة خاصة[١٨] •

---

(١٨) انظر

Hans Kelsen, Rapports de système entre le droit interne et le droit international public, Recueil des cours de 1' A.D.I. de La Haye, 1926, t. 4; Théorie génerale du droit international public, Ibid, 1932, t. 4; Théorie générale de L'Etat, in Revue de Droit public, oct. 1926; Théorie du droit international public, Recueil de cours de 1' A.D.I. de La Haye, 1953; t. 84; Principles of International Law, New york, 1952 - See also:

انظر كذلك

Louis Le Fur, op. cit, pp. 33 to 44;
Gearge Scelle op. cit, pp. 33 to 44;

٩ ـ ان اقوى المدافعين عن حقيقة القانون الدولى ينتمون الى المدرسة الاجتماعية •

وحين ندرك أنه من المستحيل ايجاد التوافق بين نظرية سيادة الدولة وبين حقيقة لا القانون الدولى فقط ، وانما حقيقة القانون نفسه ، فان الكتاب الذين ينتمون لهذه المدرسة ، يرسمون خطا فاصلا بين القانون والدولة ، ملحقين القانون بالمجتمع ، كالمثل الرومانى الذى يقول ''Ubi Societas, ibi Jus'' (كما يكون المجتمع يكون القانون)(*) • فالمجتمع هو الذى يخلق القانون بينما تكون الدولة ملزمة للاعراب عنه وتنفيذه فى جميع اعمالها ونواهيها • وبعكس ما جاءت به مدرسة هيكل وجميع المبادىء المشتقة منها وبضمنها المدرسة القياسية ، فان الدولة لاتخلق القانون وانما تخضع له • واما قرارات الحكومات فانها ملزمة للمواطنين لا لكونها تتميز بالارادة القوية ، وانما لانها تنسجم مع ضرورات الحياة الاجتماعية التى تنشأ من كل من تضامن جميع اعضاء المجتمع والشعور بالعدالة الكامنة لدى اغلبيتهم الساحقة • وبسبب هذه الحقيقة الناصعة ، فان هذه القرارات ملزمة للحكومات نفسها لان دور هذه الحكومات هو دور المفسر لنظام مجرد يحتل مكانه الاعلى • وهذا يعنى ان الفرق بين الحاكمين والمحكومين هو مجرد فرق فى الكلمات ، ذلك لان كلا منهما فى الحقيقة افرادا •

ان القانون الدولى ذو طبيعة تشابه طبيعة القانون الداخلى • فهو كالقانون الداخلى نتاج للمجتمع ، الذى هو المجتمع العالمى (المجتمع الواحد من الناحية القانونية) • وعناصر هذا القانون هم الافراد كما هو الحال مع القانون الداخلى وليس الدول التى لا تعتبر بالعناصر القانونية • ولكن اذا ما سلك الافراد احيانا مسلك الحكام ، فان ذلك لا يغير شيئا من انهم يظلون افرادا • وعلى هذا الاساس ، ينشأ حكما قانونيا ، على الصعيد الدولى ، ،

(*) المترجم •

يشبه مفعوله حكم القانون الداخلي ، من التضامن والشعور بالعدالة • وفي هذه الحالة فان على الحكومات ـ كما هو الحال مع الافراد ـ الاخذ بهذا القانون ، واذا ، ما خالف هذا الالتزام بعض الحكومات او الافراد ، فان على جميع الحكومات استخدام جميع ما لديها من قوة جزاء لسيادة وتطبيق القانون ـ ولا يستخدم المجتمع العالمي هيأته التنفيذية وانما يستند على هيئات الدول من هذا النوع • ولذا فاننا نرى هنا ان تركيب المبدأ القياسي لكلسن يتوصل الى نفس النتائج ، على الرغم من انه لا يبدأ بنفس النقاط • واخيرا فان المجتمع العالمي هو مجتمع اكثر سعة ، فانه أعلى من الدولة ؟ ونقصد انه أعلى من المجتمع القومي • وهذا هو السبب الذي يجعل القانون الدولي أعلى من القانون الداخلي لكل دولة (سيادة القانون الدولي) •

هناك تفاوت بيّن في وجهة نظر هذه المدرسة • ويبدو هذا غير طبيعي عند الاخذ بالطريقة الاجتماعية باعتبارها طريقة علمية محضة •ذلك لان في مثل هذه الحالة يجب أن يكون هناك نظرية واحدة فقط ذات وجهة نظر واحدة للمدرسة الاجتماعية • ولكن هذا يفسر على ضوء اتجاه لا يرقاه الشك ينادي به اغلب الفقهاء الاجتماعيين ويتوخون فيه غالبا استبدال الافكار التي يحصلون عليها من مشاهداتهم واختباراتهم للحقائق المحضة بالافكار السائدة • فهم تواقون للتدليل على نظرية شخصية ،او وجهة نظر اصيلة ، دونما انتظار لنتائج بحوثهم كي يتوصلوا الى الموضوعية اللازمة • ويعتبر ليون دوكي (Leon Duguit) [١٩] مؤسس هذه المدرسة ، ولكن جورج سيل (George Scelle) يعتبر اكثر الباحثين كمالا

---

(١٩) Léon Duguit Trailé de droit Constitutional, t. no. 13 and 62.

لمبادىء النظرية فى القانون الدولى[٢٠] •

ويختلف جورج سيل عن غيره من الفقهاء الاجتماعيين بانه يستبدل مبدأ التضامن (Principle of Solidarity) ، الذى يستخدمه كآخر وسيلة، بمبدأ الضـــرورة البيولوجى (biological necessity) • وبالنســـبة للاخلاق والعدل ، والذى يعنونه دوكى بالشعور بالعدالة ، فانه يعطيه دور المنافس جنبا الى جنب مع مبدأ التضامن ، فهو لا يتجاهل هذين المبدأين تماما ولـكنه يضعهما فى موضع ثانوى •

وهو يرى أن كلا من القانون الداخلى والقانون الدولى يملك صفات خاصة به ، وانهما من نتاج المجتمع ويعتبران الافراد مادة لهما • وينطبق ذلك حتى على النواحى الفنية ، فبدلا من ان يملك كل منهما قواعد مستقلة، فان لهما نفس القواعد • وهذه تسبب تداخل قواعد احدهما بالآخر عند تنفيذ احكامها ؟ ففى بعض الاحيان تعمل بمثابة القانون الداخلى : حينمـا يؤكد على هذا القانون ، وفى احيان اخرى تعمل هـــذه القواعد بمثابة القانون الدولى : حينما نتوخى تطبق احكام القانون الدولى (نظرية العمل المضاعف)[٢١] •

١٠ ـ وفى وسط الاتجاهين المتطرفين فى الرأى ، الاتجـاه الذى ينادى بالسيادة المطلقة للدولة ، وهو الذى ينكر حقيقة وجـــود القـانون الدولى ، والاتجاه الآخر الذى يعترف بوجوده ، على اساس اثباتات نظرية

---

(٢٠) انظر
Jean Spirupoulos, Théorie générale du droit international, paris, 1930; Traité theorique et pratique de droit international Public, paris, 1933. H. Lauterpacht, Règles générales du droit de la paix, recueil de cours de 1' A.D.I. de La Haye, 1937, t. 4 - Roberto Ago, op. cit; Dietrich Schindler, Contribution à l'étude de facteurs sociolog, ques et Psychologiques du Droit international, Recueil de cours de 1' A.D.I. de La Haye, 1933, t. 46, pp. 233 to 325.

(٢١) انظر :
Gearge Scelle, précis de droit des gene, mentioned above; Les règles du droit de la paix, Recueil des cours de 1' A.D.I. de La Haye, 1933, t. 4.

مختلفة ، هناك نظرية نشأت فى خلال الحرب العالمية او بعدها وهى ترى ، كما رأت الجهتان المتنازعتان خلال نصف القرن الحالى ، ان القانون الدولى يمر بازمة حادة ، لانه لا يملك القوة التنفيذية فى وضعه الحالى ، لعدم استطاعته منع الخلافات العالمية وحفظ السلام ، الامر الذى يوجب فى مثل هذه الاحوال اجراء اصلاحات فعالة لتقويته وجعله متمكنا من تحقيق اهدافه الضرورية[٢٢] .

ان هذا الرأى الوسط يأخذ من كلا النظريتين المتطرفتين ولكنه اكثر تفاؤلا من النظرية الاولى واكثر تشاؤما من النظرية الثانية . وكالنظرية الثانية ، فانه يعترف بوجود احكام القانون الدولى وذلك يجعلها تستقر على احد المبادىء المقترحة من قبل المواقف المختلفة لهذا الرأى . ولكنه كالنظرية الاولى ، يعترف بعدم اهمية هذه الاحكام ، بسبب السيادة الوطنية لكل دولة ، والذى تتمسك بموجبه الدول بدرجة كبيرة ، بدلا من التنازل بجزء منها تحقيقا للانسجام واحكام القانون الدولى ، بحيث يكون هذا التنازل الذى يخدم هذا القانون ويكسبه كيانا ، فى الواقع ليخدم مصالح الدول ذاتها .

ان عيب هذه النظرية ، ذات النوايا الحسنة يعود فى الاغلب الى فقدانها الأساس العلمى ، اذ أن نصفها له اساس علمى فقط واما النصف الآخر فهو بمثابة دعوة سياسية الى وجدان الافراد وحكامهم . والاكثر من هذا انها تخفى خطأ آخر فى المبدأ ولو أن ذلك لا يمكن من القول ان أسس النظرية بكاملها قد فشلت فى تبيان دور القانون فى المجتمع الانسانى .

وبنظر اصحاب هذه النظرية ، فان دور القانون الدولى والقانون الداخلى هو الحصول على السلام وتجنب الحرب او على الاقل منع وقوعه

---

(٢٢) يطغى على اغلبية الكتاب فى القانون الدولى عدوى هذا التشاؤم . انظر بصورة خاصة

Josef L. Kunz, La crise et les transformations du droit de gens, Recueil de cours de l' A.D.I. de La Haye, 1933, t. 4.

بصورة مستمرة والى حصر آثاره اذا وقع بالفعل اضرار وهذا اشبه شيء بانزول بالقانون الدولى الى مبادىء خلقية لسلم دائم ، كما حلم بها كانت (Kant) • ويعتبر معهد لاهاى للقانون الدولى نفســه ، كأحـد المعـابد المقدسة لهذه النظرية الذى نظم حوالى ١٩٣٠ سلسلة من المحاضرات على هذا الموضوع : قانون السلم[٢٣] • ولـكن هل ان هذا حقيقة هو الدور الوحيد للقانون على أى مستوى ؟وهذه هى الناحية بالضبط التى يشير اليها هؤلاء « المتفائلون الفاشلون » وهى ناحية خاطئة ، وسنرى كيف وقعوا فى هذا الموقف الخاطىء • فعن طريق مناقشة هذه الناحية سنستطيع فى فصل واحد ان نبرهن عمليا على وجود القانون الدولى وهو بالنسبة لوجهــة نظرنا ، اكثر وضوحا من اغلب النظريات التى عالجت هذا السؤال •

(٥)

١١ ـ لا يقتصر دور القانون على تجنب وقوع النزاع فى المجتمع فقط • فهو يعمل على ضمان ذلك ايضا • وبهذه الوسيلة يقف على اهبـة الاستعداد حين وقوعه او حتى فى تحرى حقيقته • وعليه فان دور القانون هو دور مضاعف : منع وقوع ما يخل بالنظام القائم ، ومنع مثل هذا الخلل، أى بارجاع الوضع الى حالته النظامية • وهاتان الناحيتـان ناحية المنــع والاكراه هما عنصران اساسيان من عناصر القانون واللذان ينتجان مـن خصائص القانون القياسية • فاذا كانت صفة المنع هى الهدف الوحيــد ، يكون القانون عندئذ موضوعا لما هو وليس فى ما يجب ان يكون • واذا ما اثبت وجوده على هذه الصورة ،عندئذ يكون عديم الفائدة كما لو كان مطاعا تلقائيا ومن دون اكراه او تهديد بالاكراه وكما لو كان قانونا طبيعيا • فيكون وجوده ومبادؤه المهمة معتمدة بالضبط على احتمال قوعه وعلى نوعية المخالفات التى تحصل ضد ذلك النظام القائم الذى هو غالبا مجرد توضيح

(٢٣) ان بعض ما جاء فى هذه المحاضرات قد أشير اليه فى هذه الدراسة •

ضمنى • والواقع ، ان حكم القانون ينص : على « ان الذى يقتل او يسرق سوف يعاقب بـ ••• » (ثم يتبع ذلك وصف الجزاء) • والناس على انواع • فقسم منهم يخاف من العقوبة وبذلك فهو يمتنع عن مخالفته للنظام القائم ؛ بينما يتجاهل اخرون حكم القانون نهائيا ، اما بسبب عدم ترددهم فى القيام بمجازفة او بسبب عدم ادراكهم تماما للنتائج المترتبة على عملهم او بسبب اعتقادهم ان بأستطاعتهم التملص من الجزاء • وعلى ما يبدو من الحالتين ، حالة المنع وحالة الاكراه ، ان الغرض النهائى للقانون هو النظام والسلام ! فعن طريق الحالة الاولى يمكن الحصول على النظام والسلام وعن طريق الحالة الثانية يمكن استعادة النظام والسلام بعد حصول المخالفة • ولكن هذا يعتبر مع كل ذلك خرق او مخالفة للنظام وهنا تستقر صحته •

وبالنتيجة اذا ما أدت الحال فى الغالب الى نشوب حرب فى المجتمع العالمى ، فهذا لا يذهب بأى حال من الاحوال بحقيقة القانون الدولى • وحتى يمكن القول ان نشوب الحرب يؤكد على حقيقة القانون الدولى ويبرهن عليه بصورة غير مباشرة وذلك بالكشف عن ضرورة وجوده • لانه ، ونحن نؤكد ثانية ، اذا لم يكن هناك حرب (المخالفة لاحكام القانون الدولى على حد اصطلاح كلسن) او الاشكال الاخرى من المخالفات لما هو سائد من اوضاع خارجية (ونقصد حكم القانون الدولى) فقد يترآى للمرء ان ليس هناك حاجة لذلك الحكم القانونى بنفس الطريقة التى يرى فيها عدم حاجته الى جميع احكام القانون الدولى •

والواقع ان القانون الدولى الايجابى لم يدع قط انه حذف مصطلح الحرب من كل من معجمه ومن الحياة العالمية • على العكس فانه ينظر اليه بعين واقعية ويضع الشروط التى يجب ان يسير عليها ويضفي عليها صفة « قضائية » • ثم اننا لا نجد فى ميثاق عصبة الامم ولا فى ميثاق برياند ـ كيلوك (Briand - Kellogg) ، ولا فى ميثاق الامم المتحدة أى مسلك معاكس لذلك • على العكس ، فان الحرب الشرعى او الدفاعى قد رخص

به . اما اذا كان الهدف من الحرب غير ذلك (ما لم يكن هدف تلك الحرب احداث مخالفة اخرى تعكر صفو الامن والاستقرار العالمى) فعندها يصبح حربا غير شرعى او اجرامى .

وما يتأتى من حرب اجرامى وحتى من حرب تأديبى من اعتداء هو بناء على ذلك ليس بالقانون الدولى ، ذلك لان مثل هذه الحرب أمر غير شرعى ولا يخضع للقواعد القياسية والاجتماعية التى يرخص فيها الحرب : فشرعية الحرب تتجلى حين تتبلور تلك الصفة حوله وحين يكون هدفه بالضبط تامين السلام والامان فى العالم بطرق هى غير استخدام القوة القطيعة . ويراقب تطبيق النظام الشرعى عن طريق المنظمات العالمية ، (منظمة الامم المتحدة ، محكمةالعدل الدولية ، مجلس الوصاية الخ ..) ، وباعداد قواعد للعمل (المعاهدات ، العادات والعرف ، والمبادىء العامة للقانون) التى هى ليست من الضرورى ان تكون قانونية ، وبالمحاولات لحل الخلافات العالمية بطرق سلمية (المفاوضة او التحكيم) ، وبطرق خاصة اخرى ممكنة التطبيق ، الخ . وهذا الطريق الشرعى على المستوى العالمى وان كان طريقا غير مضبوط ، الا انه ليس بالقانون نفسه . وحينما فشلت عصبة الامم فى محاولاتها فى منع وقوع الحرب العالمية الثانية ، كانت العلة فى الامر ترجع الى عدم صلاحية النظام القانونى الذى كانت العصبة تسير بموجبه وليس القانون الدولى : اذ أن القانون الدولى نفسه لم يتأثر بأية طريقة من الطرق . وتنطبق نفس الحالة اليوم مع خلفها ، الامم المتحدة .

١٢ ـ وهذا الاتجاه نفسه يسبب ارتباكا فى المواضيع القانونية المستقلة ويؤدى بها الى اعتبار القانون الدولى قانونا منفصلا عن القانون الداخلى . فلقد شهدنا مولد المذهب المزدوج (dualist conception) الذى له صلة بالنظريات الجرمانية المستقلة . ولكن حتى أولئك الكتّاب الذين اختاروا المذهب القانونى الفردى (monist conception) فانهم يعترفون

من أن النظامين القانونيين ليسا بالمتكافئين بالصورة المطلقة • ويعتبر كلسن (Kelsen) الكاتب الوحيد خارج الفقهاء الاجتماعيين ، الذى يقول ان الاختلافات القائمة بين النظامين القانونيين هى اختلافات فنية [٢٤] والتى يجب أن توضح كاختلافات على أية حال حين البحث فى النظامين المذكورين •

والذى يجعل هؤلاء الكتاب يعتقدون أن القانون الدولى ليس من نفس طبيعة القانون الداخلى من حيث المبدأ ، هذه التقديرات السلبية الثلاثة : عدم وجود أية هيئة تشريعية ، فقدان ناحية الالزام فى نطاق القانون ، وعدم وجود سلطة تنفيذية له • [٢٥] وبناء عليه فانهم يعتبرون القانون الدولى مختلفا عن القانون الداخلى وهو نظام قانونى غير كامل • فهو يحتوى على قاعدة معينة للعمل (المعاهدات ، العادات ، المبادىء العامة) ولكنه يخلو من أى ضمان قانونى • ومن هذه الناحية ، فان بعض الكتاب يجد مقابلا للقانون الدولى فىالقانون الداخلى :وهذا هو القانون الدستورى، الذىتوجد فيه أحكاممعينة يعوزها الضمان القانونى•مثلا :مسؤوليةالحكومة بالاستقالة بعد حصولها على أقلية فى المجلس الوطنى عند التصويت لها بالثقة أو مسؤولية عقد البرلمان فى فترة معينة بعد الانتخابات العامة • فليس هناك ضمان ، كما يقال ، يضمن تطبيق هذه الاحكام حين لا تود الحكومة مراعاتها • [٢٦]

ووجهة النظر المزدوجة هذه ، تدعونا الى البحث فيها بشىء من التفصيل • أولا ، وهذا أيضا الجواب للمبدأ الذى يحمل فى الحقيقة هذا

---

(٢٤) انظر
Hans Kelsen, Théorie du droit internationol public, op. cit, p. 5.

(٢٥) انظر
Charles Rousseau, Droit international public, paris 1953, no 7.
انظر كذلك
Louis Le Fur, op. cit, p. 103; charles de visscher, op. cit., p. 9.

(٢٦) انظر مثلا ، فى هذا الصدد Paul Roubier, op. cit, p. 40.

الاسم • فاذا ما ادعى المرء ان هناك قانونين مختلفين ، الاول قانون داخلى والثانى قانون دولى ، فان ذلك يؤدى الى انـكار أحدهما • فالقانون من هذه الناحية اما أن يكون واحدا أو لا • ومن دون التعرض الى جميـع التعاليل التى تخيلها كلسن فى تدعيم المذهب الفردى ، فهناك تعليل واحد من هذه يسيطر عليها جميعا ـ والذى يقول ان السلطة القضائية لها غرضها وتعريفها الدقيق الخاص بها • ولكن هذا الهدف يجب أن يكون محصورا بقانون واحد وليس بقوانين عديدة • وأولئك الذين يقدرون ، بالرغـم من كل ما تقدم ، ان القانون الدولى يختلف عن القانون الداخلى ، فان ذلك يعنى أن هذا القانون أو ذاك ليس بقانون ، وبناء على ذلك فلا يمكن ادخال ذلك القانون فى النطاق القضائى • فأما بالنسبة للقانون الداخـلى باستثناء جزء من أجزاء القانون الدستورى ، فمما لا يتنازع فيه أحد أن نوعيته لا يوجد مثلها فى القانون الدولى •

وهذه الملاحظة هى صحيحة كذلك بالنسبة لآخرين ، وما عليهم أن يحملوا وجهة النظر المزدوجة بصورة واضحـة ، والذين يقولون بوجود قانون كامل ، هو القانون الداخلى أو ان هناك قانونا ناقصا وهو القـانون الدولى وجزء من القانون الدستورى الداخلى • وعلى كل حال فان هذا يحتاج الى جواب أدق • فماذا يقصد « بالقانون الناقص » ؟ لا يمكن أن يعطى ذلك غير هذا المعنى : قانون يعوزه بعض الشيء لكى يصبح قانونا • وبناء على ذلك فان القانون الناقص هو ليس بالقانون ولكنه شيء آخر • وبالنسبة للقانون فان الاوصاف كامل وغير كامل هى اوصاف لا تناسبه • فقد يستطيع المرء أن يقول ، بامكان الانسان أن يصبح كاملا أو غير كامل ـ ولكن ذلك لا يغـير بأى حال من الاحوال الفـكرة العامة فيما يخص الانسان : لان وجود فكرتين عنه لايقلل من حقيقته • فكالانسان الكامل أو غير الـكامل ، فان القانون الذى يشتمل على نفس الالقـاب الموضعية يفترض مقدما امكان اجراء المقارنة ، ولذا فيمكن القول ان علاقة الانسان

بالقانون هي منتصف الطريق بينهما ، أي أنها علاقة « حيادية » فما هو هذا القانون اذا ؟ انه ليس بقانون موضوعي بالتأكيد ، سواء أكان ، أعلى أم أدنى من قانون معين ، والوضح أنه ليس بقانون وهذا ما يجعله أقل موضوعية من القانون الايجابي • والسؤال هنا يخص العلاقة وليس التطابق او عدم التطابق مع فكرة مثالية معينة•ويترتب على ذلك ، ان المرء اذا ما اعتقد ان القانون الدولي هو قانون ناقص ، أي أنه غير كامل ، فانه ينكر وجود ذلك القانون من دون شك ، لان القانون غير الايجابي هو ليس بقانون •أما اذا رغب المرء ، العكس ، أي بتسميته بالقانون ، فعليه عدم اقحام كلمة « قانون » الى الصفة « غير كامل » لان ذلك من غير معنى •(٢٧)

وعلى كل حال فان هذا الفقدان للمعنى ليس مقصودا فالمرء لا يستطيع أن يقصد « قانونا غير كامل » بل حكما قانونيا غير كامل • فهي توضح الفكرة من أن هذا القانون لا يقترن ، كما هو الحال مع القانون الداخلي ، بجميع تلك الوسائل العملية الكافية التي تكون نظاما قانونيا ، أي تطبيق حكم القانون بناء على سنن واجراءات وصفت في السابق ، التي تساعد ذلك القانون من تحقيق هدفه الاسمى المعني بالبحث : النظام الاجتماعي والسلام عن طريق الامان والعدل • ولكن ذلك لا يمكن أن يشير الى أن ذلك القانون غير كامل اذا ما اعترف المرء بوجوده •

والاكثر من ذلك ، فاذا ما اختبر المرء أي من الخواص الثلاثة التي يفتقرها القانون الدولي ، فبدلا من القول أنها غير متوفرة في أحكامه ، فانه سوف يقتنع أنها ليست أجزاء أساسية من هذا القانون ، وحتى الاخير منها ، الذي هو السلطة التنفيذية وهو الذي يخص ناحية الاكراه •

---

(٢٧) وهذا لا يمنع من القول ان حكم القانون يجوز ان يكون حسنا أو سيئا ، وعندئذ يكون هذا التقدير مبنيا على وجهة النظر التي تؤكد على النظام القانوني أو الشرعية • وهذا لا يتضمن فحوى القانون المنوه عنه بالذات •

فمن ناحية مسألة التشريع ، فان القانون ، كما يعلم كل فرد ، يمكن أن يقوم من دون تشريع • فالعرف المكتسب الصفة القانونية هو بالتأكيد سابق للقانون المسجل أو للحكم الافتراضي العام • ولكن لا يوجد أحد يجادل في أن العرف عامل أساسي في تكوين القانون وأن القانون الناتج عنه هو قانون كامل لا ينقصه أي عنصر من عناصره الضرورية اللازمة لوجوده • كما نعلم أيضا أن القانون المسجل كان قد ظهر في مرحلة تطور المجتمع الانساني التي دعت الحاجة فيها الى ايجاد أحكام عامة ودقيقة للقانون المشرع وذلك لتنظيم العلاقات الجديدة في اججتمع المتطور • ولكن هذا واضح لدينا تماما ، لان القانون تحت هذه الاهداف والظروف يخلق نوعية معينة من الشرعية ، وكما سنرى هي مترادفة مع نوع معين من القانون ، ولا علاقة لها بالقانون بوجه عام ولابأي قانون من نوع آخر •

أما مسألة الحاكم ، فمع أنها أكثر تعقيدا ، الا أنها تتبع نفس النظام • والبرهان على ذلك ، هو أنالفرد المتضرر ، في مجتمع مستقر ، يستطيع أن يطبق حكم القانون من دون حضور أية جهة أخرى تطالب بحق الفرد المتضرر (جهة ثالثة تأخذ بالثأر) • فالمبدأ الذي يقول أنه لا يجوز لاي فرد تطبيق حكم القانون بنفسه هو مبدأ معترف به في كل من القانون المحلي والقانون الدولي ، وانه في القانون الدولي يطبق بحماس مفهوم ولكن هذا المبدأ يعود الى النظام القانوني ، أي الشرعية القانونية وليس القانون •

وأخيرا مسألة السلطة المسيطرة ، وهذه تنطبق عليها المناقشة الى حد ما • لان السلطة التي تطبق حكم القانون على مسألة معينة هي ليس بسلطة تنفيذية ولكنها السلطة الاجتماعية ذات السيادة التي تقف وراء تلك السلطة ، والتي تخولها العمل وتضمن لها النجاح • وسنرى بعدئذ ان هذه السلطة موجودة بالفعل في القانون الدولي وأنها مسؤولة عن تطبيقه من دون وجود جهاز يصدر الصلاحيات لتحقيق هذه المهمة • وهنا أيضا

فان النقص يخص شرعية القانون وليس في القانون • (٢٨)

١٣ ـ واذن ، فما هو ضروري لوجود حكم قانوني هو وجود سلطة عليا ذات سيادة ضمن المجتمع ، وهي السلطة التي يرجع اليها تقدير الحكم الاخير • فاذا ما كان هذا العنصر غير موجود ، فلن تكون أية قيمة للنظام القانوني بأسره • وعندها لن يكون أي أثر لهيئة تقوم بتشريع القانون الدولي بصورة منتظمة (والمقصود هنا أية منظمة عالمية أو مجمع علمي عالمي) ، ولا فائدة من وضعه في مجاميع قانونية مصنفة ولا معنى من اهتداء الدول اليه في خلافاتها من تلقاء نفسها بصورة منظمة ولا منفعة من محاولة المجتمع العالمي من تعيين هيئة تنفيذية ، لان عدم وجود تلك السلطة العليا المستقلة لا يسوّغ وجود أي شيء يمكن تسميته بالقانون الدولي •

وعليه فانه من الثابت،وعلى ضوء ما فصلناه ،سهولة تجاوب القانون مع النظام القانوني ، وهو أمر مرغوب فيه ،وبألباسه هذا الثوب من الشرعية ، فان القانون نفسه يتغير كما لو كان ذلك من طبيعته • وبهذه الواسطة يصبح قانونا من نوع معين ، قانونا خاصا محددا بالزمان والمكان لان النظام القانوني المطبق هو قانون ، وانه قانون مكمل من حيث أنه يبدله ويعدله بصورة ثانوية • وعلى هذا النوع من التحليل فقد كان هناك قانون دولي في وقت عقد معاهدات (وستيفاليا) ، وآخر أثناء عقد التحالف الديني (Holy Alliance) آخر في وجود عصبة الامم ولا يزال هناك اخر لمنظمة الامم المتحدة •

---

(٢٨) هناك أيضا حالات مشابهة أخرى تبين الاختلاف بين القانون الدولي والقانون المحلي • فمثلا ، نجد في احداها ، ان الاحكام تقترح من قبل الاغلبية ، وفي اخرى بالاجماع • ولكن المعاهدة هي ليست تماما كالعقد ، لانه يمكن نقض العقد عن طريق استخدام الضغط ، بينما في حالة المعاهدة فانها مدينة بوجودها له فقط • ولكن كما قلنا فان هناك جميع الاختلافات الفنية : وهذه ذات صلة بالنظام القانوني وليس بالقانون نفسه •

ونتيجة لذلك ، فانه عندما يتكلم المرء عن « الرخاء » و « الاسقرار » في بعض الاحيان وعن « الازمات » في القانون الدولي في الكثير من الاحيان ، فان ذلك تسمية مغلوطة لان هذا القانون لايمكن أن يتعامل مع أي من هذه المصطلحات المستعارة من الاقتصاد السياسي • اذ أن المقصود « بالرخاء » ، « الاستقرار » أو « الازمة » بالضبط هو حدوث هذه الامور بالنسبة للنظام القانوني ، وبالنسبة لمنظمة معينة تابعة له (عصبة الامم ، الامم المتحدة) بشرط عدم الوقوع في أخطاء فادحة : لانه لايمكن لركن من أركان القانون أن يقع في مثل هذه الاخطاء الفادحة من دون أن يتأثر بها نفسه • (٢٩)

ومن دون شك بالامكان القول ان كل هذا صحيح ولكن بتهرب فائق ، اذ أن المسألة مسألة تعبير وهذا ليس له أهمية كبيرة • ولن نركن الى مثل هذا الاتهام المتهرب ، لانه اذا كان تمييزنا يستند على التهرب ، فانه سيفتح أبوابا أخرى كثيرة هي في الواقع من نسج الخيال في الحقل القانوني • وأما بالنسبة لما يسمى بـ « مسألة بسيطة تخص المصطلحات » التي تتخذ في حالات كثيرة كمجرد واسطة لاهمال عرض فكرة جديدة ومن دون التحدث عنها ، فاننا سوف نخوض في الموضوع بطريقة تبتعد كل البعد عن اغفال ذكر أية أهمية موجودة ، وعلى غير ماهو شائع • فهناك من الحالات ما تستخدم فيها كلمات في غير معناها الحقيقي وهذا مما يؤدي الى سوء الفهم والنتائج غير الحميدة • والاكثر من هذا فاننا في الحقل العلمي يجب أن نستخدم من المصطلحات ما هي دقيقة وبأقصى حد ممكن • ولكننا هنا ، كما رأينا ، وجود أمور أخرى : يجب أن نقرر المبدأ المعين لموضوع من مواضيع الحقل القانوني ، ونقصد به القانون •

١٤ ـ والمقارنة بين القانون الدولي والقانون الدستوري التي تتوخى

---

(٢٩) تستخدم كلمة (ازمة Crisis) بكثرة في القانون الداخلي ذاته أيضا • انظر مثلا :
Georges Ripert, Le décline du droit, paris, 1949.

اكتشاف أوجه التشابه بينهما وما يعوزهما من الضمانات ، هو مثل آخر للارتباك القائم بين القانون وشرعية القانون مما ذكرناه أعلاه • واذا ما استطعنا أن نسكت برهة عن مسألة الضمان فى القانون الدولى ، لنرى ظهور هذه المسألة فى القانون الدستورى الذى هو نظام داخلى للقانون • فمن الواضح أنه حين يؤكد المرء ، بعد ما أجرينا من تطبيق ، ان هذه المشابهة بين القانونين هى قائمة بالفعل ، فان الخلاصة التى يتوصل اليها بصدد القانون الدستوري لا يمكن الا وان تكون بدرجة متساوية من الدقة مع القانون الدولى •

صحيح أن هناك عددا من القواعد الدستورية التى لا يوجد لها ضمان فى حالات يحتمل أن يحصل فيها مخالفة • ولكن هذا يعنى أن تلك القواعد لن تضمن فى النتيجة • فالحكومة التى تجازف فى عدم مراعاة هذه القواعد قد تؤول هذه الحالة الى حصول انقلاب أو ثورة شعبية • وهذا هو الضمان ! وقد يجوز لنا أن نقول ان هذا ليس بضمان قانونى ولكنه ضمان اجتماعى أو سياسى وحسب ، ولكن هذا الاعتراض يستند على تشبيه خاطىء بين القانون وشرعيته • واذا ما استخدم المرء ضمانا غير معين لحكم من أحكام القانون المتجاوز عليها ، أو ضمانا يختلف عن ما هو محدد فى حكم معين من أحكام القانون ، فان الضمان المطبق لا هو بالغير الشرعى والاكثر من ذلك فانه ليس ضد القانون • على أنه قانونى لانه نتاج لسلطة اجتماعية لها صلاحية الحكم فى النهاية ، وهى ذات سيادة وهى السلطة الوحيدة الحقيقية الكفوءة التى تسطيع أن تبين مضمون القانون •

يضاف الى ما تقدم ، فان عمل القانون هو غالبا ما يتم على قاعدة الامر الواقع (de facto) حتى حينما يكون من عمل الهيئات الكفوءة ، لانه قانون جديد غير مشمول باى حكم قانونى قائم • ولا فائدة من القول انهذا القانون الجديد لم يكن قط بالحالة المنفيةالمطلقة للقانون القديم أو بأنه سوف يعمل جنبا الى جنب معه لاننا نعلم أن التطبيق للاشياء هو فى الغالب شىء مختلف تماما •

١٥ ـ وهذا يقودنا الى تعريف الحكم الذى يسير على هداه القانو

الدولي • وما يجب أن يقال مباشرة ان هذا التعريف يجب أن لا يكون محدودا بالنسبة لحكم القانون • ولكي يكون ذا قيمة ، فانه يجب أن يكون قابلا للتطبيق في نفس الوقت على القانون المحلي وبالنتيجة على أي حكم قانوني مهما كان نوعه •

فحكم القانون في نظرنا ، هو أية قاعدة يهتدي بها الانسان وتقترن بضمان مادي يقرر ويصان من قبل سلطة اجتماعية عليا •

وليس من الضروري أن تكون السلطة منظمة سياسية في شكل دولة حديثة • ذلك ان الدولة قد تغيرت تاريخيا في اشكالها ومحتوياتها • فلقد ظهرت في العائلة والعشيرة وفي المدينة او في مقاطعات اللوردات • ولقد ظلت ردحا من الزمن ينقصها كل التنظيمات المفهومة بالمعنى الحديث • ففي المجتمع العشائري مثلا ، كان الفرد غالبا ما يقدم التضحيات في سبيل صيانة وتطبيق القانون • وكان القانون المطبق تحت هذا النظام بمثابة قانون « العلاقات بين الافراد » • ولم يكن لدى السلطة الحاكمة مشرعون لزمن طويل ، اذ كان القانون السائد هو القانون الذي يقوم على العرف • وداخل هذه السلطة ، التي يمكن تسميتها بالوطنية ، كان يقوم سلطة دينية شهدت تعقيدا اكثر ، وكانت تعمل على صوغ قانونها الخاص بها ضمن نطاقها (الديني او المهني) والتي كان لها فيه الكلمة الاخيرة • وكان هناك المجال لازدياد وتوسع السلطة الدينية بنفس الطريقة التي تتوسع فيها السلطة الحاكمة بحيث لا يمنعها من الوصول الى تملك السيادة داخل نطاقها (الكنسي الجامع) • وبوجود جميع هذه السلطات المفروضة بعضها فوق بعضها ، كان المجال محصورا بظهور المتناقضات في مفهوم مبدأ السيادة لان كل واحد منها كان له الحرية المطلقة في حقل عمله الذي لم تحدده حدود ، لقد كان صاحب السيادة في مركز عمله • ونحن نرى ان القانون الدولي يجب ان ينظر اليه من هذا الباب لانه ينبثق ايضا من سلطة اجتماعية ذات سيادة يمكن ان تقوم جنبا الى جنب مع الكنيسة والدولة او المنظمات المهنية •

ان هذا الوجود المزدوج يمكننا تفسير التناقض الظاهر بين السيادات المختلفة هذه • فهى تناقض بعضها بعضا فى حالة تفوق احدها على الاخر فقط بينما هى فى الحقيقة متناسقة • والذى يجعل المرء معتقدا بوجود مثل هذا التفوق هو وجود المجتمعات المتنوعة التى ينبثق عنها سيادات ذات اتجاهات مختلفة • وللمرء فى مثل هذه الاحوال الحق فى التصور بصورة منطقية وطبيعية ان المجتمع المتوسط يفرض نفسه على المجتمع الصغير وان المجتمع الكبير يفرض نفسه على المجتمع المتوسط • وهذا النوع من التفكير لا يملى على اساس وجود حاجة • وانما هو ثمرة لصورة يمكن ادراكها بصورة مسبقة • وهذا هو السبب الذى يدعونا الى القول بان الحديث الكثير عن تفوق القانون الدولى لا يستند على اساس • فحين كان لهذين القانونين مجالهما الخاص بهما فلا يمكن لاى مجال خاص ان يفرض اسبقيته على غيره ما دام ان لهما وجودهما المستقلان • فاذا ما تداخلا مع بعضهما وهذا يمكن ان يحدث بسهولة ، او اذا ما اصبحت احدى احكام القانونين مشاعة لكليهما ، عندئذ لا يبقى هناك اية معضلة بصدد التفوق ، فلن يكون هناك قانونان وانما قانون واحد •

ويمكن القول بصورة عامة ان التفوق غير كائن لا من القانون الدولى ولا من القانون الداخلى لسبب بسيط هو عدم وجود جمع للقانون • فالقانون هو دائما واحد • فالحكم القانونى الرصين لاينظر اليه بانه متفوق او دون غيره من القوانين • لعدم وجود سلم للتفوق فى مسائل القانون ، واذا ما وجد مثل ذلك فانه لابد وان يبنى على منطق محض او على النظام القانونى او على التعاليم او التعليلات المنطقية وليس على الحقائق والاسس • وبصدد العلاقة بين القانون الداخلى والقانون الدولى ، هناك حالات كثيرة يسود فيها هذا القانون او ذاك • وهذا يعتمد على الظروف التى تقرر وحدها فى كل حالة اى من القانونين يجب ان ينال منال التطبيق وهناك حالات فرضية يؤخذ فيها القانون الدولى بنظر الاعتبار وبصورة ايجابية ولكنه لا يعترف

به من قبل السلطة صاحبة السيادة(اما السلطة التى وضعته او سلطة اخرى غيرها) ، على ان هذا يحدث ايضا لحكم من احكام القانون الداخلى او حكما اخر من نفس الطبيعة الا انه لا يقال مطلقا ان لا قائمة للقانون الداخلى • فلماذا اذا يقال ذلك بالنسبة للقانون الدولى ؟

ويمكن القول فى هذا الصدد انه اذا لم يكن هناك اسبقية فى حالة القانون الداخلى او القانون الدولى (والمقصود هنا انه اذا كان كلا من النظامين ينتميان الى نفس الطبيعة والقوة ، بجانب الحقيقة القائلة ان دولة واحدة او عدة دول فى القانون الدولى هى التى تشخص الممسك بالسيادة الاجتماعية العليا) ، فانه من العبث الاعتراف بوجود قانون على المستوى العالمى ، لاننا سوف نظل دوما نرفضه قانونا ذا صفة عالمية • فهو ، كما تقول النظريات الذاتية ، قانون داخلى امتد الى الخارج ؟ انّ هذا التصنيف المحتمل ، والذى لا يمكن رده ، هو من دون نتيجة : انه فى الحقيقة غير ذى اهمية تذكر عند القول ان القانون الدولى بكيفية مؤثرة هو قانون داخلى أو هو حقيقة قانونا دوليا ، ان المهم فى الامر أنه قانونٌ • لكنه أيضا قانون دولى ، لان الممسك بالسلطة الاجتماعية على النطاق العالمى يتميز عن الممسك بها على النطاق الداخلى ، وبناء على ذلك فانه يترك له مجال نفوذه ويبقى محافظا على حدوده الخاصة به ، طيلة الفترة التى لا يوجد فيها اندماج بين الدولة « المسؤولة » وبين تلك الدولة أو الدول التى تضمن وجوده •

١٦ ـ ان السيادة لا يمكن الا ان تكون مطلقة ، وبعكس ذلك فان مثل هذا المصطلح سيكون مصطلحا مناقضا لنفسه وسوف لا يكون له اية قيمة علمية • ثم ان تناقضا قويا اخر ربما يظهر فى نظامنا القانونى الذى نحن بصدده اذا ما المرء اقرن فكرة السيادة هذه باى من السلطات الثلاثة او الاربعة المتفوقة او المتوازية بماله علاقة بكل حكم من احكام القانون وتحت اى ظرف من الظروف • وهذا بالضبط ما حدث لنظرية السيادة المطلقة للدولة • انها تركت خارجا الاحتمال النظرى للقانون الدولى ، فى الوقت الذى يمكن اثبات وجوده من الناحية العملية • ولتجنب مثل هذا

الخطر ، فان على نظرية السيادة المطلقة أن لا تلحق بالسلطة الاجتماعية كل ماله علاقة بأحكامها النافذة (التى هى بالاضافة اشتراط فرضى محض) : على العكس فان عليها ان تقترن فقط بحكم القانون الاسبق ؛ لانها لا تعود الى نقابة مركزية ولا الى الدولة او الكنيسة او المجتمع العالمى ، ولكنها تبدو بالنسبة لما يحيطها من ظروف ، آخذة شكل أى واحد من هذه الاحتمالات . وعلى ما يظهر ، فان فى كل حالة ، اى بماله علاقة بكل حكم ثابت على حدة ، سوف يكون هناك سلطة واحدة سائدة تستطيع ان تطغى على السلطات الاخرى ولكن سوف يكون للسلطات احتمال الظهور مرة ثانية مؤكدة وجودها على أسس وأحكام ثابتة أخرى . ونتيجة ذلك ، فان أصغر سلطة اجتماعية ، كنقابة التجرة مثلا ، سيكون بامكانها ، من الناحية الاقليمية والعددية ، القضاء على كل حكم دستورى او قاعدة من قواعد القانون الدولى ، بخلق حكم دستورى جديد او قاعدة من قواعد القانون الدولى ، فى هذه الحالة الخاصة ، والى التأكيد على وجودها ، فيما له علاقة بمثل هذه الاحكام ، والى منع الدولة والمجتمع العالمى : باتخاذ اجراء ضمن نطاق صلاحياتها (التى يمكن ان تذهب وقتيا وراء حدودها المعروفة) بحيث تمنع مثلا جيوش قطرها من القيام بحرب ضد دولة اخرى . وتعارض بنجاح اى تحذير نهائى او عمل عسكرى . وعلى عكس ذلك ، فربما يكون لحادثة عالمية مهمة ، حادثة ظهرت عن طريق سلطة اجتماعية عالمية ، التأثير على مصير حكم قانونى وضع من قبل الدولة او وضع من قبل منظمة ذات شأن أقل أهمية من الدولة .

١٧ ــ ولتبسيط الامر ، دعنا نترك جانبا احتمال وقوع تقابل الاعمال من قبل السلطات الاجتماعية االمختلفة ونمسك بأثنين منها فقط : الاولى سلطة الامة ككل والثانية سلطة المجتمع العالمى : دعنا نفترض انه حينما تؤكد اية سلطة اجتماعية سيادتها ، التى غالبا ما تحدث بالنسبة لحكم القانون (وليس بالمهم اذا كانت محلية او عالمية) ، يستطيع الفرد ان يتكلم عن الدولة فى مثل هذه الحالة باوسع معانيها او فى حدود المعنى المألوف

للمصطلح . وفي هذه الحالات ، فما يسمى حاليا « بالدولة » سـوف لا يتصف دائما بهذه الميزات ، وذلك لان الدولة لاتوجد عندما تكون سيادتها رمزية فقط ، بعكس ما يقال أو يستنتجعن انجازات القانون الدولى الفعلية . على العكس ، فان الدولة توجد عندما تمتلك حقيقة هذه السيادة .

ولاثبات حقيقة سيادة القانون الدولى بصورة عملية وبنفس الوقت الصفة النظرية القانونية ، على المرء ان يحتفظ بفكرةالسيادة المطلقة ويهجر المبدأ الذى يقول ان الدول بالنسبة لمفهوم المصطلح فى الحاضر ، صاحبة سيادة في جميع الظروف . مع علمنا ايضا بجميع نقاط الضعف الخاصة بنظرية التحديد الذاتي للدول ، التى وضعها جيلنك (Jellinek) والمتضمنة الفكرة الخيالية التى تقول باحتمال اجراء توافق بينهـا وبـين سلطة القانون الدولى . وهنا نسأل على حساب مـن سيكون مثـل هـذا الانسحاب ؟ هل سيكون لحساب الدولة العالمية ؟ كلا . لانه فى دولة مثـل هذه لن يمكن التحدث عن القانون الدولى ، لان القانون الذى سيطبق فيها بصورة نافذة هو قانون داخلى . هل انه لحساب قاعدة موضوعية تستند على القانون الدولى ، أم ان ذلك نسبة الى المدارس الفكرية ، أم الى طبيعـة الانسان والمنطق ، أم لكونه ينطبق على مبدأ احترام العهود بين الدول (Pacta sunt Servanda) أو انه يستنـد على العـرف الدولى الذى يصبح بموجبه القانون الدولى فوق ارادة الدول ؟ ثم ما هى السلطة لهذا الحكم حين تستطيع الاعتماد على أسسها فقط ؟ كيف يستطيع الفرد أن يعقب مسألة التنفيذ والضمان ، اذا لم يكن وراءها ما يدعمها من سلطة او قوة مادية ، وهل انها ستـكون دولة عليا عند مقارنتهـا بمفهوم المصطلح الحالى « للدولة » ؟ لقد اثبتنا بالفعلبصورة واضحة ان فكرة القانون الناقص (Lax imperfecta) ما هى الا تناقض للمصطلحات وانه ليس هنـاك حاجة للرجوع الى هذه النقطة . ولـكن هل ان هذه الدولة العليا ، لن تكون ناحية سلبية لحكم القانون الدولى ، الذى كما قلنا انفـا ، سيصبح حكما لقانون داخلى ؟ ان الدائرة على ما يبدو مغلوقة .

ان ما تقدم يوصلنا الى أزمة ، وان الشيء الوحيد الذي يجب عمله ، القاء التبعة على مبدأ السيادة فهو يمنع ايجاد حكم قانوني يتمتع بالاسبقية على جميع الدول في خلافاتها او في الحفاظ على الحالة الدولية الراهنة ، اذ ان تقدير هذا الحكم او تلك الاحكام وتطبيق مبدأ السيادة في الواقع على المناسبة المعينة معناه صيانة الحكم القانوني القائم او تطبيق حكم قانوني جديد ، أي الحاق المناسبة بذلك الحكم نفسه .

ولقد قلنا ان فكرة القانون تقرر بعنصرين ماديين غير منفصلين عن بعضهما : قاعدة للسلوك الانساني وضمان مؤمن عليه من قبل سلطة اجتماعية لها قوة تنفيذية . وهذه السلطة في القانون الداخلي هي الدولة . ومع ان النظام السياسي للدولةوقواعدها الاجتماعية هي في تغير مستمر على مر الزمن الا أن صفتها القانونية ظلت هي هي ومن دون تغيير . ولكي نمنع من تقديم نقد جديد ، فيما يخص القانون الدولي لهذا الرأي ، بالنسبة لما تتطلبه الوحدة في المبدأ القانوني ، لذا فالشيء الوحيد الممكن اتخاذه هو تقدير هذا القانون من نفس وجهة النظر ، والقول ثانية وبصورة مخلصة تماما ، ان تطبيق هذا القانون يتم على يد الدولة . وهذا بالطبع يستلزم توفر شرط هو ان ضمان القانون الدولي هو شيء حقيقي ويمكن اثباته ماديا . فالحرب مثلا ، كما يؤكد كلسن ، هي أحد ضمانات القانون الدولي . وهي ضمان كامل من جميع الوجوه .

وما يجب ان نوضح بالاضافة الى ما سبق ، هو مبدأ وجود الدولة ، وصاحب السلطة الاجتماعية العليا في القانون الدولي . فما هو واضح ان مبدأ الدولة المشار اليه هنا لا يخص ما جاء في البداية والذي يناقض الحكم القانوني ، لانه اذا كان الامر كذلك فان علينا أن نرجع ثانية الى نظرية جيلنك (Jellinek) ومعنى ذلك اننا نحطم كل ما شيدناه . فالدولة كما نفهمها هنا ، هي الجهاز الذي يؤمن تطبيق حكم القانون الدولي : وقد تكون دولة وطنية موحدة (فيما له علاقة بالحكم المختلف عليه) او مكونة من

مجموعة دول وطنية • وعلى هذا فاننا نلاحظ ان فكرة الدولة فى القانون الدولى ، كما هو بالطبع فى القانون الداخلى ، تتبلور دوما حول حكم القانون المرجو تطبيقه او استعادة سطوته • وبصورة ملخصة ، فان السلطة الاجتماعية ذات الطبيعة العالمية ، على ضوء المستوى الذى نحن بصدد اختباره تستخدم قوة رادعة تؤمن لها تحقيق أهدافه المقصودة • وبالنسبة « للمدان » او الدولة الوطنية « المسؤولة » ، فانه لايقصد السلطان او صاحب السيادة ، وانما سيادة السلطة الاجتماعية للدولة التى تعمل على تحقيقها • وعلى اية حال ، فان هذا لا يمنع الدولة الوطنية من المحافظة على سيادتها داخل حدودها بما له علاقة بمواطنيها ـ الاشخاص الطبيعين والاشخاص المعنويين ـ أو ممارستها على النطاق العالمى ذاته ، وذلك فى حالة مخالفة قاعدة من قواعد القانون الدولى من قبل دولة اخرى غيرها ، بتقمصها ، لوحدها او بمساعدة الدول الاخرى ، دور هذه السلطة الاجتماعية الدولية ، اذ أن عدم تدخلها لحماية حكم القانون يفقد ذلك القانون صفته القانونية • ثم ان شخصية الدولة او التعريف بها كذلك ـ السلطة الاجتماعية الدولية ـ قد تتبدل فى كل حالة تخص حكما معينا من أحكام القانون • وفى نفس الوقت ، فان طبيعة الدولة تتغير ايضا بحسب موقفها • فهى اما ان تكون الدولة التى تفرض الجزاء او الدولة المفروض عليها الجزاء • فاذا كانت هى الدولة التى تفرض الجزاء ، فانها تصبح دولة علوية او عضوا فى عدد من الدول العلوية ، وهذا يعتمد على كونها هى وحدها تفرض الجزاء او بالاشتراك مع غيرها من الدول ، واما بالنسبة لنظامها القضائى ، فانها بهذا العمل لا تأخذ على عاتقها القيام بأى دور جديد • اما اذا كانت الدولة المفروض عليها الجزاء ، فانها تصبح من حيث المبدأ ، فى هذا الظرف بالذات ولوحده ، مقاطعة داخل دولة ـ السلطة الاجتماعية الدولية ، التى ترغمها على استعادة حكم القانون الذى خالفته • ثم ان تغير الظرف الذى خالفته يجب ان لا يحصل عادة ، وذلك فيما عدا ما له علاقة بذلك الحكم القانونى ، ولكنه اذا حصل فانه ربما يجلب عقوبات اوسع

ويجعلها تتحمل مسؤولية على نطاق عالمى : وكل ذلك يعتمد على طبيعة الحكم القانونى الذى خالفته ، وعلى الصفة والنتائج التى يحدثها الجزاء المطبق فى صدده (عقوبات اقتصادية ، حرب محدودة او شاملة ، يتم من دون قيد او شرط ، احتلال لمدة موقتة او مدة غير معلومة ، اخضاع جزىء او كلي) .

وطبيعى ان الدولة التى تعتبر مقصرة فى البداية قد تخرج منتصرة فى نزاعها ضد او مع الحكم القانونى الدولى : وحينئذ سوف يلغى الحكم القانونى المدافع عنه من قبل أعدائها أو أن يستبدل بآخر مناقض له أو مختلف عليه وستكون الدولة قائمة بدور دولة علوية . وفى مثل هذه الحالة ، فان الحكم البدائى على الدولة سوف يعدل : اذ لن يقال أنها خالفت الحكم القانونى الذى يدور حوله البحث ، ولكن سيقال انها اخذت خطوة سباقة للعمل على تعديله وبالطبع فانه يمكن تحقيق هذه النتيجة من دون بذل جهد حقيقى ، اذ ربما تتوصل اليه بمجرد تقديمها تصريح بسيط يعرب عن رأيها بصدد الدولة المطالبة باعادة النظر فى الحكم القانونى المعين . كما ان الموقف السلبى الذى تظهر به الدول الاخرى على ضوء هذا العمل ليس من الضرورى ان يعتبر اندحارا لهذه الدول : اذ قد يجوز اعتباره تصريح ضمنى بالموافقة على مثل هذا الاجراء. وعليه فكل شيء يعتمد على حقيقة الظروف للحالة المعينة .

الا ان حكم القانون ، بعد مخالفة تلك الدولة او نزاعها ، لا يجعل منها دولة علوية ، لان تطبيقها الجزاء او انتحالها صفة سلطة صاحب السيادة الاجتماعية العليا ، ليس بحكم قانونى ، وانما هو مجرد اتفاق قياسى (معاهدة ، العرف ، مبدأ عام) ليس بكاف ليعطيها تلك الصفة .

وحينما نضع مسألة حقيقة القانون الدولى بهذه الطريقة ، فانه ليس من المهم أن نعلم كيف تفصل أحكامه . هل هى أحكام مبنية على العرف او انها وضعت وفق اتفاقية او معاهدة ؟ أم انها وضعت وفق اتفاق أدبى أم

انها وضعت مقدما ؟ والمسألة هنا تخص السياسة أو التشريع الاجتماعى أو الشرعية وليست مسألة تخص القانون • فانه من الواضح ان بمجرد تطبيق القانون الدولى بصورة فعلية لمرة واحدة لا يمنع من البحث عن الاساس الفلسفى المنطقى أو الطريقة التى تجعل منه قانونا « عادلا » و « بناء » ، يعنى ويضمن تحقيق السلام والامن العالمى • ومهمتنا هنا هى ليست دراسة الوسائل التى توصلنا الى الهدف الاخير الذى يقع ضمن مدارك الناس والاكثر من ذلك ضمن مدارك من يقودهم ، ولكن للتأكيد على فكرة حكم القانون على النطاق العالمى • وقد يبدو أن هذا منالا صعبا ، بالنسبة للبعض ، او أن يصل درجة الخطورة بحيث يصبح قوة قسرية ، وهذا ما يتجنبه بالضبط اغلبية الفقهاء ، ولكننا نكرر ، ان ليس هناك شيئا يمنعهم من الباسه لبوسا يلائم أفكارهم •• فما يطلب العلم اذا منهم سعيهم على اجراء تمييز واضح بين (الجسم) ولبوسه ، اذ الاول يوصل الى القانون والثانى يتعلق بمسألته الشرعية •

ورأينا الخاص بحكم القانون يتلخص فى كون أن حكم القانون الداخلى يعيد نفسه بالنسبة لحكم القانون الدولى ، كما رأينا ذلك آنفا بالفعل ، وذلك عن طريق مبادىء مختلفة ومدارس فكرية متقابلة كالمدرسة القياسية (كلسن) والمدرسة الاجتماعية (سيل) • فكلاهما يؤكدان أن السلطة الاجتماعية العالمية ذات السيادة فى القانون الدولى هى الدولة الوطنية التى تبدل اجهزتها بالنسبة لتعاملها مع القانون الداخلى او القانون الدولى • وبهذه الصورة يحصل القانون الدولى على معناه التام ، ويصل الى ما كان يدعى فى الماضى قانون العلاقات الشخصية على المستوى الداخلى •

ولكننا سوف لا نعقب أيا من هاتين النظريتين الى النهاية • فالنظرية القياسية تبدو لنا نظرية غير دقيقة بسبب انها تربك اكثر من غيرها فى الغالب ، بين القانون وشرعية القانون ، كونها ترى بنظرها القواعدى ان الشرعية هى العنوان الوحيد للقانون • واما بالنسبة للمدرسة الاجتماعية ، وعلى الاقل بالنسبة للمدرسة التى حظيت بتقديرنا ، فاننا نشعر انها ليست

بحاجة الى التعليل للتوصل الى قلب جميع المذاهب الكلاسيكية تقريبا والخاصة بالقانون الدولى (موضوع القانون ، التميز بين القانون الدولى العام والقانون الدولى الخاص ، الخ ...) : اذ أن الوصول الى هذه المذاهب والى المصطلح « القانون لدولى » بالذات (بدلا من قانون الشعوب (Jus Gentium) الذى يفترض ويقود المرء الى الوقوع فى الخطأ بسبب أصله الرومانى) لهى مذاهب تناقض المذهب السليم للقانون الدولى[٣٠] .

١٨ ـ لقد قلنا فى معرض حديثنا السابق ان وجود دولة علوية او دولة عالمية يعطى مفهوما سلبيا للقانون الدولى . ولكن هذا القانون لايمكن ان يوجد من دون دولة علوية تضمن له ذلك الوجود . هذا يظهر لنا

---

(٣٠) للقضاء على نظرية السيادة المطلقة للدولة وذلك للتمكين من بحث القانون الدولى ، انكرت هذه المدرسة ان موضوع هذا القانون هو الدولة ، وهو المبدأ التقليدى . وبأخذ الشخص كموضوع للقانون الدولى ، فانها تجنبت على ما يبدو ما قد يقف امامها من صعوبة فنجحت فى وقوفها ضد الاسباب الوجيهة التى تلتف حول السيادة ولكنها اقترفت خطأ آخر . وبما ان الفرد لا يستطيع ولا يمكنه ان يكون صاحب السيادة ، فى حالة تغيب الدولة ، يصبح المجتمع حينئذ صاحب السلطان فى القانون الداخلى والقانون الدولى . ولكن هذا ليس بالحقيقة . ذلك ان مساندة القانون لا يمكن ان تأتى من المجتمع ككل . والمحاججة عكس ذلك معناه انكار وجود القانون ذاته . واذا ما أخذ المجتمع ككل ليدعم بصورة فعلية حكم القانون ، فان هذا الحكم لن يكون حكما قانونيا ولا حتى مجرد حكم . اذ حينما يتفق كل فرد ليختار شيئا ما ، فانه ليس هناك حاجة لوجود سلطة ووجود قانون من هذه الناحية بالذات . فلابد فى أى مجتمع ، فى الغالب ، من وجود سلطة اجتماعية اصغر منها ولكنها اقوى من المجتمع نفسه ككل : وعلى هذه السلطة يعتمد وجود القانون . ولا يمكن ان يكون هناك قانونا فى حالة تغيب مثل هذه السلطة . ولكن اذا كان هناك مجتمعا بالفعل ، فلا يمكن انكار وجوده واثبات وجود القانون . وهذه السلطة نسميها بالدولة باوسع ما للكلمة من مغنى .

وبسبب هذا التباعد المستمر عن الحقيقة ، فان هذه المدرسة يجب ان تسمى بمدرسة العالم الاجتماعى وليس بالمدرسة الاجتماعية .

تناقضا يجب ازالته اوبالاحرى يكون وجهة نظر لابد لنا من تعريفهـــا بصورة اوضح وذلك للقضاء على ما يظهر من تناقض • ولقد حاولنا بالفعل ازالتها عندما تكلمنا عن العلاقة بين القـــانون الداخلى والقانون الدولى ، وذلك بمناقشتنا ان العلاقة لا يمكن ان تكون من نوع الحاق قانون بقانون ، وانما الواقع عدم التطابق فى مجالات كل من القانونين المذكورين (انظر رقم (١٥) اعلاه) وعليه ، فاننا عندما نقول ان وجـــود دولة علوية يعطى مفهوما سلبيا للقانون الدولى ، فاننا نفكر باقامة دولة عالمية (World State) أى ايجاد دولة واحدة فى العالم تستطيع ان تضم فى نطاقها جميع الامم فى العالم ، دولة كفرنسا او المانيا ولـكن على نطاق عالمى • ولـكن عنـــدما نقول أنه لا يمكن التفكير بوجود قاون دولى من دون وجود سلطة عالمية ذات سيادة وأســـــبقية على الدول الوطنيـــــة ، فاننا نقصـــــد دولة علوية تقع خارج نطاق حكم القانون الدولى • وهـــذا النطاق يجب ان لا تخلط مهمته مع حكم القانون الداخلى حيث تحتفظ فيه الدولة كامـــل سيادتها • وبعبــــــارة أخرى ، فانه اذا ما أمكن وجود قانون دولى من الناحيـــة الفعليـــة التعليليـــة ، فانـه يجب أن يكون له دولته الخاصة بـــه لضمانه • ولـــكى يمكن ان توجد مثل هذه الدولة وتقوم بدورها ، فان حكم القانون الدولى الذى تسعى على ضمانه يجب ان لا يكون نفس الحكم فى القانون الداخلى والخاص بنفس الحالة ، ولان عمل العكس من ذلك ، سوف يجعل هذا الحـكم الاخير متمكنا من السيطرة على الحـكم الاول وتكون هذه الدولة معرفة كالدولة الوطنية (التى تفرض او يفرض عليها الحـكم الذى يجرى البحث بصدده) والذى سيكون مجرد ناحية سلبية للقانون الدولى • وتصبح المسألة بناء على ما تقدم مجرد مسألة تحديد نفوذ كل من هذه الدول بالضبط ونطاق تطبيق كل من مجموعة هذه الاحكام الذى بواسطته يستطيع الحـكم المعين ايجاد درجة سيادته التى هى ضرورية وفى الواقع مفيدة لوجود أى مبدأ وحكم قانونى ســـــواء اكان داخليا او عالميـــــا •

(٦)

١٩ ـ ان المبدأ الذى وضعناه ليس مبدأ جديداا أو على الاقل فانه ليس من الحداثة كما يظهر • ذلك لانه مجرد استعادة مذكرة ، على صورة نقد موجز للحالة التى يمكن أن يعبر عنها بكتيب تعقيبى أو كسجل مختصر للبحث فى القانون الدولى ، ماعدا بالطبع المقدمة والقسم العام لهذا الكتيب• لذا يمكن القول ان نظرية القانون الدولى تستند على مشاهدة الحقائق •

ولكن هذه الحقائق هى ليست بالحقائق المادية كالموت او الميلاد مثلا وانها تتضمن العوامل الادبية والتقديرية • وعلى اية حال ، فانه بمجرد وصولها ونشرها فان هذه التقديرات التى هى بالتعريف تتعامل مع المستقبل وتضم عناصر معينة ذات ميزات غير أكيدة وينقصها التبصر ، تصبح حقائق وأهداف اجتماعية وأشياء بالمفهوم الدرخمينى (Durkhemain) ومن ثم موضوعات علمية يمكن تفسيرها والتحدث بها •

ولكن الاشياء تأخذ مأخذا اخر عندما لا تصبح مسألة دراسة حكم قانونى وانما بناء حكم جديد • وهنا يغير التقدير الحقائق العلمية التى تخدم بمثابة نقطة البدء وبذلك تتغير طبيعتها نفسها : لا يمكن تفصيل قاعدة ، حين اخذها بمجردها ، لانها جزء من العلم ، أى انها حقيقة فنية او حقيقة سياسية • ويستطيع المرء ان يقول الانتقادات الموجهة ضد المدرسة الاجتماعية تستند على أسس واضحة وان موجدها الرئيسى وممثلها الحقيقى دوكى (Duguit) كان صحيحا حين اضاف الى مبدئه المسمى بمبدأ التضامن ، والذى فيه كان أول من رأى المصدر الحيوى للقانون ، الشعور بالعدالة التى تعمل بكل سرور عمل « الجسر » بين ما هو اخبارى وبين ما هو امرى[٣١] •

فمشاهدة وتفسير حقيقة ما ، هو شيء ، والمساهمة فى خلق هذه الحقيقة هو شيء آخر •

---

(٣١) فيما يتعلق بهذا الصدد ، انظر
Louis Le Fur, Règles générales du droit de la paix, op. cit, pp. 88-89.

٢٠ ـ لقد قلنا ان مبدأنا موضح فى أى كتاب موجز للقانون الدولى • ويمكن للمرء ان يقول ان هذا المبدأ يكشف عنه فى نظريات معينة تخص هذا القانون والتى نقدناها فى هذا البحث ، كنظرية القانون الطبيعى مثلا • وحينما يتحدث الكتاب عن القانون الدولى من ناحية الواقعية الحية ، فانهم يعترفون كاعترافنا بأنه ناتج عن حكم السلوك المقترن بضمان مادى وهذا الضمان غالبا ما يتوضح بالحرب(٣٢) • وان حكم هذا القانون وضماناته بنظرهم ليست كافية بحيث تشكل حكما قانونيا • الا انه من الضرورى ، والاكثر من هذا ، انهم يجب انيوفقوا بين ارائهم ومتطلبات التفكير الانسانى بما فيها من نواح امرية مصنّفة واخرى أدبية • وبافتقارها الى هذه الامور، والذى يظهر فى الحقيقة تحت اسم الحكم القانونى هو من الناحية القانونية عديم الاهمية أو بالاحرى أقل من لاشىء طالما انه قوة قسرية ، قوة فيها من المخالفة ما هو غير انسانى ، يظهر على شكل القمع فيسبب من بعده أعلى أنواع الغضب والثورة الشرعية • وهذه الحالة التكميلية لا نجدها تحمل اية قيمة حقيقية على اية حال ، لعدم وجود احد لحد الآن يستطيع ان يقول تماما ماهية هذه المتطلبات الفكرية ، وماذا تتضمن بالضبط ، وما هو مداها وحدودها ، وكون من الجهة الاخرى ، ان الدول هى الحكم الوحيد لتقرير ما هو حق وما هو غير حق ، وعندها يقل من شأن المسألة بالضرورة لتعود الى مذهب الحكم الواقعى للقانون الذى نختاره هنا لان هذه النظريات نفسها مجبرة فى بحوثها الوصفية لقبول اهداف دراساتها •

اما موقفها الفكرى ، فكما اشرنا اليه بالفعل فى بداية دراستنا هذه ، فهو موقف خطر ، ذلك لانه اذا ما رفض المرء من قبول هذا الحكم القانونى الذى هو قانون بطبيعة ، فان ذلك قد يعتبر غير عادل من قبل البعض ، بسبب الرفض بقبول هذه الصفة ما عدا حالات خاصة هى فى الواقع غامضة وغير

---

(٣٢) انظر مثلا

Louis Le Fur, op. cit., pp. 115 and 116; Précis de Droit international public, nos 377.

ممكن التعريف بها ، اذ أن أنكار المرء لحقيقة القانون الدولى هو العكس تماما لما هو يحاول تطبيقه .

وهذا النقص فى حججهم لا ينتج على كل حال عن قصد وانما من جراء الطريقة المتبعة ، تلك الطريقة التى لا تفصل بين الجزء العلمى والجزء الفنى فى تعاليمهم . فهم لم يوفقوا فى أن فهم دور العلم يتضمن تسجيل الوقائع واختبارها ، وليس بالحكم لان التقدير يعود الى السياسة تماما حيث يقدر فيه كل انواع الحريات والمشاعر والعواطف . ولقبول ، مثلا ، ان معاهدة فرساى ، حينما نفذت بالقوة كانت مجموعة من الاحكام القانونية ، تنطبق على العلم ؟ ولانتقاد مثل هذا الموقف ، من ناحية تحزبية بقدر ما يتطلبه الموقف ، فانه ينطبق على السياسة وربما يقود الى ايجاد قاعدة جديدة للقانون ولكنها لا تنطبق على العلم .

وهذا السبب الذى يجعلنا نقدم هنا ، جنبا الى جنب النظريات التى تنكر صراحة حقيقة القانون الدولى وتلك النظريات التى تؤكد وجوده وتفصله من بعد ذلك ، والنظريات الاخرى التى تعترف به كحقيقة ولكنها تؤكد ناحيته الادبية أو أساسه « الفلسفى العقلى » . ولقد رغبنا فى استخدام كل هذه النظريات لتكون كمثل يؤكد لنا ، على ضوء الحكم القانونى ضرورة التمييز بين « القانون »[٣٣] وشرعية القانون [٣٤] ، لان مثل هذا التقدير قد

---

(٣٣) ليس من الضرورى ان يكون هذا القانون قانونا ايجابيا وضع تحت قواعد خاصة . انه قانون مهم ، قانون يمكن تطبيقه حتى فى أول نشوئه .

(٣٤) الشرعية كما نفهمها هنا هى فكرة مركبة والتى لم نتمكن من دراسة نواحيها منفردا لضيق البحث . وهى تشتمل على ثلاثة خصائص للحكم القانون : (١) تطابقها مع العدالة حيث الشرعية تظهر فيها كما جاء فى اصطلاح (Kant) ، فى شكل أدبى ، (٢) تطابق الحكم مع ما يتافر من حقائق علمية التى تعطيه الموضوعية المادية كما هو ظاهر فى ابحاث (F. Geny) ، (٣) تطابق الحكم مع النظام السياسى والتنظيم الفنى (مبدأ اللاسريان على الماضى ، الالزامى ، مبدأ الفصل بين السلطات .. الخ ..) ، الذى يتوخى تأمين ، وتشكيل وجهة نظر رسمية ، والشعور بالثقة فى ابحاث القانون (الشرعية الرسمية) .

أغفلته تماما هذه النظريات .

لاننا اذا لم نجر التمييز فسوف يكون هناك خلط يمنع بذاته اجراء أى تفسير . ولقد كان توضيح هذه الحقيقة بدقة وباسلوب رصين الغرض الاساسى من هذا الدراسة .

نشأة المسرح الاغريقى

للدكتور كمال قاسم نادر
المدرس في قسم اللغة الانكليزية

عندما نتحدث عن المسرح الاغريقى ، اننا فى الحقيقة نتكلم على المسرح الاثينى ، لان أثينا كانت هى السباقة فى هذا المجال بين المدن الاغريقية الاخرى . وكل ما وصل الينا اليوم من مسرحيات اغريقية انما هى مسرحيات كتبت فى اثينا ومثلت امام اهاليها . وقد ازدهرت المسرحية فى اثينا ايام ازدهار المدنية فيها وسمت أيام كان الاثينيون يتمتعون بالديمقراطية وذلك بعد انتصارهم على الفرس بين ٤٠٩ – ٤٧٩ ق.م. والمسرحية بمفهومها الصحيح ظهرت فى اثينا عام ٤٩٠ ق.م. وذلك عندما مثلت فى تلك السنة اول مسرحية وصلت الينا من مسرحيات « أسكيلس » وهى مسرحية المتضرعات (The Suppliants) ولكن هذا لا يعنى أن المسرحية بدأت على هذا الوجه الكامل . فانه من المحتمل جدا أن يكون الفن المسرحي موجودا فى اثينا قبل مئات بل ألوف السنين ومن هذا التاريخ . وأسكيلس لم يكن اول من اخترع المسرحية انما هو طور لفن كان قائما ورسخت اصوله عبر أجيال .

ونحن لا نعرف بصورة دقيقة الاصل الذى نشأت عنه المسرحية الاغريقية . اذ تعوزنا الحقائق الثابتة ، وكل المحاولات فى هذا المجال كانت ولا تزال مجرد حدس وتخمين . ولكن هناك حقيقة واحدة مهمة وهذه الحقيقة واضحة لا تقبل الجدل . وهى ان المسرحية كانت منذ تكوينها الاول جزءا من مهرجانات وطقوس دينية ، اى ان الجمهور لم يكن يأتى لاشباع رغبة فردية بل لتأدية فريضة دينية .

والمتفق عليه بين مؤرخى المسرح هو ان المسرحية الاغريقية أنبثقت من الدايثرم (Dithyramb) ، أى ان النواة التى التى نشأت عنها مسرحيات أسكيلس وسفوكليس ويربديز هى الدايثرم القديم . والدايثرم عبارة عن

اغنية تؤديها جوقة من المغنين • يحمدون فيها الالهة ويشكرون نعمتهم • وتكون عادة على شكل قصة شعرية تروى سير الآلهة ومعجزاتهم • وكان الدايثرم في اول امره عملا آنيا يرتجله المغنون عندما تهيج مشاعرهم وتأخذهم نشوة الطرب • ثم لم يلبث ان شمله التطور فأدخلت عليه التحسينات تدريجيا وكان ذلك في الغالب حوالى القرن السابع او السادس قبل الميلاد • عندما اخذ الشعراء ينظمون القصائد التي يغنيها المحتفلون • وكانت هذه القصائد تروى سير الالهة وقصص حياتهم • ولا يمكن – على أية حال – اعتبار الدايثرم مسرحية مصغرة لانعدام الحركة المسرحية فيه ولانه يعتمد بالدرجة الاولى السرد والرواية •

ثم طرأ على الدايثرم تطور آخر وذلك عندما ظهر رئيس الجوقة وانفصل عن بقية اعضاء الجوقة مما أدى الى خلق الحركة المسرحية الحقيقية – او بمعنى أدق – الى تحويل القصة السردية الى التمثيل المباشر •

وفي القرن السادس قبل الميلاد حدثت الخطوة الحاسمة حتما • ويعتقد المؤرخون ان هذه الخطوة تمت على يد ثيزبيس (Thespis) اذ ادخل الممثل لاول مرة على المسرح • والممثل غير رئيس الجوقة • فرئيس الجوقة يروى القصة والممثل يقوم بالدور بنفسه • اى ان الممثل يأخذ على نفسه تمثيل دور الشخصية الخيالية التي يأخذ دورها • واستعملت الاقنعة في التمثيل • وهكذا كان يتمكن الشخص الواحد ان يمثل ادوارا متعددة لشخصيات مختلفة • ولكن لا يكون على المسرح اكثر من ممثل واحد في أى حال من الاحوال • وثيزبيس يقترب بنا من أسكيلس • وقد كان ثيزبيس مؤلفا وممثلا • بدأ حياته المسرحية في مدينة ايا كاريا (Icaria) ثم انتقل منها الى اثينا حوالى سنة ٥٦٠ قبل الميلاد • وليس لدينا وثائق مضبوطة عن حياته ولكن هناك شواهد تشير الى أنه في سنة ٥٦٠ قدم مسرحياته في مدينة أثينا ، وربح الجائزة الاولى في المباريات المسرحية لعام ٥٣٤ ق•م• وقد كان لهذه المباريات المسرحية أثر بليغ في النشاط المسرحي اذ انها شجعت

الكتاب على كتابة المسرحية • فظهر كتاب مسرحيون كثيرون نهجوا نهج ثيزپيس واقتفوا أثره • فظهر كويرلوس (Choirelos) الذى كتب عددا كبيرا من المسرحيات ، ويقال انه ألف (١٦٠) مسرحية كما أنه ادخل بعض التعديلات على القناع الذى أخترعه ثيزپيس • والكاتب المسرحى الثانى هو براتينس (Pratinas) وقد تخصص هذا بكتابه المسرحية المعروفة بأسم ساتيرك (Satyric)

ثم جاء فراينيكوس (Phrynichos) الذى ادخل الى المسرح قناع المرأة وبذلك اخذت الادوار النسائية تظهر على المسرح مع العلم بأن الذكور هم الذين كانوا يقومون ـ قبل ذلك ـ بتمثيل الادوار النسائية بعد ان يرتدوا قناعا يمثل وجها لامرأة •

وقد ضاع تراث هؤلاء الكتاب المسرحين ولم يصل الينا شيء من مسرحياتهم • ولم يبق من آثارهم غير تلميحات عابرة وقليل جدا من الوثائق التاريخية واجزاء مبتورة من كتابتهم لا تتعدى اصابع اليد الواحدة •ولذلك فان كل ما نراه عبر القرون ليس الا مجرد بصيص من نور ولم يبزغ فجر المسرح الا بعد ان ظهر ابو المسرح أسكيلس •

أسكيلس (Aeschylus)

يعد أسكيلس الكاتب المسرحى الاول • والمتضرعات هى أول مسرحية كتبها ووصلت الينا • وقد ألف أسكيلس هذه المسرحية حوالى سنة ٤٩٠ ق•م•

اقتبس أسكيلس حوادث مسرحيته من أسطورة اغريقية قديمة • تدور حوادثها فى زمن ما قبل التاريخ • وهى قصة غرام الاله سوز وآيو الكاهنة في معبد هيرا • وكانت آيو هذه ابنة اناكس ملك اركوس • ولما علم هيرا بهذا الغرام ثارت غيرته وقلب آيو بقرة وسابت مجنونةتجوب العالم حتى وصلت أخيرا الى مصر • وهناك ارجعها تروس الى حالتها الاولى أى أنها رجعت آدمية وبلمسة من يده حملت طفلا اسمته آيامض والذى أنجب

ليبا وهذا انجب ولدين هما بلص واكينور وولد لبلص ولدان هما ايجيبتص ودانوس • وقد ولد لايجيبتص خمسون ولدا ولدانوس خمسون بنتا • وقد نشب بين الاخوين خلاف خطير • فقد رفضت بنات دانوس الزواج من اولاد ايجيبتص • فثارت ثائرة ابناء عمهن • وخوفا من شرهم هربت البنات وابوهن الى بلد اركوس موطن جدتهن آيو • وهنا تبدأ مسرحية أسكيلس ؛ تبدأ عند وصول دانوس وبناته الى سواحل اراكوس طالبين حماية ملكها •

والآن وقد جلس المتفرجون على سفح التل حيث ينتصب معبد الاكروبليس (Acroplis) وعند سفح التل تنبسط الارض على شكل دائرى اقيم فى وسطها محراب • والوقت هو فجر يوم عيد دايونيسيس رب الخصب والخير ، وهو يوم الاحتفالات والمهرجانات الدينية حيث يشاهد الاثينيون ما يقدم اليهم من نتاج مسرحى • وقد خيم على المتفرجين الهدوء فيصدح الناى معلنا ابتداء العرض المسرحى فيندفع خمسون شبحا نحو مركز الدائرة منتظمة حول المحراب • والخمسون شبحا هى الجوقة وقد ارتدى افرادها ملابس بيضا مطرزة • والجوقة فى هذه المسرحية تتألف من بنات دانوس الخمسين • وقد وقف بينهم رجل واحد يرتدى ملابس نفيسة ، « وجزمة » عالية الكعب وعلى وجهه قناع يعلو فوق رأسه على شكل تاج • وهذا هو دانوس والد الفتيات • وتقود الجوقة احدى الخمسين وهى رئيسة الجوقة •

وبعد سكون قصير تنشد الجوقة مقطوعة تقدم فيها نفسها لجمهور المتفرجين وتعرض كذلك المشكلة التى تدور حولها المسرحية • فتقول :

زوس يا رب ، يا حارس الايدى المتضرعة ،
تطلع علينا برحمتك ، نحن المضرعات ،
ارحمنا ـ نحن الذين ساقتنا الريح والماء ،
وجئنا من ارض مصر ذات الرمال السافية ،
حيث يصب النيل فى البحر ،

جئنا من الارض الخضراء التى انعم الله عليهـا
هربنا مشردين ، وما شردنا لجريمة قتل جنيناها ،
ولـكن لان ايجيبتص قـد قرر ان يزوج
اولاده من بنـات اخيـه
فلم نرض بهذا العقد الكريه
فعرضنـا عـن زواج الابـدان لا القـلوب
اننا لا نريد قريبنا زوجا لنا .

ثم يتناول النغم الجزء الثانى من الجوقة . والخطاب الآن موجـه الى الاب دانوس وهكذا يتعرف عليه الجمهور المتفرج :

يا دنوس ، يا سيدنا ورائدنا
يا من يتدبر الامور ويرقب الحظ
لقد أخترت من الشرين اهونهما
فطلبت اليـنـا الفرار وجئت هـاربا
غير آبه بالرياح العاتية ولا البحار الزاخرة
وجئنا بسرعة عبر البحـار الشـاسعة
وقد رسا زورقنا التائه على ساحل اركوس

وهكذا عرفنا من الجوقة هوية الفتيات والمكان الذى هن فيـه الآن وعرفنا من يكون الرجل الذى يصطحبهن . كمـا اننا الآن عـلى علـم بخطبهن . ويجب ان لا يفوتنا ان المتفرجين من اهالى اثينا يعرفون قصـة المسرحية قبل ان يروها لانها ـ كما رأينا ـ مأخوذة عن أسطورة مشهورة من أساطيرهم . واهم ما يتميز به جمهور المتفرجين فى أثينا آنذاك هـو انه لا يبغى من القصة ان تكون جديدة او غير مألوفة . ولـكون القصـة مألوفة للجمهور يكرس الناس جل انتباههم للتمتع بسماع شعر الشاعر وطريقته فى معالجة هذا الموضوع القديم .

وتستمر الجوقة فى انشادها وهى تصحب كل مقطع برقصة معقـدة

الحركة • ثم بعد ان تهدأ اصواتهم واجسامهم تنتظم الفتيات حول المحراب بينما يقف ابوهن دانوس على حافة الدائرة • فيخاطبهن محذرا وناصحا • كما يعلن توقعه وصول ملك اركوس وجنده ويقول :

اعبدن هذا المحراب المقدس
محراب الالهة الصغار والالهة الاكبر •
لقد حل في هذه الديار سرب من الحمام المذعور
ولم يرعبه صقر اجنبى
بل واحد من اهله ولـكنه قاسي غير راحم
كريها ، محروما من الحب

وهنا يدخل شخص يرتدى ملابس وقنـاعا ملوكيـا فيعلن بأنه الملك بلاسكس ثم ما ان يرى ملابس الفتيـات فيعرف ان الفتيات اجنبيـات • ويستفسر عن سبب مجيئهن الى اركوس • وهنا تبـدأ عقدة المسرحية • ما هو مصير الفتيات ؟ هل ينلن الحماية من ملك اركوس • وبعد ان تطلب البنات الحماية من الملك يجيب الملك قائلا :

انكم لا تجلسون فى داري
ورجاؤكم لا يتعلق بي وحدي
اذا ما كانت المدينة لا تتحمل وصمة ما
فانه من واجب الجميع ازالتها
ولذا فانى لا أعد شيئا
قبل اجتماعى بممثلى الشعب
واخذ رأيهم

ويكون لهذه الـكلمات وقع حسن على مسامع الاثينيين لان الجمهور دمقراطي يفتخر بأن رأى المجموع هو الحكم النهائى • وهـذا ما كان سائدا انذاك فى اثينا التى كان يعيش فيها أسكيلس •

ثم يخرج الملك من على المسرح ليستشير المجلس الوطنى • وعندما

يترك المسرح ترن فى اذنيه كلمات الفتيات وهن يهددن بالانتحار اذا رفض المجلس حمايتهن •

وبعد ان يترك الملك المسرح تغنى الفتيات دعاءا الى زوس ويطلبن رحمته • وهذه الاغنية تعطى الملك فرصة لكى يقوم بمهمته فيدعو المجلس الوطنى ويطرح عليه القضية وتناقش • وهذا طبعا لا يجرى امام المتفرجين انما يتصورون ذلك • وبعد ان تنتهى اغنية الفتيات يدخل ابوهن وعلى شفتيه البشرى السعيدة فيقول :

عبر اهل اراكوس عن رأيهم بصوت واحد
فاهتز لذلك قلبى العجوز
وطربت له السماء فرحا
فقد رفع المجتمعون اصواتهم واقسموا هذا اليمين :ـ
ستعيش الفتيات بحرية فى هذا البلد
لا يعترضهن ولا يعبث بهن مخلوق
ولن تستطيع اية يد ، سواء كانت وطنية أم اجنبية
اخراجهن من هذا البلد •

وعندما تسمع الجوقة هذه البشرى تندفع مغنية شاكرة الالهه على حسن رعايتها وعندما تنتهى هذه الاغنية يتطلع دانوس الى البحر فيعلن عن وصول سفينة الاعداء • وصل اولاد ايجيبتص والآن يخرج دانوس ليستنجد بالملك • ويستولى الذعر على الفتيات فيجتمعن حول المحراب صارخات مولولات •

يا ارض الهضاب والسهول ، يا أيتها الارض المقدسة
ماذا سيحل بنا ؟
الى اين المفر ؟
ها هى سلالة ايجيبتص القاسية
تقتفى أثرنا ككلاب الصيد الضارية

وهنا يدخل رسول اولاد ايجيبتص فيعلو صراخ الفتيات ويحاول الرسول ان يسوقهن عنوة الى السفينة بينما هم على هذه الحال يدخل الملك بلاسكس ومعه يبزغ فجر الامل • فيصيح بالرسول قائلا :

اعلموا انه اذا استطعتم كسب الفتيات بالاقناع
لا بالقوة • فلكم ان تخرجوا بهن
ولكن ان يكون ذلك بكامل رغبتهن
وهاكم قرار مدينتنا وقد اجمعت عليه :
لا تستطيع اية قوة ان تحمل الفتيات على الرحيل
لقد اقسموا على هذا ولن يتنازلوا عن قسمهم
والآن وقد سمعتم قولنا نقوله بملء ارادتنا
فهيا اغربوا عنا ـ سراعا ولا تتأخروا •

وهنا ينسحب الرسول مهددا بالويل والدمار • اما الفتيات فيعلوهن الفرح وينطلقن منشدات يمتدحن اهل اركوس • وهكذا تنتهى المسرحية • وهذه الحلقة الاولى من ثلاث حلقات • ولكن المتفرجين لا يتركون مقاعدهم • فما هى الا فرصة قصيرة حتى يعم السكون ثانية وتبدأ الحلقة الثانية من القصة • ونحن لا نملك الحلقة الثانية ولكن فحواها معلوم لان الاسطورة معلومة • وفيها تدور القصة حول اغتصاب الفتيات من قبل اولاد ايجبتص واكراهن على الزواج وفى الحلقة الثالثة نشاهد مصيرهم النهائى • فالبنات جميعهن (الا واحدة هى منيسترا التى تحب زوجها) يقتلن ازواجهن • وهذه هى نهاية الاسطورة •

التقاليد الدرماتيكية فى المسرحية الاغريقية

والآن علينا ان نستنبط اهم الاسس الدرماتيكية للمسرح الاغريقى مستعينين على ذلك بمسرحية المتضرعات لانها دليلنا الوحيد • وهنا تظهر اهمية هذه المسرحية فهى تكشف عن العناصر التى ورثها أسكيلس من

الـكتاب الذين سبقوه ومنها ايضا نستطيع تمييز خط تطور المسرحية بعد اسكيلس •

ان المسرح كما نفهمه اليوم لم يكن موجودا آنذاك • وهذه الحقيقة واضحة كل الوضوح في مسرحية المتضرعات • فالمتضرعات بسيطة وبدائية • وفيها يتحرك الممثلون في وسط ساحة خالية من المناظر والاثاث • وهذه المسرحية قريبة كل القرب من الشيء الذى عنه انبثقت وهو الدايثرم • فالحركة المسرحية محدودة جدا • والبطلة فى المسرحية ليست فتاة واحدة بل الجوقة بأجمعها والتى تمثل بنات دانوس الخمسين ، اى ان البطلة جماعية لا فردية • ولذلك فالتصوير الفردى معدوم وبنات دانوس كتلة واحدة لا يفرقها مفرق • اى أنه ليس هناك مجال لاظهار المميزات الفردية للشخصيات المسرحية •

ولـكن كما سبق ان قلت ان فى هذه المسرحية تبدو جلية اهم مميزات المسرح الاغريقى • فالمسرح الذى مثلت عليه المتضرعات كان مسرح مناسبات دينية وعليه كان يتبارى الكتاب المسرحيون الذين هم انفسهم كانوا ممثلين • اما نفقات الاخراج فكان يضطلع بها بعض الاثرياء من اهالى المدينة وهم يقومون بذلك كواجب دينى او كخدمة اجتماعية • وكان فى أثينا موسمان للمهرجانات المسرحية • الاول يوم عيد دايونسيس فى الربيع والثانى فى عيد لينيا فى الشتاء • اما ملابس الممثلين فقد كانت من صنع أسكيلس نفسه • وكانت هذه عبارة عن كساء فضفاض مزركش وكان الممثلون يرتدون احذية عالية كى يبرزوا على افراد الجوقة • وكان الممثلون يرتبون شعر الرأس على شكل خاص • اذ كان يضفر على هيئة ضفيرتين بعقد طرفيهما فوق الجبين •

ويجب ان نتذكر ان الـكاتب المسرحى كان عليه ان يقدم اربع مسرحيات لـكل مباراة مسرحية ، ثلاثا منها مآسى كما لاحظنا ذلك فى

المتضـرعات والرابعـة مـن نوع يسمى بالساتاير (Satyre) [1] وهى ملهاة • والعادة هى ان تدور المآسى الثلاث حول قصة واحدة وكل حلقة تكشف عن جزء من المأساة وتتم كل حلقة الحلقة التى تسبقها • وكل حلقة محدودة بمكان معين تجرى فيه الحوادث • ولا يجوز الانتقال من مكان الى آخر خلال المسرحية الواحدة ففى المتضرعات تجرى حوادث المسرحية الاولى فى اركوس والمسرحية الثانية فى مصر والثالثة عند مشهد الموت • وكذلك الزمن يجب ان يكون محددا • اى ان جميع الحوادث يجب ان تحدث فى نفس اليوم •

ويجب ان لا ننسى بأن المسرحية الاغريقية مسرحية شعرية • ومعنى هذا انها لا تتقيد كثيرا بالتأثير الواقعى اى انها خيالية اكثر من ان تكون واقعية • فمثلا ملك اركوس يترك المسرح ليعود اليه ثانية بعد فترة وجيزة تغنى خلالها الجوقة ثلاثة او اربعة أبيات من الشعر • وعلى المتفرجين ان يتصوروا ان الملك خلال هذه الفترة الوجيزة قد ذهب الى المجلس وعرض عليه المشكلة وتداول فيها واتفقوا على الدفاع عن الفتيات ثـم يعود بعدهـا ليعلن هذا القرار • يتخيل المتفرج حدوث كل هذا خارج المسـرح بـين خروجه منه وعودته اليه • ولم يكن هذا اكثر من لحظات معدودة • ولكنه لا يربك المتفرج الاثينى لأن المسرحية الشعرية تعتمد الخيال لا الواقع •

الجـــوقة Course

للجوقة مكانة مهمة فى المسرحة الاغريقية وهى فى الحقيقة عمودها الفقرى • وقد لاحظنا أن الجوقة فى مسرحية المتضرعات تتألف من بنات دانوس الخمسين •

---

(١) ساتاير معناه الاسطورى مخلوق نصفه الاعلى انسان والنصف الاسفل معزة • والجوقة فى هذا النوع فى المسرحية تظهر على هيئة مخلوقات نصـفها العلوى آدمى ونصفها السفلى معزه • وكان أعضـاء يرتدون لهذا العرض ملابس جلدية لها ذيول مربوطة حول الخصر • اما المواضيع التى تتناولها هذه المسرحية فهى عادة قصص المجازفات والمخاطرات ويتخلل ذلك المفارقات والنكات والدعابة وتكون عادة نهاية هذه المسرحية سعيدة •

ويبدو انهذا هو العدد المقرر لافراد الجوقة عند اول نشوء المسرحية الاغريقية • ولكن ، على مر الايام ، تقلص هذا العدد ولعل السبب في ذلك يعود الى صعوبة ضبط غناء ورقص خمسين شخصا في آن واحد • وقد جعل سفوكليس عدد الفرقة (١٥) شخصا • ولهذا العدد اسباب فنية• لانه من الممكن ان يقوم كل خمسة اشخاص بغناء ثلاثة ابيات على التوالى • ثم انه باستطاعة رئيس الجوقة ان ينفصل عن بقية الاعضاء تاركا خلفه جزئين متكافئين عدد كل منهما (٧) اشخاص • وكان تطور المسرحية الاغريقية دائما على حساب الجوقة فكلما تطورت المسرحية قل شأن الجوقة وتقلص عملها • • وهذا هو الخط الذى سارت عليه المسرحية في تطورها منذ ظهور أسكيلس حتى وفاة يروبديز • فالجوقة عند أسكيلس عنصر مهم في المسرحية • وفى المتضرعات كما شاهدنا ، تمثل الجوقة بمثل بطلة المسرحية • وهذا هو الشكل البدائى للمسرحية عندما كانت المسرحية تجر نفسها ببطء مبتعدة عن أصلها الذى نمت عنه وهو الدايثرم • ومع ان الجوقة لا تختفى بصورة قطعية من المسرحية الاغريقية الا ان دورها يأخذ بالتضاؤل تدريجيا • ففى البداية تمكن ثيزيس من عزل المسرحية عن الدليترام وذلك عندما خلق دورا للممثل بالاضافة الى الجوقة وبرئيسها• ثم جاء أسكيلس فأدخل الممثل الثانى ولكن دور الممثل الثانى عند أسكيلس كان محدودا جدا وضمن نطاق ضيق جدا • ففى المتضرعات منظران فقط يظهر فيهما ممثلان في آن واحد • المنظر الاول عندما يظهر دانوس وبلاسكس معا والثانى عندما يظهر بلاسكس والرسول • وهذا جل ما توصل اليه أسكيلس وظل متوقفا عند هذا الحد ولم يزد على الممثلين شيئا • ثم جاء بعده سافوكليس فأدخل الممثل المتكلم الثالث • اى انه اعطى ثلاثة ادوار كلامية لثلاث شخصيات مجتمعة في آن واحد • وهذه غاية ما توصلت اليه المسرحية الاغريقية • ولكى نوضح المقصود بهذا نأخذ مثلا من مسرحية الاورستيز • ففى نهاية هذه المسرحية يحتاج المؤلف الى وجود منيلس واورستز والاله ابولو على المسرح • ولكل من هذه

الشخصيات دور كلامى • وبالاضافة تتطلب القصة وجـود الفتاة هيرميون وبيلادس • اما هيرميون فهى تقف خرساء طيـلة المنظر ولا تقول كلمـة واحدة ولذا فليس هناك أى مشكلة • ولـكن المشكلة تتعلق بأمر بيلادس• ويقف بيلادس صامتا طيلة المنظر ثم يلتفت اليه منيلس قائلا •

« وهل انت يا بلادس شريكا فى هذه الجريمة الشنعاء » • وهنا يتدخل اورستيز بسرعة قائلا •

« ان سكونه يؤكد أنه كذلك » وهكذا اغناه اورستيز عن الجواب • ثم يؤمر بلادس بالخروج وهكذا يخرج دون ان يقول كلمة واحدة وبهذا لم يكن اكثر من ثلاثة ممثلين لهم ادوار كلامية •

هذه لمحة تعرضت فيها الى أصل المسرح الاغريقى ونشأته وحاولت فيها رسم الخطوط العريضة لتطور المسرح الاغريقى • كما انى حاولت ذكر اهم التقاليد الفنية للمسرح الاغريقى •

أهم المراجع :

Kenneth maggowand and william Melnitz, The Living Stage: 1952.
A.M. Nagler, Sources of The Theatrical History: (1252).
Allardyce Nicoll, World Drama: (1949).

صرح بابل المدرج أو (الزقورة)[1]

بقلم الدكتور محمود الامين

اسمه عند البابليين إي تمينانكن E-Temenanki أي قاعدة السماء والارض • وقد ورد وصفه في الكتابات المسمارية وتدوينات المؤرخين التي ساعدت البعثة التنقيبية الالمانية أثناء حفرياتها في بابل في مستهل القرن العشرين على تتبع أسسه ومعرفة المساحة التي كان يشغلها هذا الصرح • وقد ذهب معظم معالمه لا سيما بعد أن امتدت أيدي السكان المحيطين بمدينة بابل الى أنقاضه فاستعملوها في بناء البيوت ومن جملتها بلدة الحلة • ويمكن مشاهدة آثار هذا الصرح التي لاتعدو عن بقايا حفر كثيرة يستدل منها على شكل هيكله العام الذي كان مبنيا باللبن وبشكل مكعب بقي من طول ضلعه حوالي ٦٠ مترا • كذلك يمكن رؤية بقايا ثلاث طبقات من مدرجاته في الجهة الجنوبية الشرقية • وقد أيدت نتائج الحفريات جميع ما ذكره البابليون من وصف لهذا الصرح العظيم الذي كان يعد من عجائب الارض السبعة • وتمكن الاثريون والمؤرخون عن طريق الوصف الذي دونه البابليون عن مدينتهم بابل ومعابدها وزقورتها وكذلك من أخبار المؤرخين والرحالين الذين زاروا بابل في أواخر أيام عزها ، من معرفة شكل الزقورة وعدد طبقاتها وارتفاع كل طابق منها • ونشر عدد كثير من المختصين بتاريخ الحضارة العراقية القديمة وصفا ضافيا عن برج بابل معتمدين في استخلاص هذه المعلومات على الكتابات المسمارية وكتب المؤرخين القدامى من اليونان والرومان أمثال هيرودوت وديودور •

---

(١) الزقوة ومعناها في الآشورية زكوراتو وتعني المعبد المدرج الشامخ في الارتفاع • وتتضمن كلمة تدبب أو القمة Zigatu ولعل كلمة زكوغ (ر) السائدة في اللهجة الموصلية والتي تطلق على كتلة متماسكة من الجص تشير الى الاصل الآشوري • كذلك تعني كلمة زكاتو الحجر الخاص ببناء الزقورة (راجع القاموس الآشوري لمؤلفه Bezold) •

لا نعرف بالضبط متى بنيت زقورة بابل وقد كانت بلا شك قائمة فى زمن الدولة البابلية الاولى (١٨٣٠–١٥٣٠ ق٠م٠) التى رفعت الاله مردوك الى مرتبة رئيس الالهة فى قصة الخليقة البابلية التى أخذوها عن السومريين ووضعوها بالصيغة التى أرادها كهنة بابل ليكون إلههم مردوك البطل الوحيد بين الآلهة الذى قضى على تيامت الهة الفوضى والاضطراب عند بدأ التكوين٠ ويظهر من النصوص والتراتيل الدينية أن الآلهة التمسوا مردوك عقب انتصاره على تيامت ، وهى أن يسمح لهم لأن يبنوا له معبدا وصرحا مدرجا ٠ وقد أتموا بناء المعبد إيزاگلا" بما فيه قدس الاقداس وكذلك بناء الزقورة ومعابد صغيرة أخرى لهم ، فى سنة واحدة وأقاموا له حفلة تدشين رائعة ثم نصبوا عرشه وقوسه فى السما ٠[٢]

وقد وردت الاشارة الى المعبد إيزاگلا" والزقورة فى الملحمة الشعرية البابلية لقصة الخليقة البابلية بالمعنى التالى :ـ

« نريد أن نبنى بلاطا للآلهة ، يسمى باسمك ،
ليكون سكنا لنا نأوى اليه للراحة ،
ونريد أن نبنى بلاطا للآلهة ليكن بيتا لك ،
لكى نستريح فيه عند زيارتنا لك ٠ »

على أن أخبار الملوك الذين سبقوا قيام الدولة البابلة الاولى تشير الى وجود الزقورة قبل قيام الدولة الاكدية حوالى سنة ٢٣٥٠ ق٠م٠ ومن المحتمل أن تكون أسسها الاولى قد شيدت فى أواخر عصر فجر السلالات أى حوالى ٢٦٠٠ق٠م٠ وأنه تطور الى هيكل الزقورة أو المعبد المدرج بنفس الطريقة التى تطورت فيها المعابد المدرجة فى عهد سلالة أور الثالثة ٢٠٥٠

(٢) راجع :ـ

E. Unger, Babylon, p. 191-200; WVDOG 48, Tf. 9; Herodot, II. 109; Diodor, II, 29, 1 ff.; VAB, VI, 38 ff., Meissner, Babylonien und Assyrien II, 180.; Frankfort, Art und Architecture in Mesopotamia, p. 52.

ق٠م٠كما فى زقورة أريدو وأور والوركاء ونفر وبورسيبا وغيرها من المدن السومرية ٠ اتخذت لها مخطط معبد الاله آنو فى الوركاء أساسا لهذا التدرج ٠ فقد ظهر أن أقدم أسس صرح بابل المدرج يعود الى هذه الفترة (٢٦٠٠ ق٠م٠)

ان أقدم الوثائق التى لدينا عن تاريخ تجديد بناء زقورة بابل تعود الى زمن الملك الاكدى نرام سن (٢٢٧٠–٢٢٣٣ق.م) حيث تذكر بأنه جدد صرح بابل ومعبد ايزاكلا وأضاف اليهما مبانى جديدة ٠ كذلك فعل ابنه شركالى شرى (٢٢٣٣–٢٢٠٨ق.م)[٣] ٠ ويظهر أن زقورة بابل كانت تتكون منذ أواخر الالف الثالث قبل الميلاد من سبع طبقات ، بعدد السموات السبع وكانت تشتهر بهذا الاسم أيضا ٠ فقد ذكر گوديا الحاكم الكاهن لمدينة لگش الذى حكم حوالى سنة ٢٠٠٠ ق٠م٠ أنه بنى البيت (المعبد) المكون من سبع طبقات ورفعه عاليا فى السماء [٤] ٠ وذكر أورنمو مؤسس سلالة أور الثالثة سنة ٢٠٥٠ق.م أن زقورة بابل كانت قد تهدمت ومن المحتمل أن يكون ذلك نتيجة للتخريبات التى أحدثها الگوتيون فى البلاد اثر احتلالهم لها ٠ فشيدها ورفعها عاليا وكذلك اقتدى بعمله ابنه شولگى [٥] ٠ وصار ملوك بلاد وادى الرافدين بمرور الاجيال يوجهون اهتمامهم ورعايتهم فى تعمير زقورة بابل فيجددونها ويبنون ما تهدم منها تقربا للاله مردوك وكسبا لمرضاته ومرضاة سكان المدينة ٠

تعتبر الزقورة فى نظر سكان العراق القدامى حلقة الوصل بين السماء والارض ، فقد أطلق عليها السومريون اسم دور – آن – كى ، وسماها البابليون ركسى شمى وإرصيتى (قاعدة السماء والارض) ٠ وكانت فى

---

(٣) راجع :ـ

Hilprecht, The Babylonian Expedition of the University of Pennsylvania (B.E.) I, 2, 23 ff.;

(٤) راجع :ـ VAB, I, 142, y., 84, p., 15.

(٥) راجع :ـ dto. IV, 250, I, 12 ff.; B.E. I, 216.

اعتقادهم طريق الآلهة الى الارض ومستقرهم عند نزولهم من السماء ولذلك فقد كانت تمتاز بقدسية رفيعة في معتقدات السومريين والاكديين والبابليين والآشوريين • ولكي ينتقم كل فاتح جبار من سكان بابل ، كان يعمد الى هدم الزقورة ليقطع بذلك طريق الاله ويمنع نزوله الى السكان • ولذلك فقد كانت زقورة بابل معرضة لنقمة الاعداء ولا سيما الآشوريين • فهناك أخبار تاريخية من القرن السابع قبل الميلاد عن الكوارث التى حلت بها على يد الملوك الآشوريين العظام المتأخرين وكذلك الملوك الاخمينيين • ففي سنة ٦٨٩ ق•م• دمر الملك الآشوري سنحاريب جميع معابد بابل وزقورتها • وحل بها الخراب أثناء الحرب الاهلية التى نشبت بين الملك آشور بانيبال وأخيه شماش شموكين وذلك أثناء الحصار الذى ضربه الآشوريون على بابل من ٦٥٢ حتى ٦٤٨ ق•م• وهدمها الملك الاخميني اكزركسس (احشويرش) سنة ٤٧٨ق•م بعد اخماده الثورة التى قامت ضد حكمه في بابل وأخذ تمثال الاله مردوك • وبقيت مهدمة حتى أن الاسكندر الكبير وجدها حينما دخل بابل فاتحا ، كومة كبيرة من الانقاض •

ومثلما كان تهديم زقورة بابل من قبل الفاتحين وسيلة للانتقام من البابليين ، فقد كان تعميرها وترميمها مجلبة لرضائهم • فالملك أسرحدون أعاد بناءها وبناء مدينة بابل بكاملها بعد أن كان والده سنحاريب قد دمرها برمتها • وقد بدأ بناء المدينة ومعابدها وبرجها سنة ٦٨١ ق•م• وفي سنة ٦٦٨ ق•م• أنهى بناء الزقورة • وكان للزقورة أهمية أخرى بالاضافة الى أهميتها الدينية فقد ساعدت الكهنة على مراقبة السماء موطن الآلهة وسير الافلاك فيها ولذلك فقد كان لها أثر كبير في تطور علم الفلك عند البابليين حيث اتخذت مراصد للنجوم والكواكب • فالمؤرخ الروماني ديودور الذى عاش سنة ٦٠ ق•م• يذكر ان الكلدانيين اتخذوا برج بابل مرصدا لرصد الافلاك وتعيين مواقيت ظهورها واختفائها (٦)• واتخذت الزقورة واسطة

(٦) راجع :- ZDMG, 53, 659, 13, 19.; VAB. II, 9......

لتنبيه المدن الاخرى بخطر هجوم معادى بطريقة اضرام النار ليلا وارسال الدخان نهارا ، كذلك كانت واسطة لاعلان حلول الاعياد والاحتفالات . كذلك كانت تتخذ ملجأ من الفيضانات .

شكل الزقورة وأوصافها

ان معلوماتنا عن شكل زقورة بابل وأوصافها تعتمد على مصادر خمسة وهي :ـ

١ـ المعلومات المستمدة من التوراة .

٢ ـ الاخبار الاغريقية والرومانية وبالاخص ماكتبه عنها هيرودوت.

٣ ـ الوثائق والنصوص المسمارية ولا سيما رقيم الطين الذى كتبه الكاهن آنو ـ بيل ـ شونو (آنو بعل شونو) .

٤ ـ نماذج الطين التى تصور شكل الزقورة بصورة عامة .

٥ ـ بقايا الزقورة والحفريات التى جرت فيها .

فالمصدر الاول ، وهو التوراة لم تتحدث عن الروعة الفنية التى تتمثل فى هندسة البناء الراقية للزقورة . ولم يصف شكلها كما لم يذكر الاهداف الدينية ذات الصلة الوثيقة بمعتقدات سكان بلاد وادى الرافدين المتوارثة من آلاف السنين ، وهى انما شيد هذا البناء الضخم الشامخ فى العلو لكى تكون دعوات الناس منه ، قريبة من إله السموات . ثم لكى ينزل اليه يستقبل دعواتهم وصلواتهم ويسبغ عليهم رحمته عند اشتداد الازمات بهم . بل انما نجد التوراة قد صورت الزقورة بمثابة بناء شامخ شيده مارق بابلى كافر ، لكى يقتحم منه أبواب السموات ويصعد الى الاله الذى يحكم الكون وينزله عن عرشه . ولم يكن فى الواقع للتوراة ان تتحدث عن الزقورة غير هذا الحديث لأن اليهود الذين ساقهم نبوخذنصر أسرى الى بابل وكان عددهم حوالى ٧٢ ألفا ، شغلهم فى بناء الزقورة ولذلك فان ذكراها لم تكن عزيزة على قلوبهم ، مفرحة لنفوسهم .

أما المصدر الثانى الذى يعتمد على الاخبار الاغريقية والرومانية فينحصر فيما كتبه هيرودوث عن زقورة بابل وما أورده ديودور ، المؤرخ

اليوناني الذي عاش في روما في القرن الاول قبل الميلاد ، في كتابه « المكتبة التاريخية » من أخبار بابل وزقورتها نقلا عن تسياس Ktesias الطبيب اليوناني في البلاط الاخميني سنة ٤٠٠ق.م. على ان أهم من وصف زقورة بابل وصفا دقيقا هو المؤرخ هيرودوت ولكنه اورد في وصفه بعض الاخطاء لانه اعتمد في استقاء المعلومات والتفاصيل عن الزقورة على احد الاهلين ولا سيما المعلومات المتعلقة بالقياسات التي لم يتحققها بنفسه • ولا شك ان للزمن الذي زار فيه هيرودوت بابل أثر كبير في تقديم الصورة الحقيقية عن البرج• فلقد زار بابل بين سنة ٤٧٠ و ٤٦٠ ق•م• أي بعد مرور اكثر من قرن من الزمن على عصر نبوخذ نصر الذهبي الذي أعاد فيه تشييد بناء الزقورة ولذلك فان اشياء كثيرة بدت لهيرودوت مغايرة للصورة الاصلية للزقورة في ايام نبوخذ نصر • فكان بعض اقسامها قد تهدم وبعضها قد تغير عن شكله الاصلي بسبب الثورات الكثيرة التي نشبت في بابل تحت حكم الاخمنيين • كما ان بعض معالم المدينة قد تبدلت عن وضعها الذي كانت عليه في زمن نبوخذنصر • فمن ذلك ان نهر الفرات كان عند زيارة هيرودوت قد اصبح في مكان غيره في زمن نبوخذنصر • وهكذا نجد اختلافا في بعض المعلومات التي سجلها هيرودوت عن الزقورة وعن المدينة ، عما اظهرته نتائج الحفريات الالمانية في السنوات العشر الاولى من بداية القرن الحالي •

يقول هيرودوت في كتابه التواريخ او القصص الجزء الاول ، صفحة ١٨١ « ان نهر الفرات يقسم المدينة الى قسمين ، ففي وسط احدهما بلاط الملك وهو محاط بسور ضخم وفي وسط القسم الاخر معبد الاله زوس Zeus اي الاله بيل (بعل) • والمعبد بناء مربع الشكل يبلغ طول جانبين منه (طول ضلعي قاعدته) ٢ ستاديون[٧] ، أي ٣٦٨مترا • وله ابواب كبيرة

---

(٧) ستاديون Stadion مقياس يوناني يعادل ١٨٤ مترا ويذكر العلامة Meissner ان الجهة الشرقية من المعبد لا تكون جانبا من مربع كامل اى ان زوايتيها ليستا قائمة تماما • ويبلغ طولها ٤٠٩ مترا •
Meissner, Babylonien u. Assyrien. I, S. 314, MDOG 29, 36.

من البرونز وكان لا يزال قائما فى زمانى • ويقوم فى وسط المعبد صرح صلد مربع الشكل بستاديون واحد[٨] • وقد اقيم فوقه صرح آخر وعلى الثانى صرح ثالث وهكذا حتى تصبح ثمانية صروح • ويصعد الى هذه الصروح الثمانية بطريق حلزونى يلف حولها من الخارج • وفى منتصف الطريق مقاعد وضعت لمن يريد الاستراحة • ويقوم فوق قمة الصرح الاخير معبد كبير فيه سرير واسع جميل مزين بزخارف ثمينة كثيرة وبجانبه منضدة من الذهب • وليس فى هذا المعبد محراب تمثال ولا يبيت فيه احد ما خلا (اذا ما صدقنا الكلدانيين كهنة بيل) امرأة بابلية ، يقول عنها كهنة الاله ، ان الاله مردوك قد اختارها من بين النساء البابليات لتكون فى خدمته اثناء الليل اذا ما نزل من السماء الى معبده العالى • ويقول الكلدانيون ـ وأنا لا اصدقهم ـ بان الاله يدخل المعبد بزي شخص ويستريح على السرير » •

ويستطرد هيرودوت فى تفسير وجود الامرأة فى معبد الاله مردوك العالى فيقول :ـ

« وهناك قصة مشابهة سمعتها من المصريين فى طيبة ، من ان امرأة تقضى دائما الليلة فى معبد الاله زوس اله مدينة طيبة ومحرم عليها (هكذا يقولون) ، ان تضاجع الرجال مثل الامرأة فى المعبد فى بابل[٩] •

وذكر ديودور الذى عاش سنة ٦٠ ق•م• فى تاريخه المجلد الثانى ص٩ Diodor, Historical Bibliothek, II, p. 9.

فى معرض كلامه نقلا عن تسياس Ktesias الذى كان طبيبا يونانيا فى البلاط الاخمينى سنة ٤٠٠ ق•م• وزار بابل عدة مرات ، ذكر يقول « ولقد شيدت (سميراميس)فى وسط المدينة(بابل)معبدا للاله زوس

---

(٨) ويقصد أن طول القاعدة المربعة وعرضها يبلغ ستاديونا واحدا أى ١٨٤ مترا وبعبارة اوضح ان طول ضلع قاعدته المربعة ٩٢ مترا وهو المقياس الذى يتفق تقريبا مع الابعاد التى حققتها البعثة التنقيبية الالمانية فى بابل •

(٩) راجع :ـ Herodot, I, p. 181.

الذي يسميه البابليون بيلوس (بعل) • ولقد اختلف الرواة في سـرد الحقائق عن هذا المعبد وبنائه الذي تداعى بسبب تقادم الزمن عليه ولكنهم يتفقون بان البناء كان عاليا جدا وفوق حد التصور بحيث كان باستطاعتهم مراقبة النجوم من وقت طلوعها حتى ساعة افولها • وكان البناء مشيدا بالقار والآجر ، بهندسة جميلة • وفي اعلى صرح من صروحه ثلاثة تماثيل من الذهب للاله زوس وهيرا Heara وريـا Rhea [10] •

نستنتج من رواية ديدور ان زقورة بابل كانت مهدمة في زمن الطبيب الاغريقي تسياس وبقيت هكذا الى النهاية فبعد مرور جيلين على هذا الوصف نجد في تدوين المؤرخ سترابو ، أن الاسكندر الكبير عند دخوله بابل وجد زقورتها قد تهدمت عن آخرها واراد اعادة بنائها ولكن الاجل لم يمهله •

اما المصدر الثالث الذي يعتمـد على النصوص المسمارية في وثائق التشييد التي سجلها الملوك الآشوريون والبابليون في الفترة المتأخرة من التاريخ الآشوري وفي زمن دولة بابل الثانية ، وهم الملك اسرحدون الاشوري ونابو بولصار مؤسس الدولة البابلية الثانية وابنه نبوخذنصر ، ثم رقيم الطين الذي عثر عليه ومصدره من الوركاء وكان قد كتبه احـد كهنـة الوركاء • وهـو انوبيـل شـونو Anu-bel-Sunu • وتعتبـر محتوياته اهم المعلومات التي دونت عن زقورة بابـل ومواصفاتها • وقـد استنسخه آنوبيل شونو عن رقيم طين قديم يعرف باسم رقيم ايزاگلا لانه يصف في الفقرات الثلاث الاولى معبد ايزاگلا الذي يقـع مقابل الزقورة اي تمينانكي • والرقيم المستنسخ يعود الى السنة ٨٢ من الحكم السلوقي

---

(١٠) هيرا Hera : الهة الام عنـد الاغريق ولاشـك أنه يقصـد الالهـة سرپانيتم Serpanitum زوجة الاله مردوك • اما ريا فهي بحسب الاسطورة الاغريقية ابنة اورانوس وزوجة كرونوس ووالدة زوس •

ولا نعرف ماذا يقابلها في معتقدات بلاد وادي الرافدين ولعله يقصد الالهة اننا (عشتار) •

وقد دوّن في اليوم ٢٦ من شهر كيسلمو • اى فى ١٢ كانون الاول سنة ٢٢٩ ق•م• فى زمن حكم الملك السلوقى سلوقس كلينيوكس ، ويسجل فيه ابعاد اضلاع طبقات الزقورة وارتفاعاتها ويذكر انها تتألف من ست طبقات ومن مخدع الاله مردوك المكون من طبقتين ، وان هذا المخدع يكون نهاية البرج ويتألف من صحن وست غرف ، فيها محاريب وغرفة للنوم (مضجع) ومدخل وغرفة للمؤن والهدايا • وقد جاءت القياسات مقاربة لقياسات بعثة التنقيب الالمانية لقاعدة الزقورة[١١] •

ان الفقرتين السابعة والثامنة من رقيم آنوبيل شونو تذكر مواصفات الزقورة بالمقياس البابلى وهو العامود المضاعف ولعله المردى الذى يستعمله السفانون واصحاب المشاحيف والابلام • وبذلك اعطيت الابعاد لكل طبقة من طبقات الزقورة بالمقياس المذكور • وهى كما يلى :ـ

الطبقة الاولى او الطبقة الارضية : الطول ١٥ عامودين والعرض ١٥ عامودين والارتفاع ٥½ عامودين •

الطبقة الثانية : الطول ١٣ عامودين والعرض ١٣ عامودين والارتفاع ٣ عامودين •

الطبقة الثالثة : الطول ١٠ عامودين والعرض ١٠ عامودين والارتفاع ١ عامودين •

الطبقة الرابعة : الطول ٨½ عامودين والعرض ٨½ عامودين والارتفاع ١ عامودين •

الطبقة الخامسة : الطول ٧ عامودين والعرض ٧ عامودين والارتفاع ١ عامودين •

الطبقة السادسة : الطول ٥½ عامودين والعرض ٥½ عامودين والارتفاع ١ عامودين •

---

(١١) راجع :ـ

MAI. XXXIV, 293 ff.; t. 25 ff.; MDOG 59; WB. 179 ff; Rs. 1 ff.; 2 P. 45; OLZ. XVII, 201.; Fritz Krischen, Weltwunder Der Baukunst in Babylonien und Ionien, 12 ff.

الطبقة السابعة وعليها المعبد العالى وهو مكون من طبقتين :-

الطبقة الاولى : الطول ٤ عامودين والعرض ٣٣/٤عامودين والارتفاع ٢١/٢ عامودين • وفوق هذه الطبقة غرفة عليا (عليه) تتوسط الطبقة السابعة او الطبقة الاولى منها وتعرف بالمعبد العالى •

ثم تنتهى كتابة رقيم الطين المذكور بالعبارات التالية :-

الحكيم يُرى (هذا اللوح) حكيما ،

أما الجاهل فلا يجب ان يراه ،

ان هذا الرقيم هو طبق نسخة رقيم بورسيبا وقد استنسخ وقورن معها ونظر فيه • الوركاء شهر كيسلمو ، يوم ٢٦ سنة ٨٣ (من حكم) سلوفس (الثانى) الملك •

يتضح من هذا الرقيم أن مدرجات الزقورة أى طبقاتها هى سبعة وليست ثمانية كما ذكرها هيرودوت • ولعله اخطأ فى عدّها او انه حسب معها المعبد العالى • والمعروف ان العدد (سبعة) من الارقام المقدسة عند البابليين لان عدد طبقات السماء وكذلك الارض هو سبعة لذلكفان طبقات الزقورة كانت بعدد طبقات السماء وكل طبقة منها كانت تحاكى طبقة من طبقات السماء • ولما كان مقر الاله فى آخر طبقة من الطبقات السبع لذلك فقد صار مقره او عرشه ، المعبد العالى فوق الطبقة السابعة • وتدخل الطبقة السابعة ضمن المعبد العالى ولذا فقد أصبح المعبد العالى مكونا من طبقتين ارتفاعهما ٢١/٢ عامودين اى خمسة اعمدة •

وبالنظر الى ان الحفريات التى اجراها المنقب الالمانى روبرت كولدوفاي فى بابل وزقورتها بين مستهل القرن العشرين وسنة ١٩١٣ ، قد اظهرت أن طول ضلع القاعدة المربعة الشكل هو ٩١ر٥٠ مترا فيكون عندئذ طول العامود البابلى الذى ذكره آنوبيل شونو ٣ر٠٥ مترا وعندئذ تصبح قياسات الزقورة مقاربة للقياسات التى حققتها البعثة الالمانية وهى كما يلى :-

الطبقة الاولى : الطول ٩١ر٥٠ م والعرض ٩١ر٥٠ م والارتفاع ٣٣ر٥٥ م

الطبقة الثانية : الطول ٧٩ر٣٠ م والعرض ٧٩ر٣٠ م والارتفاع ١٨ر٣٠ م

الطبقة الثالثة : الطول ٦١ م والعرض ٦١ م والارتفاع ٦ر١٠ م

الطبقة الرابعة : الطول ٥١ر٨٥ م والعرض ٥١ر٨٥ م والارتفاع ٦ر١٠ م

الطبقة الخامسة : الطول ٤٢ر٧٠ م والعرض ٤٢ر٧٠ م والارتفاع ٦ر١٠ م

الطبقة السادسة : الطول ٣٣ر٥٥ م والعرض ٣٣ر٥٥ والارتفاع ٦ر١٠ م .

الطبقة السابعة : وهى المعبد العالى المكون من طبقتين : الطول ٢٤ر٤٠م والعرض ٢٤ر٤٠ م والارتفاع ٢٢ر٨٧ م .

وتدل النصوص المسمارية ان المعبد العالى كان مشيدا بالآجر الازرق المزجج وانه كان يدعى بالمعبد المضيء . فقد ذكر الملك الآشورى أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ق.م) بأنه شيد برج بابل وأقامه من أساسه وجعل قاعدته المربعة الشكل حوالى ٩٠ مترا[١٢]. كذلك تذكر النصوص المسمارية بأن البرج شيد على قاعدة من اللبن كسيت جوانبها بالآجر وجعلت لها ثقوبا لتصريف مياه الامطار وأن ارتفاعها ٢٠مترا. ثم رفعت في الادوار البابلية المتأخرة الى ارتفاع أكثر وان « قمة البرج شيدت من الآجر المزجج الازرق وبنى فوق هذه القمة المعبد المضيء من الآجر المزجج الملون باللون الازرق » . ولا شك أن القمة كانت الغرفة العالية القائمة فوق المعبد وكانت مضجع الاله . اما اللون الازرق فقد كان من الالوان المقدسة فى بلاد وادى الرافدين لانه لون السماء مقر الآلهة ولذلك فقد كان لون المعبد العالى ازرقا لكى يحاكى لون السماء بحيث ان الناس فى الارض اذا ما انظروا اليه حسبوه متصلا بالسماء فهم لا يستطيعون رؤية الاله مردوك والالهة الاخرى عند نزولها الى الارض عن طريق الزقورة ومعبدها العالى .

---

(١٢) راجع :- BA. III, 250, VI, 20 ff.

ومن المحتمل ان تكون فوق مخدع الالـه مردوك (مضجعه) قرون كالتي نجدها في احدى المنحوتات الآشورية من الفترة المتأخرة والتي تصور زقورة آشورية وهذه القرون هي رمز الالهة بصورة عامـة ورمز الاله مردوك كذلك • وكانت لمدينة سوسه زقورة لها قرون من البرونز مغروسة في سطح مخدع الهها الرئيسي وقد انتقلت هذه الفكرة الى المسلمين فدخلت في العمائر الدينية كالمساجد والاضرحة • فالمنائر واقبيةالمساجد تنتهي بهلال من البرونز الذي اتخذه المسلمون شعارا لهم ، وهو يرمز الى الاله القمر (سن) في بلاد وادي الرافدين وفي حران شمال سوريا[١٣] •

وكانت الزقورة تمثل مكانة مقدسة في معتقدات سـكان بلاد وادي الرافدين ولا سيما السومريين • وقد بنيت بهذه الصورة لـكي تكون بمثابة الجبل • فزقورة الاله إنليل ، اله العواصف والزوابع في نيبور (نفر) كانت تسمى « بيت الجبل » ، جبل العواصف والزوابع والرباط القائم بين السماء والارض • وللجبال مغزى ديني في معتقدات سكان بلاد وادي الرافدين لانها بمثابة الاوتاد التي توازن الارض وتمسكها عن الميلان • وفيها تكمن اسرار القوى الخفية للحياة التي تديم الخضرة في الربيع والخريف وتحمل الماء في وديان الانهار اليابسة وترسل الامطار فتحيي الارض بعد موتها • وللجبال الهة هي الالهة نن خرصاك (سيدة الجبـال) ، التي تسمى بالام العظيمة •

اما المصدر الرابع الذي يعتمد على نماذج الطين والمنحوتات الحجرية والآثار الباقية من الزقورات الـكثيرة التي شـيدت في بلاد الرافدين في فترات متفاوتة من تاريخه القديم الطويل بحيث اصبح في القرن السابع قبل الميلاد لـكل مدينة زقورة ، فان المعلومات المتوفرة لدينا قليلةاذ لم تبق زقورة كاملة من بين هذا العدد الـكثير من الزقورات التي كانت تنتشر في ربوع

---

(١٣) راجع :ـ
VAB, IV, 148, III, 26; VAB. IV, 98, II, V 3, 9, I, 2 9, 32, 42, 98, 114, 126.

العراق القديم كما تنتشر اليوم ناطحات السحاب في امريـكا • والزقورة الوحيدة من بين زقورات اريدو والوركاء ونفروبورسيبا وسپار ودوركوري كلزو (عقرقوف) وآشور وكارتكولتي نن اورتا ونمـرود وخرصباط ، التي بقيت قاعدتها ومدرجاتها هي زقورة اور ، كذلك لا توجد هناك صورة لزقورة في المنحوتات الحجرية التي عثر عليها المنقبون لحد الان ما خـلا منحوته من الفترة الاشورية المتأخرة من القرن السابع (؟) ، تمثل برجـا مكونا من اربعة طوابق وله مدخل في الوسط يكون الدرج الوسطى ثـم درجان جانبيان يؤديان الى الطابق الاول فقط(١٤) • ثم هناك صورة زقورة منحوتة على حجر حدود (كدورو) يعود الى الملك مردوك بلادان الاول (١١٧٦–١١٦٤ق.م) ووجد المنقب الالماني اندري في أثناء أعماله التنقيبية في آشور ، نماذج من الطين لبيت مكون من اربعة طوابق يظن انه يرمز الى شكل الزقورة يتبين من جميع ما تقدم ان الزقورة عبارة عن مصطبـة كبيرة مربعة الشكل تحمل الصرح المدرج ، يحيط بها سور كبير ليفصلها عن بقية اقسام المدينة • وقد بنيت هذه المصطبة الضخمة او القاعدة مع الابراج التي تقف عليها : الواحدة فوق الاخرى كصناديق لعب الاطفـال المتفاوتة في الحجم ، من اللبن بهيئة دكات كبيرة ووضع بين طبقاتاللبن الحصير والقصب والبردي لزيادة التماسك • وتركت فتحات في جوانب البرج وعلى طول ضلعه بابعاد وارتفاعات معينة لتصريف مياه الامطار • وقد دعاها المستر وولي الذي نقب في اور بـ « الثقوب الباكية » • وكسيت جوانب الزقورة مـن الخارج بغلاف من الآجر • ويصعد الى طبقاتها من درج وسطي ودرجـين جانبين تستند على بناء مرتفع واجهته مستطيلة الشكل كما في زقورة اور ، ثم تستمر هذه الدروج بنفس الطريقة التي تظهر في واجهة الزقورة • او

---

(١٤) راجع :ـ

Dombart, Zikkurat et Pyramide, 42. ff.; 14. MEISSNER, Babylonien und Assyrien, I, Abb 117.; MDOG, 53, 51.

تتخذ شكلا حلزونيا كما في ملوية سامراء التي لا يشك في انها بنيت بحسب مخطط الزقورة ومن مدرجات ستة (حلزونات) وغرفة عالية •

ومن الجدير ذكره ان المصطبة الـكبيرة او الدكة الضخمة التي تحمل الصرح المدرج أثرت في العمارة الاسلامية ولاسيما في فن العمارة للمساجد اذ كانت اساسا لمخطط المنارة وقاعدتها • فالمنارة في الحقيقة هي برج المسجد او الجامع فمثلما كانت الزقورة تبنى في مقدمة المعبد ببعد يسير كذلك فقد وجدنا ان المنارة تبنى امام المسجد وهذا ما نراه واضحا في ملوية سامراء وجامعها الـكبير (جامع المتوكل) •

اما المخدع او الغرفة العالية الواقعة فوق المعبد والتي تكون قمـــة الزقورة فكانت تعرف باسم شاخورو Sahuru ومعناه غرفة الانتظار او غرفة الاستقبال التي يمر منها الاله عند نزوله من السماء • وهذه الغرفة موجودة كذلك في المعبد الارضي تعرف بالاسم نفسه وتكون في هذه الحالة الغرفة التي تتقدم المصلى او قدس الاقداس ، فقد كان ينتظر فيها الـكهنة والمتعبدون حتى يفتح رئيس الـكهنة (الاوريگللو) لهم باب قدس الاقداس الذي يحوي تمثال الاله[(١٥)] •

لقد حاول عدد غير قليل من مشاهير الرسامين الاوربيـين ان يتخيلوا للزقورة من وصف هيرودوت وديودر وغيرهما من المؤرخين الاقدمين صورة مطابقة للحقيقة والاصل وفي مقدمتهم الرسام الهولندي بروغل Brughel (١٥٢٥-١٥٦٩) الذي عاش في فينا • فقد رسمها بشكل حلزوني • ثم الرسام فلـكنبورش Valkenborch (١٦٥٤٠ - ١٦٢٥) الذي رسم صورة زيتيـة لزقورة بابل ولـكنه أضفى عليها كثيرا من الخيال الجميل الرائع وهندسة البناء للملاعب الرومانية •

---

(١٥) راجع :-

Frankfort, Art and Architecture in Mesopotamia, p. 6. ff.

وحاول عدد آخر من علماء الاثار ان يتخيلوا صورة لزقورة بابـــل مطابقة للاصل معتمدين على وصف المؤرخين والنصوص المسمارية واخبار ملوك وادى الرافدين القدامى امثال دومبارت Dombart وشـــــيبى Chepiez وكولدوفاى واونكر • على ان الصورة التى تخيلها البروفسور اونكر اصبحت هى المعول عليها لانها جاءت مطابقة للحقيقة اكثر من غيرها •

العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي
١٥٠٧ ـ ١٦٥٠

الدكتور محمود علي الداود
المدرس في قسم التاريخ

يرجع الاستعمار الاوربي الحديث في الخليج العربي الى القرن السادس عشر عندما استهدفت السياسة الخارجية البرتغالية ازاحة الاحتكار التجاري من عرب البحر المتوسط والشرق الاوسط الذين سيطروا على زمام الحركة التجارية بين اوربا واسيا • لقد كانت التجارة بين الشرق والغرب تتبع طريقين رئيسيين وهما طريق البحر الاحمر ومصر وطريق الخليج العربي والعراق وسوريا وكان كلا من هاذين الطريقين تحت السيطرة العربية [١] • وفي مناسبات عديدة أغلقت هذه الطرق لمنازعات وصعوبات سياسية وقد أدى ذلك أضرارا جسيمة بالحاجيات الاوربية من البضائع الشرقية ما عدا تلك التي كانت تنقل عن طريق وسط آسيا • وكانت فينيسيا وجنوة من أهم الدول الاوربية التي تاجرت مع الشرق على نطاق واسع في بداية القرن الخامس عشر ، ولكن الاخيرة خسرت مركزها الممتاز في التجارة الشرقية على أثر استيلاء الاتراك على القسطنطينية في ١٤٥٣ كما أن سياسة المماليك الاقتصادية في مصر قد أفقدت فينيسيا ماتبقى لها من أفضلية • ولقد أصبح من الواضح أن اكتشاف طرق جديدة الى الهند وجنوب شرق آسيا سيدر فوائد عظيمة على الدولة الاولى التي تعمل على تحقيق هذه الغاية وتهدف الى الابتعاد عن الطريق التقليدية عبر الشرق الاوسط • وكانت البرتغال هي الدولة الاوربية الاولى ذات الاهداف الاقتصادية الواضحة في التجارة والاستعمار ليس فقط في الخليج العربي

---

(1) Ballard, G.A. Navigators of the Indian Ocean Prior to the era of European Dominion, Marines' Mirror, 1924, Ap. pp. 10-20.

بل بعد فترة وجيزة في الهند وجنوب شرق آسيا • ولا تزال مستعمرة گوا ، على ساحل الهند الغربي ، تمثل الاصول الاولى للاستعمار الاوربي في آسيا ومن هناك انتقل البرتغاليون وحلفائهم من هولنديين وانكليز وفرنسيين الى جزر الهند الصينية وموانيء الصين يثبتون أقدام استعمارهم الاقتصادي ثم العسكري والسياسي حتى مطلع القرن العشرين • وكان الملك البرتغالي دوم هنريك (Dom Henrique) ١٣٩٤ – ١٤٦٠ ، الذي عرف بالملاح ، هو أول من وجه أنظار الاوربيين الى الشرق عن طريق جديدة عبر رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندي وذلك على أثر الفتوحات التركية في الشرق الاوسط [٢] • وقد تبلورت الجهود والاهداف البرتغالية الاستعمارية في عهد الملك دوم أفونسو الخامس (Dom Affonso V) ١٤٤٣–١٤٨١ والملك دوم جواو الثاني (Dom Joao II) ١٤٨١–١٤٩٥ وأرسلت بعثات استكشافية عددة الى الشرق كان أولها بعثة بارثولميو دياز (Bartholomeu de Diaz) في ١٤٨٦ الذي أبحر حول رأس الرجاء الصالح دون أن يعرف أنه دار حول النقطة الجنوبية من أفريقيا • وفي مطلع سنة ١٤٨٧ قام الرحالان البرتغاليان جواو بيرس دي كوفيلاو (Joao Peres de Covilhao) وأفونسو دي بافيا (Affonso de Paiva) برحلة حول الشرق يبحثون فيها عن بلاد التوابل وقد افترقا عند عدن فسار الاول الى گواو ومنها الى هرمز في الخليج العربي ثم قفل راجعا الى القاهرة عبر العراق وسوريا وأما الثاني فقد استقر في الحبشة مبعوثا للملك البرتغالي لدى الدولة الحبشية المسيحية • وفي آب ١٤٩٨ كان فاسكو دي كاما (Vasco de Gama) ، الذي كان قد أبحر من البرتغال ، قد وصل الهند عبر رأس الرجاء الصالح ، وقد انتهت حملته الكبيرة في مدينة ليشبونة في ايلول ١٤٩٩ • وان أهم نتائج الرحلة الاخيرة هو ظهور

---

(2) Lorimer, J. G. Gazetter of the Persian Gulf, Secret, Historical, Part. I. Vol. I. Proceedings of the Portuguese In the East. pp. 1-6.

ما يعرف بالثورات التجارية في أوربا وظهور أهمية البرتغال في ميدان السياسية الاوربية وفي ميدان الاحتكارات التجارية الجديدة وأصبح ملوكها يلقبون بـ « أسياد الفتوحات والملاحة والتجارة في الهند والحبشة وبلاد العرب وفارس » • وقد استطاع الملك مانويل الاول (Manoel I) في ١٥٠٥ من التغلب على الامة العربية في ميدان السيادة التجارية وذلك باستيلاءه على كل من عدن وهرمز ومالقا • ولأجل تحقيق آماله الاستعمارية في الشرق أرسل الاميرال فرانسيسكو دي الميدا (Francisco de Almeid) الى الهند وعينه حاكما على المستعمرات في الشرق وقد اتخذ الاخير مدينة كوشين في الهند الصينية عاصمة له • وفي خلال ١٥٠٦ وصلت أساطيل عربية وتركية الى شواطيء الهند لنجدة الامراء المسلمين هناك في صراعهم ضد الفتوحات البرتغالية وكان اندحار الاساطيل الاسلامية فاتحة للسيادة البرتغالية البحرية في جنوب آسيا والمحيط الهندي وخليج عمان •

وتعتبر سنة ١٥٠٦ نقطة تحول مهمة في حركة الاستعمار الاوربي في جنوب آسيا ففي تلك السنة غادر الفونسو دي البوكرك [٣] (Affonso de Albuquerque) ليتسلم منصبه الجدد في الهند كنائب للملك ، وكان يهدف الى تأمين طرق المواصلات البحرية من العرب والاستيلاء على نقطتين مهمتين ذات استراتيجية بالغة وهما سوقوطرة (Soqotrah) وهرمز • وقد صادف أسطوله مقاومة ضعيفة في مياه خليج عمان والخليج العربي وخاصة في مسقط وعمان وقد استعمل البحارة البرتغاليون قسوة متناهية في القضاء على هذه المقاومة • وقد رفض الشيخ سيف الدين حاكم جزيرة هرمز التسليم للاسطول البرتغالي الضخم واشترك أسطوله الصغير بمعركة حامية مع البرتغاليين أجبرتهم على التوقيع على معاهدة الصلح في أيلول ١٥٠٧ التي اعترف بموجبها البرتغاليون بالشيخ سيف الدين حاكما

(3) Albuquerque, Affonso de, "The Commentaries of the Great Affonso Dalboquerque. 4 Vols. Hak. Soc. 1875.

على جزيرة هرمز مقابل قبوله الحماية البرتغالية [٤] • ولمن المعروف أن تهديدات الشاه الفارسى اسماعيل هى التى أملت على الشيخ سيف الدين اتخاذه هذا الموقف •

وقد حدث انشقاق فى صفوف البحرية البرتغالية وقد تزعم دى الميدا المعارضة ضد نائب الملك مما اضطر الاخير الابحار الى الهند وهناك اعترف به نائبا للملك البرتغالى فى الهند وقد استقبل فى عاصمته گوا وفودا رسمية من شـاه فارسى وشيخ جزيـرة هرمز • وفى فترات مختلفة من حـكم البوكوك فى الهند هدد الاسطول التركى الممتلـكات البرتغالية من البحر الاحمر ولـكن نائب الملك اعتبر استعادة هرمز أكثر أهمية من الوجهة الاستراتيجية من الاستيلاء على مينـاء عـدن • وفى ١٥١٥ غادر اسطول برتغالى ضخم ميـاه الهند [٥] متوجهـا الى الخليج العربى وكان غرضه الاستيلاء على جزيرة هرمز التى كانت فى تلك السنة معرضة لثورة داخلية زاد سعيرها الفرس الذين كانوا يعتبرون هرمز قاعدة بحرية مهمة للدفاع عن شواطىء بلادهم من الغـارات العربيـة والتركية والبرتغالية ، وكان البرتغاليون يكونون نصف الحملة الاخيرة أما النصف الثانى من الرجال فكان جلهم من مواطنى جزر مالابار ومن العبيد • وكان الوضع الداخلى فى هرمز عاملا مهما فى انتصار الحملة وقـد حاول الفرس جذب البرتغاليين الى نوع من التحالف العسكرى والتعاون الاقتصادى ضد الاتراك فعرضوا عليهم تجهيز فارس بسفن حربية للاغارة على البحرين وقطيف وكذلك تقديم مساعدات عسكرية للقضاء على ثورة محلية فى ولاية مكران مقابل التنازل عن ميناء جوادر للملك البرتغالى• وفى ٢٠ اكتوبر مرض البوكرك الذى عين ابن أخيه بيرو (Pero) قبطانا على قلعة هرمز وغادر الجزيرة

---

(4) Curzon, G.N, "Persia and the Persian Question". Vol. II, P. 415.

(5) Danvers, E.C, "the Portuguese In India." 2 Vils. 1894.

متوجها الى الهنـد وقد توفى على ظهر سفينة وكانت على أميال قليلة من العاصمة گوا(٦) •

وكانت وفاة نائب الملك قد أضعفت نفوذ البرتغاليين فى الهند وجنوب آسيا وشاع الذعر فى صفوف البرتغاليين فى المحيط الهندى وازداد خطر الاسطول التركى الذى لم يقتصر نشاطه على مياه البحر العربى بل تعداه الى الخليج العربى أهم نقطة استراتيجية فى طريق المواصلات البرتغالية • وفى نفس الوقت ازدادت معارضة سكان الخليج العربى ضد الاستعمار البرتغالى البغيض الذى لم يتوان عن استعمال اقصى ضروب الوحشية فى سبيل جمع الضرائب من السكان • وكان أهالى هرمز والبحرين وصحار ومسقط يتعاونون مع شيخ هرمز فى سبيل دحر الاحتلال البرتغالى • وقد أرسلت حكومة الهند البرتغالية قطعات من الاسطول البرتغالى لأجل القضاء على المعارضة المحلية فى الخليج العربى وقد دمرت هذه القطعات مدينـة صحار وحاصرت هرمز التى دافع عنهـا شيخها العربى دفاعا مجيدا ولمـا ازدادت نيران مدافع الاسطول البرتغالين طلب من الاهليين حرق المدينة والانسحاب الى قشم • ودخل البرتغاليون ميناء هرمز وسط نيران ملتهبة قضت على أسواق المدينة التى كانت بحق أغنى أسواق العالم بمنتوجات الشرق من التوابل والمنسوجات الحريرية وقاعدة دولية مهمة فى تجارة اللؤلؤ •(٧) وأجبر البرتغاليون شيخ هرمز الجديد على توقيع معاهدة مناب فى ٢٣ تموز ١٥٢٣ التى ألغت الحمـاية البرتغالية على الجزيرة وربطتهـا رأسا بالحكومة البرتغالية فى لشبونة ، وبذلك ضعف أمل سكان هرمز فى الحـكم الذاتى وأصبحوا جزءا من الامبراطورية البرتغالية وتحت حـكم الاستعمار البرتغالى المباشر • ولم تهدأ الثورات فى الخليج العربى ضـد

---

(6) Bargosa, Durate, "The Book of Durate Barbosa," 2 Vols, 1918. Val. I. pp. 90-109.

(7) The Travels of Pedro Teixeira, with His "Kings of Harmuz". And Extracts From His "Kings of Persia", Hakl. Soc. 1902. p. 2.

الاحتلال البرتغالى ، وبالرغم من جميع أعمال العنف التى استعملها الاسطول البرتغالى ضد الاهالى فى هرمز فقد ظلت تلك الجزيرة تقاوم بعنف أشد وأقوى وفى سنة ١٥٢٩ أمر الملك البرتغالى بترحيل كافة القوى والجماعات المعارضة للحكم البرتغالى وكان على رأس المعارضة الشيخ شريف مستشار شيخ هرمز السابق • وقد انفصلت جزر البحرين فى هذه الفترة عن شيخ هرمز وفشلت جميع محاولات الاسطول البرتغالى لاستعادتها •

وبينما كانت الثورات مستعرة ضد الاسطول البرتغالى فى الخليج العربى كان الأتراك ينتهزون الفرص لضم الخليج العربى الى منطقة نفوذهم فى الشرق الاوسط وكانوا يهدفون الى السيطرة على جنوب العراق وخاصة على ميناء البصرة • وقد أرسل الاتراك أسطولا ضخما من البحر الاحمر للدخول فى العمليات البحرية فى مياه هرمز ومسقط ضد الاسطول البرتغالى • وكان حاكم مصر ، سليمان باشا ، يحاول اقناع الباب العالى بأهمية الخليج العربى بالنسبة للاستراتيجية التركية فى الشرق وكان هذا الحاكم هو أول مسؤول تركى وجه أنظار استنبول الى الهند وقد قام فعلا خلال سنة ١٥٣٨ بقيادة حملة عسكرية تركية الى شواطىء الهند • وبالرغم من الشجاعة التى أبداها الأسطول التركى ولكن مجهوداته فى غزو الهند لم تفلح فقفل راجعا الى البحر الاحمر • وقد ازداد الصراع بين الاتراك والبرتغاليين من أجل السيادة على الخليج العربى بعد سنة ١٥٥٥ • وفى تلك السنة أعلن أهالى القطيف قبولهم للسيادة التركية التى كانت قد تركزت حديثا فى البصرة • وكانت مقاطعة القطيف تعتبر من ممتلكات شيخ هرمز الذى طلب من الاسطول البرتغالى استعادتها من الاتراك فأسرع البرتغاليون بأرسال ١٩ سفينة تقل ١٢١٠ من الرجال الى القطيف التى انسحب منها الاتراك متوجهين الى البصرة • وفى البصرة استعد الاتراك للقيام بسلسلة من الغارات السريعة على المراكز البرتغالية فى الخليج العربى وقد تمكن بير بك من الابحار فى الخليج العربى بأسطول ضخم واتجه نحو الجنوب حتى وصل الى مسقط واستولى عليها

ورفع العلم التركى على قلعتها البرتغالية • وبالرغم من المجهودات الهائلة التى بذلها الاتراك فى مياه الخليج العربى ضد البرتغاليين ولكنهم أصيبوا بنكسات متعاقبة وذلك بنتيجة فقدهم لوحدة الاهداف السياسية فى الخليج، فقد اضطروا الى تبديل قادة الاساطيل فى تلك المياه عدة مرات خلال سنة واحدة فقد توالى قيادة الاسطول التركى فى سنة ١٥٥٢ پير بك ثم مراد بك وعلي چلبى [٨] • كما أنه فشل حكمهم فى مسقط كان ظاهرة جليـة فى معارضة الاهالىلهم واعتبروهم محتلين فاتحين لايقلون طمعا عن البرتغاليين• وفى سنة ١٥٥٥ حاول الاسطول التركى غزو البحرين ولكنه أرجع على أعقابه نتيجة للتعاون البحرى والتحالف بين الرئيس مراد نائب شيخ هرمز والبرتغاليين والفرس •

لقد انضمت البرتغال الى أسبانيا فى ١٥٨٠ ولم تسترجع استقلالهـا الا فى سنة ١٦٤٠ ولكن نفوذها فى الخليج العربى ظل مستمرا الى سنة ١٦٢٢ • وقد ازدادت مقاومة سكان الخليج للاحتلال البرتغالى وخاصة فى هرمز ومكران • وفى هذه الفترة بالذات بدأ الاتصال البريطانى بالخليج العـربى • وفى سنة ١٥٨٣ قام أربعـة من المغامرين الانكليز وهم رالف (Ralph Fitch) وجـون نيوبرى (John Newberie) من التجـار و وليم ديدز (William Deeds) وهو تاجـر مجوهرات و جيمس ستورى (James Storsy) وهو رسـام برحلة من طرابلس فى سوريا متوجهين صوب بيرهجك ومنحدرين فى نهر الفرات الى الفلوجة فبغداد ومن هناك عبروا دجلة الى البصرة فالخليج العربى حيث ألقى القبض عليهم فى هرمز واتهموا من قبل البرتغاليين بالتجسس • وقد أرسلوا بعد حين الى عاصمة الهند البرتغالية گوا حيث بقوا فى الأسرى مدة من الزمن [٩]•

لا تزال البرتغال الامة الاوربية الوحيدة الممثلة فى الخليج العربى فى سنة ١٦٠٠ ولا يزال الاسطول البرتغالى سيد الموقف فى مياه الخليج

---

(8) Persian Gulf Gasetter. Secret. Vol. II. Historical. P. 7.
(9) Wilson, A, "The Persian Gulf." 1954. p. 127.

بعد أن رفرف العلم علم البرتغال هناك فى ١٥٠٧ • وقد انتشرت القواعد العسكرية البرتغالية فى جزيرة هرمز والبحرين وفى قشم ومسقط وربما عمان • كانت عاصمتهم هرمز قاعدة لهم فى التجارة بين الشرق والغرب • وقد طرأ ضعف تدريجى على القوى البرتغالية الاستعمارية نتيجة لانضمامها السياسى الى أسبانيا ، كما ظلت السياسة الخارجيـة البرتغالية فى الفتـرة ١٥٨٠ – ١٦٤٠ تحت سيطرة أسبانيا تصرفها كما تشاء • وفى نفس الوقت الذى كانت فيه البرتغال تعان من شدة الحكم الاسبانى كانت هولندا قـد تحررت من السيطرة الاسبانية وأخذت توجه اهتمامهـا الى جزر الهنـد الشرقية الهولندية فى سنة ١٥٩٥ فى امستردام وارسلت فى تلك السـنة سفينتين تجاريتين الى مياه جنوب شرق آسيا •

وقد أخذت انكلترا توجه هى الاخرى اهتمامها بالشرق وخاصـة بعد الانتصار الذى أحرزه الاسطول الانـكليزى على أسبانيا فى معركة الارمادا الشهيرة فى سنة ١٥٨٨ ومن ثم تأسيس ما يعرف بشركة الهنـد الشرقية الانكليزية برأس مال قدره ٦٨٫٨٧٣ باون وبعد هذه الفترة أخذت الحكومة الانكليزية ترعى بصورة رسمية وتساهم فى الاحتكارات الاقتصادية فى آسـيا وتعتمد على الشركات فى وضـع الحجر الاسـاسى لاسـتعمارها الطويل الامـد فى الشرق الاوسط وجنوب آسـيا وجنوب الشرق •

ترجع الاصول الاولى للعلاقات البريطانية مع فارس والخليج العربى الى مجهودات شخصية قام بها بعض المغامرين الانكليز وعلى رأسهم السير انطونى شيرلى (Sir. Anthony Shirley) [١٠] الذى قام برحلة غير رسمية الى بلاط الشاه الفارسى عباس الاول وكان هدفه الرئيسى هو محاولة اقناعه بفكرة التحالف مع الانـكليز ضد التوسعات التركية والعمل على تأسيس

---

(10) Sherley, A "True Report of sir Anthony Sherley Journey Overland to Venice, from thence by sea to Antioch, Aleppo, and so to casbina in persia" 1600.

التجارة الانكليزية على قواعد قوية فى الشرق الاوسط • وكانت أساليب هذا المبعوث الانكليزى قد جذبت قلب عباس الاول الذى لم يكتف بطرد السفير التركى الذى بعثته حكومة الاستانة للعمل على خلق جو من الثقة بين تركيا وفارس بل أعلن بصورة رسمية بأن أبواب فارس مفتوحة للتجار الاوربيين • وكان الاعلان الشاهى الاخير الذى منح هؤلاء التجار امتيازات واسعة ، قد وضع الاساس لفكرة الامتيازات الاجنبية التى ذهبت ايران ضحية رخيصة لها فى خلال لقرون الاربعة القادمة • ومن المعروف أن الحكومة الانكليزية لم تطمئن الى اخلاص السير انطونى شيرلى الذى طالما اشتغل لمصالح عباس لاول الشخصية وأناب عنه فى مفاوضات سرية مع حكام روسيا كما وقع بالنيابة عنه معاهدات تجارية مع ألمانيا وأسبانيا وايطاليا • وقبل وفاة السير أنطونى فى ١٦٣٠ كان عباس الاول قد استعمل أخاه روبرت ، الذى كان قد ترك فى طهران رهينة عند الشاه ، لنفس الاغراض الدبلوماسية السابقة وكانت رسالة روبرت بصورة مختصرة تهدف الى العمل على توطيد العلاقات بين فارس والدول الاوربية من جهة واضعاف موقف الاتراك فى العلاقات الدولية من جهة أخرى • وبعد أن قام روبرت بزيارة كل من بولندا وألمانيا فى ١٦٠٩ وايطاليا فى ١٦١٠ اتجه نحو مدريد حيث وضع بين يد المسؤولين الاسبان فكرة جديدة فى العلاقات التجارية مع الشرق ملخصها أن تتعاون اسبانيا مع فارس فى نقل طرق مواصلات الحرير الفارسى من تركيا الاسيوية الى هرمز فى الخليج العربى • وفى ١٦١١ وصل روبرت شيدلى انكلترا وقابل الملك جيمس فى بلاطه « هامتون » وعرض عليه رسائل الشاه الفارسى التىأشارت الى اهمية فتح العلاقات التجارية فين فارس وانكلترا ، وقد خابت محاولات روبرت فى انكلترا وذلك لعدم موافقة تجار شركة الهند الشرقية عن مشروعاته خشية اغضاب الاتراك الذين كانوا مسيطرين على التجارة الشرقية عبر وادى الرافدين وسهل الجزيرة وهو أقصر طريق الى اوربا • وتد قاوم

الرأسمالى المعروف السير توماس راو[11] (Sir. Thomas Roe) مشاريع روبرت شيرلى ولم يتوان بان يصفه بالخيانة والعمل لحساب الجاسوسية الفارسية •

والواقع ان نجاح حركة الاستعمار البريطانى فى الشرق الاوسط والخليج العربى يرجع بالدرجة الاولى الى وضوح اهداف الحركة الاستعمارية من جهةوالى التعاون الذىساد بين الرأسماليينالانكليز والعمل على تحقيقه اهداف الشركات الاحتكارية عن طريق الدبلوماسية والرشوة والابتعاد قدر الامكان عن المغامرات الشخصية • كما ان الشركات الانكليزية التى اهتمت بتجارة فارس وخليج العرب اخذت تنظر الى الهند بعين استعمارية صرفة وكان الانكليز يعملون لاجل القضاء على امبراطورية المغول هناك • وقد ارسلت شركة الهند الشرقية اثنى عشر قافلة تجارية الى الهند فى الفترة ١٦٠٠ – ١٦١٢ ، وقد قدم الامبراطور الهندى أكبر امتيازات واسعة الى التجار الانكليز واعقب ذلك تأسيس مصنع انكليزى للحرير فى مدينة سورات فى ١٦١٣ • وكان توماس الدورث (Thomas Aldworth) اول وكيل لشركة الهند الشرقية الانكليزية[12] فى الخليج العربى • ويرجع اليه الفضل فى توسيع التجارة الانكليزية فى كل من ايران والبحرين وقد حصل على فرمان من الشاه الفارسى فى ١٦١٦ بشأن حرية التجارة الانكليزية فى الامبراطورية الفارسية • وقد بدأت الدوائر الاستعمارية فى شركة الهند الشرقية فى لندن تعمل على زج الحكومة الانكليزية فى الحركة الاستعمارية فى الهند وطلبت من الاخيرة ارسال ممثل رسمى الى بلاط امبراطور المغول واقترحت ان يكون السير توماس راو هذا الممثل • ومن المعروف ان الاخير كان احد كبار

(11) Roe, T. "The Embassy of Sir Thomas Roe ...... as Narrated in his Journal and Correspondence. Hak. Soc. 1899.

(12) Bruc, J. "Annals of the Honorable East-India Company. 3 Vals. 1810.

الرأسماليين الانكليز الذين ساهموا في تأسيس الشركة المذكورة •

وقد اخذ النفوذ البرتغالي في الخليج العربي يضعف تدريجيا بعد ١٦٠٢ وقد خسروا مواقعهم على الساحل الفارسي وفي ١٦١٢ و ١٦١٥ انهزم اسطولهم الضخم أمام الانكليز في معارك سورات الشهيرة وفي نفس الوقت شعر الامبراطور الهندي بضعف مركزهم الدولي • وقد ترك الاسطول البرتغالي جزر البحرين في ١٦٠٢ الى الشاه الفارسي وفي ١٦٠٨ غارت القوات الفارسية على المستعمرات البرتغالية في هرمز • وقد أستمر الحكم البرتغالي في ميناء بندر عباس (التي كانت على الدوام تحت تهديدات شيخ قبائل اللار الفارسية) حتى ١٦١٥ عندما طردوا من قبل الفرس الذين حاصروا الميناء عدة اشهر • وقد انتقل النشاط البرتغالي الى ساحل عمان حيث قام الاسطول البرتغالي بمساعدة بعض القبائل العربية المتحالفة بالاستيلاء على ميناء صحار (أهم موانيء سهل الباطني العماني) وكان هدفهم القضاء على الاهمية التجارية لذلك الميناء الذي أخذ ينافس مسقط وهرمز باهميته الاقتصادية وقد سلم الشيخ محمد حاكم ميناء صحار للمغيرين الذين فتكوا بأفراد الحامية خلافا لشروط الصلح •

وبينما كانت الحرب مستمرة بين الفرس والبرتغاليين في الخليج استمرت العلاقات الدبلوماسية بين بلاط مدريد وبلاط اصفهان • وقد استقبلت السلطات البرتغالية في گوا في ١٦١٣ السفير الايراني دانش بك (لدى بلاط ملك اسبانيا والبرتغال) ورجع الى فارس بمثل ما استقبل به من حفاوة وأكرام • ولكن الظاهر من الوثائق ان الشاه لم يكن على وفاق مع السفير الذي اتهم بفشل مهمته الدبلوماسية ، وقد قتل في يوم وصوله طهران[١٣] • وقد اتهم السفير دانش بك بانه شجع سفر المبشرين الاسبان الى فارس وقد رافقه الى الشرق فعلا احد الاساقفه الكاثوليك الذي بعد ان مكث مدة قصيرة في صفهان ورأى صعوبة تحويل انظار الفرس

(13) Purchas. His Pilgimes. In Five Books. 1625. Also Glasgow, 20 Vols, 1905. 7. Vol. 11. p. 1730.

الى المسيحية عاد فأستقر فى هرمز • وقد فتحت بعد ذلك مفاوضات بين مدريد واصفهان بشأن منح امتيازات صناعة الحرير للتجار الاسبان • وقد نصح الشاه عباس البلاط الاسبانى بعدم ارسال رجال الكنيسة كمبعوثين دبلوماسيين لانه كان يشك فى نواياهم السياسية ورفض التفاوض مع رجال السيانة والدبلوماسية وبينما كان الشاه مشغولا بالقضاء على الاسطول البرتغالى فى هرمز والخليج العربى كان السفير الاسبانى الجديد دون كارسيا دى سيلفا فيكوريا Don Garcia de Silua Figueroa فى طريقه من مدريد الى اصفهان •

وقد عمل الشاه عباس على اسرجاع المتلكات الايرانية من سيطرة الاتراك الذين كانوا يحتلون تفليس وتبريز ونهاوند الى الشرق من كرمنشاه • وقد نجحت محاولات الشاه عباس بعد ١٦٠٠ فى استعادة المقاطعات المفقودة وقد استولى على نهاوند فى ١٦٠٢ وعلى تبريز فى ١٦٠٣ وحاصر اريفان وبغداد فى ١٦٥٠ • وقد سحب الشاه قواته من بغداد ليدحر الاتراك فى معركة حاسمة اشترك فيها الرأسمالى الانكليزى المغامر السير روبرت شيرلى الى جانب الفرس ونال ثلاثة جروح بليغة • وكانت السياسة البريطانية فى فارس والخليج العربى منذ البداية تهدف الى نيل الافضلية فى الاحتكارات التجارية والمشاريع الاقتصادية على الدول الاوربية الاخرى من جهة وعلى الحكام والتجار المحليين من جهة اخرى•وكان السفير البريطانى فى بلاط اصفهان ، السير توماس راو ، يرمى الى فتح بندر عباس للتجارة الايطالية ومنع البرتغاليين والاسبان من الحصول على أى فرمان من الشاه يضر بالمصالح التجارية البريطانية ولم يتردد السفير المذكور عن تهديد الشاه علنا اذ هو اذعن للمطالب الاسبانية والبرتغالية • وقد عمل السفير الانكليزى على تسهيل مهمة الباخرة الانكليزية « جيمس » التى وصلت الى سورات فى تشرين الثانى ١٦١٥ تحت قيادة وليم كانوك (Willam Cannock) الذى أسس أول فرع تجارى انكليزى فى مدينة شيراز[١٤] •

(14) Calender of State Papers, 1513-1616, No. 765.

وقد حصل كانوك[١٥] وجماعته على فرمان من الشاه فى آب ١٦١٧ وقد اوصى ذلك الفرمان بوجوب التبادل الدبلوماسى بين انكلترا وفارس وتعيين الاخيرة سفيرا لها فى بلاط « هامتون » وتبادل المنافع التجارية والحقوق الدولية الملحقة بينها وبين تجار البلدين • وتعهد الشاه بحماية القوافل التجارية الانكليزية واعفاء الرعايا الانكليز فى المثول أمام محاكم فارسية والسماح لهم باقامة شعائرهم الدينية بحرية وحمل الاسلحة للدفاع عن انفسهم • والمعروف ان المفاوضات التجارية والدبلوماسية بين كانوك والشاه جرت دون علم السفير الانكليزى فى اصفهان الذى غضب من قيام كانوك بتلقيب نفسه سفيرا للملك الانكليزى واتهمه بتبذير اموال شركة الهند الشرقية • وقد شك الشاه من أمر الانكليز الذين انقسموا على انفسهم وتقدم الان سفيرهم يطلب فرمانا جديدا واخذ الشاه يعمل على اعادة العلاقات العامة مع الدولة البرتغالية وقد أرسل السير روبرت شيرلى فى ١٦١٦ الى الهند لحل مشكلة احتكار الحرير وقد وصل الاخير الى مدريد فى ١٦٢٢ •

وفى فارس استغل الممثلون الجدد لشركة الهند الشرقية الانكليزية المنافع التى حصل عليها كانوك بالرغم من الشقاق الذى ظهر بينهم وخاصة بين باركر (Barker) ومونوكس (Monox) • وقد أوصل السير توماس راو البعثة الجديدة التفاوض مع الشاه على اعتبار ان كانوك كان سفيرا رسميا يمثل البلاط الانكليزى وكان غرضه الحصول على حق حرية التجارة فى شيراز • وكان راو يعتقد باهمية التفاهم مع اسبانيا فى سبيل سلامة التجارة بينما كان بقية ممثلى شركة الهند الشرقية يعتقدون بوجوب محالفة الشاه لاجل طرد البرتغاليين من الخليج العربى وبذلك تصبح جميع تجارة منطقة الخليج بما فى ذلك فارس والعراق احتكارا للشركة المذكورة • وقد تمكن من الحصول على امتيازات تجارية فى فترات مختلفة وفى ١٦١٨ وافق الشاه على منع تصدير الحرير الى أوربا عن طريق تركيا

(15) Letters Received By the East India Company. Vol. VI. pp. 273-297.

أو الى اسبانيا والبرتغال وجعل حق الشراء احتكارا لشركة الهند الشرقية وحدها • وفى الوقت الذى استمر فيه الانكليز على فتح محطات تجارية متعددة فى جنوب ايران قام الملك جيمس ملك انكلترا فى ١٦٢٠ بتقديم طلب الى الشاه لغرض السماح للشركة بفتح وكالات تجارية فى جسك • وقد طرد الفرس البرتغاليين من رأس الخيمة على الساحل العربى ١٦٢٠ وفى نفس السنة دخل الانكليز مدينة جسك(١٦) • وكان الشاه عباس الاول خلال ١٦٢١ على استعداد لطرد البرتغاليين من هرمز التى اعتبرها جزء من الاراضى الايرانية • وقد تقوى عزم الشاه على استرجاع هرمز خاصة بعد الانتصارات العسكرية التى نالها ضد الاتراك فى تبريز خلال ١٦١٨ – ١٦١٩ • وقد استطاع الشاه بعد استيلاءه على مدينة قندهار من تأمين خطوطه العسكرية فى الجهات الشمالية الشرقية والشمالية الغربية • ولاجل السيطرة على هرمز – ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز –فقد استعان عباس الاول بشركة الهند الشرقية الانكليزية التى ترددت اول الامر فى زج نفسها فى معارك بحرية ضد الأسطول البرتغالى • ولكن اصرار مونوكس ، الذى كان يعتبر الممثل الرئيسيلانكلترا فى فارس ، علىوجوب عدم اعطاء الفرصة لتغلب البرتغاليين جعل الشركة ترضى بوضع اسطولها تحت تصرف حكم فارسستان اذا ما وافق الشاه على الشروط التى تقدمت بها الشركة وهى : (١) تقسيم الغنائم بالتساوى بين الشركة والحكومة الفارسية • (٢) تقسيم أسرى الحرب حسب الاديان فيسلّم الاسرى المسيحيون الى الانكليز والاسرى المسلمون الى الفرس • (٣) تسليم القلعة البرتغالية فى هرمز – بما فيها من اسلحة وذخائر –الى الانكليز علىالشرط ان يسمح للفرس باقامة قلعة خاصة بهم فى الجزيرة • (٤) تقسيممدخولات المكوس فى الجزيرة بين الانكليز والفرس بالتساوى • (٥) اعفاء التجارة

---

(16) Saldanah J. A, "Selections From State Papers". Bonbay. 1600-1800. P. S.

الانكليزية في هرمز من الضرائب[17] • وقد قبل حاكم فارسستان امام كولى خان عن هذه الشروط مع تعديل بسيط تقدم به الشاه وهو ان يسلم الضباط البرتغاليين في هرمز وقشم الى الفرس وان تبقى قلعة هرمز تحت الاحتلال الانكليزي والفارسي •

وفي هذه الفترة كانت الاساطيل البرتغالية في الخليج العربي تحت قيادة روم دي اندريادي Rom Ruy Freire de Andrade الذي كان قد انشأ قلعة قوية في قشم والذي كان قد أوقع خسائر فادحة بالاسطول الفارسي قبل التحالف الانكليزي ـ الفارسي الاخير • وفي ٢٢ كانون الثاني ١٦٢٢ سلم الاميرال البرتغالي للاسطول الانكليزي الذي حاصر هرمز وسلمه الانكليز بدوره الى الجانب الفارسي حسب مضمون الاتفاقية الاخيرة • وقد انزلت السلطات الفارسية قطعات ارضية الى هرمز في بداية شهر شباط • وقد اعترض البلاط الاسباني على الاعمال العسكرية التي قام بها اسطول شركة الهند الشرقية في الخليج العربي وما قام به من اعمال ضد هرمز والاسطول البرتغالي مما اعتبر مخالفا للعرف الدولي في وقت تتصف به العلاقات الانكليزية ـ الاسبانية ـ في القارة الاوربية بالوفاق التام والصداقة المتبادلة • أما شركة الهند الشرقية فقد قدمت رشوة الى الملك جيمس مقدراها ١٠٫٠٠٠ باون ومثلها الى الدوق بكنكهام (Duke of Buckingham) قائد البحرية الانكليزية • واذا علمنا ان حصة الشركة من الغنائم البرتغالية كانت لا تزيد على ٢٥٫٠٠٠ باون علمنا مدى الاهمية الآنية من تلك المغامرة • والواقع ان الاهمية الحقيقية من وراء الاستيلاء على هرمز ترجع الى وقوعها على طرق التجارة المهمة واعتبارها قاعدة استراتيجية لاسطول الشركة • ويمكن اعتبار أهم نتائج اشتراك اسطول الشركة في العمليات البحرية ضد البرتغاليين هي قناعة الشاه باهمية التحالف الانكليزي ـ الفارسي واطلاقه ايديهم في الامور التجارية وتأكيده على امتيازات ١٦١٧ التي أعطيت الى كانوك مندوب الشركة •

(17) Letters Received by the East India Company. Vol. vi. p. 293.

وقد أستقر اكثرية البرتغاليين الذين انسحبوا من هرمز فى ميناء مسقط وكان معهم نجل شيخ الجزيرة العربى الذين كان يطمع فى استعادة مركز أبيه فى الجزيرة • وقد حاول الفرس ، بعد انتصاراتهم فى هرمز ، الاستيلاء على مسقط ولكن بدون عون الانكليز ـ وقد فشل الفرس فى هذه المحاولة ولكنهم نجحوا فى الاستيلاء على ميناء صحار وخور فكان على ساحل عمان • وقد انسحب الفرس من المركزين الاخيرين نتيجة لهجوم خاطف قام به البرتغاليون برا وبحرا تحت قيادة الاميرال دى اندارادى الذى فر من معتقله فى فارس بواسطة الانكليز • وقد ظلت عمليات الاسطول البرتغالى ضد الساحل الفارسى مستمرة من ١٦٢٢ الى ١٦٢٥ حيث هزموا قرب ميناء بندر عباس من قبل اسطول انكليزى وآخر هولندى • وقد بقى الاميرال البرتغالى المهزوم على الساحل العربى وهناك قابله الرحالة الايطالى الشهير بيترو ديلا فالاى (Pietro della Valle) وفى نفس الوقت أقام الفرس تحصينات عسكرية فى بندر عباس وقشم وهرمز •

وقد اخذ مركز الهولنديين يتقوى فى الخليج لعربى وانتهزوا فرصة سقوط هرمز لتأسيس مركز تجارى لهم فى بندر عباس • وقد تحالفوا فى البداية مع الانكليز لاجل قهر الاسطول البرتغالى ولكنهم سرعانما دخلوا فى صراع دام مع اسطول شركة الهند الشرقية الانكليزية حول الامتيازات والاحتكارات التجارية فى تلك البقاع • وقد رفض الهولنديون دفع أى ضريبة فى بندر عباس (وترجع الضرائبفى هذا الميناء الىالانكليز والفرس معا) كما وضعوا خطة بحرية للاستيلاء على هرمز •

وأما الشاه عباس فكان لا يزال يتقدم على حساب الاتراك وقد تمكنت الجيوش الفارسية بخلال ١٦٣٨ من السيطرة على العراق والاستيلاء على بغداد (التى ظلت بايديهم الى سنة ١٦٣٣) كما استولوا على الاماكن

(18) The Travels of. Sig. Pietro della Valle Into East India and Arabia Deserta. 1665.

الاسلامية المقدسة في الكاظمية وكربلاء والنجف • وقد فشل الفرس في الاستيلاء على البصرة التي دافع عنهـا بقوة حاكمها العثماني بالتعاون مع الاسطول البرتغالي •

ان الخلافات التي وقعت في لندن بين مندوب الشـاه هناك ، السير روبرت سيرلي ، وبين السفير الفارسي الجديد ، نجدي على خان ، الذي عينه الشاه نفسه جعل الملك شارل الاول يرسل ، بتأثير من الشركة ، السير دود مور كوتون (Sir Dodmore Cotton) لاخذ وجهة نظر الشـاه في هذا النزاع الدبلوماسي من جهة ودراسة امكانية توسيع العلاقات التجارية بين فارس وانكلترا •

وقد حمل الاسطول الانكليزي الذي غادر المياه الانكليزية في سنة ١٦٢٧ السفير الجديد وحاشيته ومؤرخ البعثة السير توماس هربرت[١٩] (Sir. Thomas Herbert) والسفيرين السير روبرت شيرلي ونجدي على خان وقد انتحر الاخير قبل وصول البعثة الى ساحل الهند بابتلاعه كمية من الحشيش • وقد سارت البعثة الى بندر عبـاس ومن هنـالك عن طريق لورستان الى شيراز وقـد استقبلهم هنـاك ممثـل البعثـة المستر برت (Mr. Burt) ، ثم توجهوا بعـدها الى بلاط الشاه في أشرف من اعمـال مازندران • وبعد أربعة أشهر من وصول البعثة الانكليزية الى مازندران قابل السير كوتون الشاه الفارسي وشرحله ان الهدف من الرحلة هو تقديم التهاني الى الشاه بمناسبة انتصاراته على اعداءه الاتراك وكـذلك لغرض تقوية الصلات الاقتصادية بين انكلترا وفارس • وقد رحب الشاه بمقـدم السير كوتون وأكد له انه يوافق تماما على سياسة السير روبرت شيرلي كما أكد له عزم حكومة الشاه على تقديم امتيـازات جديدة لتجارة الحرير الانكليزية في بندر عباس • وقد اعترى علاقات السفير الجديد برود ملحوظ مع القصر الشاهي نتيجة لسوء الظن الذي وقع بين السير روبرت شيرلي

(19) A Relation of some Years of Travaile, Begunne Anno 1626 Into Africa and the Greater Asia.

وبين محمدعلى ، احد المقربين الى الشاه ، مما ادى الى عدم حصول السفير الانكليزى كوتون على مقابلة أخرى مع الشاه . وقد توفي السير روبرت سيرلى فجأة فى ١٣ تموز وتبعه السير دود مور كوتون بعد عشرة أيام .

وقد استمر الشاه عباس الاول فى حكمهحتى بداية سنة ١٦٢٩ حيث توفي وخلفه على العرش حفيده صوفى خان . وقد ضعفتالسياسة الخارجية الفارسية فى عهد الاخير كما ساءت الاحوال الادارية . وكان من جملة ضحايا صوفى خان هو الامام كولى خان حاكم شيراز الذى كان قد استولى على هرمز بمساعدة الانكليز . وقد ساءت العلاقات الايرانية ـ الافغانيـــة واستولى امبراطور المغول على قندهار وفى ١٦٣٩ منع تجار المغول من المتاجرة فى فارس وخاصة فى بندر عباس . وقد استعاد الاتراك بغـداد فى ١٦٣٨ واصبحت اكثر المدن العراقية بايديهم بما فى ذلك المدن المقدسة التى كانت فى قبضة الفرس من ١٦٢٣ كما اضطر الفرس لقبول معاهدة ١٦٣٩ التى وضعت القواعد الاساسية للحدود بين الامبراطوريين العثمانية والفارسية . وقد تولى عباس الاول الحـكم بعد والده شاه صفى فى ١٦٤٢ وفى زمانـه استمرت فترة السلم قائمة بين فارس والامبراطورية العثمانية وقد امتازت الفترة ١٦٤٨ ـ ١٦٥٠ بالحروب المتواصلة مع امبراطور المغول الذى ارغم على ترك قندهار .

ان اخبار وفاة الشاه عباس ، التى كانت قد وصلت الى لندن ،قد ايقظت شركة الهند الشرقية الى ضرورة تجديد الامتيازات التجارية مع خليفته . وقد حصلت الشركة على تجديد فرمان عباس الاول لسنة ١٦١٧ فى آب ١٦٢٩[٢٠] بعد صعوبات كثيرة وبعد ان تعهد وكلاء الشركة فى فارس بشراء ما قيمته ٢٠،٠٠٠ الف تومان من حرير الشاه سنويا يدفع ثلث المبلغ نقدا واذا بقى الشاه على عهده يستمر الاتفاق بينه وبين الشركة التى كانت عـلى استعداد لدفع هدايا شخصية للشاه وحاشيته لا تقل قيمتها عن ١٥٠٠ باون

(٢٠) لنص الفرمان الـكامل باللغتين الفارسية والانكليزية راجع :
Letters Received by the East India Company, Val VI, p. 293.

فى السنة . والمعروف ان معظم الامتيازات التجارية للشركة قد جددت بعد اعتلاء الشاه عباس الثانى العرش ولكن العروض الجديدة التى تقدم بها الانكليز فى ١٦٤٤ رفضت من قبل القصر وذلك لتوقف الشركة عن شراء الحرير بنفس المقادير التى حددها فرمان ١٦٢٩ . ومن الطريف ان نذكر بان اسباب السياسة الجديدة تعود الى التأثيرات البيورتانية الجديدة فيانكلترا. وقد انخفضت الاسهم البريطانية في بندر عباس وقلت حصتهم من الضرائب الى حد كبير وذلك لخمود تجارة بندر عباس فى هذه الفترة من ناحيـة ولتأثر التجارة والضرائب بالتقاليد التى كان من الصعب على الانكليز فهم العلاقة بين بعضها البعض . وقد رفض التجار دفع اى ضريبة على البضائع التى يقدمها اصحابها هدايا الى الشاه ورجال قصره وحدث ان زار سـفير المغول الشاه الفارسى فى ١٦٢٦ بدعوة رسمية وعند نزوله من السـفن الانكليزية فى ميناء بندر عباس رفض دفع الضرائب عن البضائع التى كانت معه بحجة أنها هدية من امبراطور المغول الى الشاه . وبلغت حصة الشركة من مدخولات ميناء بندر عباس فى الفترة ١٦٣٠ - ١٦٣١ مبلغ ٥٥٠ تومان وقلت فى ١٦٣٢ - ١٦٣٣ الى ٢٤٢ تومـان وفى ١٦٣٣ - ١٦٣٤ اصبحت ٣٤١ تومان فقط[٢١] . ان قلة مدخولات بندر عباس كانت تعود كذلك الى اهمال المسؤولين الفرس والانكليز على السواء لقضايا تنظيم الضـرائب وتحويل اموال دائرة الكمارك والمكوس الى جيوبهم الخاصة ومن امثال هؤلاء الكابتين ويدل (Captain Weddle) احد كبار رجال شركة الهند الشرقية ، الذى اتهم فى ١٦٣٣ بالرشوة والفساد .

اما تقارير الشركة الانكليزية فهى تضع اللوم على الفرس لسماحهم لجماعة اخرى وهم الهولنديين بحرية التجارة فى المياه الفارسية وتؤكد هذه التقارير ان دخلها من ميناء بندر عباس يجب ان لا يقل عن ٥٠٠٠ تومان سنويا (أى ١٥٠٠٠ باون انكليزى) . وفى تقرير سرى رفعه مبعوث دوق

(٢١) كان التومان الفارسى يعادل مبلغ ٣ باونات انكليزية فى قونه الشرائية فى ١٦٢٥ وارتفعت قيمته فى ١٦٧٧ فأصبح يعادل ٣٪ باون .

هولشتاين الى الشاه أثناء مروره بميناء بندر عباس فى ١٦٣٨ ، بان الشركة تتناول عشر حصتها الفعلية .

وهنالك نقطة اخرى أود ان اتطرق اليها فى هذا المقال وهى استمرار الخطر العسكرى البرتغالى للانكليز فى الخليج العربى بالرغم من انهيار مركزهم الدولى فى الشرق . وقد حددت التعليمات الرسمية الى الكابتن سوانلى (Swanley) الذى كان يقود خمس سفن كبيرة من اسطول الشركة فى مياه الخليج العربى فى الفترة ١٦٢٨ - ١٦٢٩ والذى كانت سفينته الخاصة تقل مبعوث امبراطور المغول الى بلاط الشاه ، بوجوب تعقب قطع الاسطول البرتغالى واغراقها اينما يجدها . وقد حاول نائب الملك البرتغالى فى ١٦٣٠ ، الذى كان قد استلم نجدات عسكرية من أوربا ، منع وصول الاسطول البريطانى الى سورات ولكن المحاولة الاخيرة فشلت بالرغم من اشتراك القوات البرية البرتغالية فى المعارك على سواحل كرمان الجنوبية . وقد وصلت نائب الملك فى گوا تعليمات من ملك اسبانيا يطلب منه فيها ارسال مبعوث خاص الى شيراز للتفاوض مع حاكم فارسستان . وقد نجح المبعوث عن طريق الرشوة ، الى جذب الحاكم الفارسى لقبول وجهة النظر البرتغالية فى قضايا الخليج العربى والتى تتركز فى حصول البرتغاليين على امتيازات جديدة فى مدينة كونج . وقد فشلت المحاولة البرتغالية الاخيرة وذلك ليقظة شركة الهند الشرقية وحذرها من مؤامرات المنافسات الدولية الاخرى . وقد نجحت الشركة فى اقناع الشاه مباشرة باهمية ارسال نجدة عسكرية قوامها ٢٠٠ جندى لحماية المصالح التجارية الانكليزية فى بندر عباس من الغارات البرتغالية . وهكذا يأس البرتغاليون من صداقة شاه فارس ووجهوا انظارهم الى تدبير خطة جديدة فى ١٦٣١ ترمى الى الاستيلاء على هرمز بالقوة العسكرية . ولكن الخطة العسكرية الاخيرة فشلت وذلك لعدم مقدور الاسطول البرتغالى على التمركز فى رأس الخيمة على الساحل العربى من جهة وعدم مقدرتهم على جذب الشيوخ العرب الى حلف عسكرى[٢٢] .

(22) Calender of state papers (Colonial), 1622-409, No. 303.

وكان الفرس يدرسون في الفترة ١٦٣٢ ـ ١٦٣٣ امكانيـة المبـادرة بالهجوم على المراكز البرتغالية الاستراتيجية في مسقط للحصول على معاونة الاسطول الانكليزي واذا ما فشل في هذه المهمة فانه سيتوجه الى جهـة اوربية اخرى وهي هولندا • ولـكن الخطة الفارسية الاخيرة لم تظهر الى حيز الوجود وذلك للمنافسات القائمة حينئذ بين حاكم شيراز وحاكم مقاطعة فارسستان حول السلطة في الولايات الجنوبية الغربية • وقد استمر حكـم البرتغاليين في مسقط وقد قاموا في ١٦٣٤ باعادة ترميم قلاعهم فيها • وقد ذكر مبعوث دوق هولشتاين ، الذي زار ميناء بندر عباس في ١٦٣٨ ، بان اللغة البرتغالية هي اللغة الدارجة بين سكان بندر عباس ولـكنه ذكر كذلك بان السلطات الفارسية منعت الاسبان والبرتغاليين من دخول المدينة وذلك لما كان يحدث عادة من اشتباكات مسلحة مع الاهالي المتعصبين للاسلام •

ان الشؤون المحلية للخليج العربي والعلاقات الدولية كانت تتأثر على الدوام بالعلاقات الاوربية على القارة الاوربية نفسها • فان تحسن العلاقات الاسبانية ـ الانكليزية في ١٦٣٤ ادى الى تحسين العلاقات في الخليج العربي والمحيط الهندي بين المنافسة الانكليزية الممثلة بشركة الهنـد الشـرقية والمنافسة العسكرية لنائب الملك في گوا • وقد وقـع نائب الملك البرتغالي والمعتمد البريطاني في ميناء سورات على هـدنة عسكرية في مايس ١٦٣٤ وبذلك توقفت المصادمات المسلحة بين الطرفين في تلك البقاع • وفي السنة التالية اصدرت شركة الهند الشرقية تعليماتها الى وكلاءها في الخليج العربي وخاصة في بندر عباس وجنوب فارس بوجوب اتخاذ موقف الحياد في أي نزاع يحدث بين الفرس والبرتغاليين • وقد تحولت هذه الهدنة العسكرية الى معاهدة صداقة وقعها الطرفان في ٢٠ كانون الثاني ١٦٣٦ في العاصمة الهندية گوا[٢٣] • والواقع ان البرتغال استعادت قوتها الاوربية في ١٦٤٠ على اثر انفصالها عن اسبانيا ، بعد حكم دام ستين عاما ، ونتيجة للجهود التي

(23) Miles, Col. S.B. "the Portuguese In Eastern Arabia" 1885. p. 50.

بذلها أمير براكانزا فى سبيل الاستقلال • ولكن هذا التغيير لم يجدد حيوتها فى العلاقات الدولية ولم يرجع مركزها القوى فى الشرق • وظلت مسقط تعتبر القاعدة الرئيسية للبرتغاليين فى مياه خليج عمان •

وقد توجهت انظار البرتغاليين ، بعد ضياع هرمز ، الى مدينة البصرة فى العراق فاتخذوها مركزا لنشاطهم التجارى ونشاطهم فى ميدان التبشير• وقد أسس البرتغاليون محطة تجارية فى البصرة ومركزا دينيا فيها ودخلوا فى منافسة جدية مع التجارة الانكليزية • وقد ساعدوا الاتراك فى ١٦٣٤ و ١٦٣٥ اثناء الدفاع عن البصرة والممتلكات العثمانية الاخرى أمام غارات الفرس ووضعوا خمس سفن صغيرة فى مياه شط العرب لهذا الغرض • ان تغيير وجهة نظر الاطماع البرتغالية من الفرس الى الاتراك وتغيير تيار تجارتهم فى الخليج العربى من فارس الى الامبراطورية العثمانية كان قد فسّر من وجهة نظر الشاه الفارسى بانه عمل عدائى ، وكان هذا من الاسباب التى دفعت الفرس الى تجديد هجماتهم العسكرية ضد البصرة •

ان تبعثر الجهود العسكرية البرتغالية فى الخليج وفشلهم الدبلوماسى مع الدول المحلية فى الشرق الاوسط اضعف مركزهم الرئيسى فى مسقط ففى ١٦٤٠ كانت انباء الانتكاسات العسكرية البرتغالية فى المحيط الهندى والخليج العربى قد تسربت الى عمان ومسقط واخذ السكان العرب يشكون فى قوة القلاع البرتغالية التى تطل من جبال مسقط • وكان امام عمان هو اول من شعر بالضعف العسكرى البرتغالى • وقد هاجم العرب فى تشرين الاول ١٦٤٣ ميناء صحار وقتلوا جميع الحامية البرتغالية هناك وأسروا ٣٧ من الحرب البرتغالى • وحاصر العرب مدينة مسـقط فى ١٦٤٨ واجبروا الحاكم البرتغالى العام على قبول شروطا مهينة لهيبة البرتغاليين ومركزهم العام فى الخليج العربى ومنها دفع الجزية وتسليم مدن خرباط ودبار الى العرب • ونتيجة للانهيار البرتغالى ارسل ملك البرتغال فى ١٦٤٩ تعليمات مشددة الى الاسطول البرتغالى فى المحط الهندى والخليج العربى بوجوب الدفاع عن مسقط بكل القوات المتوفرة وعدم تسليمها مهما كان الثمن وطالب باخراج

شيوخ مسقط من داخل المدينة واتخاذها مدينة عسكرية كما طالب بالعمل على بناء بحرى يكون قاعدة للاسطول البرتغالى فى بقعة تقع الى الجنوب من ميناء بندر عباس • ولكن هذه التعليمات وصلت متأخرة فقد زادت هجمات العرب على مسقط فى نهاية ١٦٤٩ وفى كانون الثانى ١٦٥٠ سلمت قلعة مسقط بكامل جيوشها واسلحتها وغادرت جيوش الاحتلال البرتغالية مياه مسقط الى الابد •

على أثر زوال الحكم البرتغالى فى مسقط وعمان اخذ البرتغاليون يفتشون لهم عن مراكز جديدة فى الخليج العربى وكانوا ينظرون بصورة خاصة الى ساحل اللار الفارسى (مقاطعات موانىء لنكه وباستاك الحالية) وساحل الاحساء • وبالرغم من العروض التى تقدم بها الشاه وخاصة بالنسبة الى جزيرة هنجام ولكن البرتغاليين كانوا يفضلون الساحل العربى وخاصة ميناء خصب (الذى اطلق عليه البرتغاليون اسم كاسابو Cassapo) • وقد بقى مركز التجارة البرتغالى فى كونج نشطا ولكنه اضمحل تدريجيا بعد ان توقفت السفن التجارية من الذهاب اليه بعد ان كثرت الاعتداءات البرتغالية المسلحة على السفن التى لا تتاجر مع كونج فاعلنت الوكالات التجارية مقاطعتها الاقتصادية لهذا المركز التجارى البرتغالى الوحيد •

وهكذا اخذ النفوذ البرتغالى ينكمش تدريجيا واخذت الممتلكات البرتغالية تضيع الواحدة بعد الاخرى وضاع المركز التجارى والاستراتيجى الممتاز الذى كانت البرتغال تملكه فى الخليج العربى ، أهم طريق دولى بين أوربا والشرق • واما العلم البرتغالى ، الذى ظل يرفرف على مياه الخليج قرابة قرن ونصف قرن والذى كان رمز القوة والتجارة فقد اختفى وأصبح سكان الخليج يرون أعلاما جديدة تخفق على ساريات الاساطيل ••• من هولندية وانكليزية وفرنسية •

ويمكننا أن نلخص أسباب سقوط البرتغاليين فى الخليج العربى الى هذه العوامل :

(١) استعمالهم العنف والخيانة فى معاملة جيرانهم الشرقيين •

(٢) انقسامهم الفضيع من أجل السلطة فى الخليج و التنافس المسلح المستمر بين قادة الاسطول البرتغالى •

(٣) عدم تقليدهم الانكليز والفرنسيين فى تأسيس شركات تجارية خاصة تتولى ادارة السياسة والتجارة فى تلك الاصقاع مباشرة وعدم كفاءتهم فى ادارة التجارة التى اعتبروها احتكارا للملك البرتغالى •

(٤) فقدانهم النظام العسكرى وهذا ظاهر فى القواعد العسكرية والبحرية المهمة •

وقد وصف الرحالة الايطالى الشهير پياترو ديلا فالاى (Pietro della Valle) الوضع الاجتماعى للقوات البرتغالية فى الخليج العربى (فى الفترة ١٦٢٤ ـ ١٦٢٥) بأنه يمتاز بالفوضى وهذا ينطبق على رجال الاسطول الذى امتازوا بالتوحش وفقدان الفضيلة الدينية الكاثوليكية• وقد وصف هذا الوضع الاجتماعى وأثره على السياسة العامة مؤرخ برتغالى معاصر ذائع الصيت وهو عمانويل دى فاراى ـ (Manuel de Fariay Sousa) ما ترجمه أحد المؤرخين بالانكليزية نصا (٢٤):

"The Ruin of our affairs Proceeds from the little regard the Great Ones Have for the Lesser sort; and the covetousness of the Small ones, which Made them Forget their country and their Honour ...... The Portuguess can recover what is lost, But Know not How to preserue what they gain which the Most glorious part it Bing the work of fortune to Gain and that of prudence to preserve"

---

(24) See "Portuguess Asia" Vol. III, pages 383-3 (Stevens' Translotion of Hanuel de fariay Soussa"

مصادر البحث الرئيسية

(1) W.N. Foster, "Letters Received by the East India Conpany from thir Servants in the East,,. 6 volumes, 1896-1902. Covering the Period 1602-1617.

(2) Calender of state Paprs, for 1513-1616, 1617. 1624 al 1625-1660, 4 Volumes; clo. East India and persia, for 1630-34, vol I.

(3) Bruces Annals of the Honourable East India Company, 3 volumes, 1810 Covering the period 1600-1708.

(4) J. A. Saldanah, "Selections From state papers, Bombay, Regarding the East India Companys' Connection with the persian Gulf, with summary of events 1600-1800. printed 1905.

(5) Lieut-Col, R. Low, "The History of the Indian Navy". 1874. 2 Volumes.

(6) W. N. Foster, "Embassy of sir Thomas Roe" for the Period 1615-1619.

(7) W. N. Foster, "Purchase His Pilgrimes". Volume - X. reprint of 1905) which Contains A Summary of the Situation in the Gulf of Arabia 1621-1622.

(8) Herbert , "Some xears of Travels Relating to Sir D. cotton; Embassy to persia in. 1627-28.

(9) Fryers' "New Account of East India and Persia, 1698, Reffering to the years 1677-78.

(10) Hamiltons' "New Account of the east Indies, Based on a personal Experiences" Between 1688-1723. (1739).

(11) Travels of Pedro Eeixeira, English Translations. 1902. Reffering to the year 1904.

(12) Travels of Sig. Pietro della Valla, Englich Traslation. 1665. For the years 1623-25.

(13) Taverniers' Travels, English Traslations of 1684, Relating to 1625-1650.

(14) Manuel de Fariay Sousas' portuguese Asia, English Translation by stevens, 1695.

(15) Col. S. B. Miles "The Portuguese In Eastern Arabia, Contained In the Gulf of persia Residency Administration Report For 1884. 1885", 1886.

(16) Malcolms' "History of Persia." 1815. Vol. I.

(17) J. G. Lorimer "Gazetter of the persian Gulf" Secret. 4. Volume. Bomby 1908.

« داود باشا »

ونهاية دولة المماليك في العراق

١٨١٧ ـ ١٨٣١

١٢٣٢ ـ ١٢٤٦

الدكتور يوسف عزالدين
المدرس فى قسم اللغة العربية

طالت غيبة الطفل المترف المدلل عن اهله « وطال هلع امه ونحيبها ولـكن اين داود ؟ الـكرجى الجميل ..... الصبوح المشرق وهو الذى لم يتجـاوز من العمر الثانية عشـرة ؟! كان بين يدى سـارقيه يحـاول التخلص بكل ما اوتى من قوة الطفولة وعرامها ..... يدفعه الهلع ..... ويحرقه الحنين الى اهله واسرته والخوف من المجهول ... فهو لا يعرف ما يريدونه من سرقتهم له ، والى اين سيقر قراره .[1]

ولو ان عالم الغيب انكشف له فى تلك الساعة « وعلم انه سيكون واليا على العراق بأجمعه ..... لظن ذلك اوهاما ... واعتقد انها خدعة يريدها له السارقون .....

اوصلوه الى بغداد اسيرا[2] ... وكانت بغداد بحاجة الى المماليك لـكى تربيهم وتدربهم « وتثقهم وتنتفع بهم » وكان الولاة حريصين عـلى تكوينهم لانهم سيكونون الصق بهم وسيكون مستقبل الواحـد منهم مرتبطا بمستقبلهم لذلك سيخلصون لهم ويتفانون فى خدمتهم ورضائهم .

بيع داود فى اسواق العراق وانتقل من يد الى اخرى وقابل مختلف الناس والعناصر وفيهم الرفيق اللطيف والخشن الفظ حتى وصل به المطاف

---

(١) تذكرة الشعراء ص ٥ ، ٢٢ ولونكريك ص ٢٣٩ .
(٢) خلاصة تاريخ العراق ـ للـكرملى ص ٢٠٦ .

الى سليمان باشا الكبير (٣) فاذا بهذا الطفل المسيحى يعيش فى بيئة اسلامية « ويرى الجموع تصوم وتصلى وتؤدى الفرائض » فابتعد عن الكنيسة وعن اجراسها ولم يبعث فى نفسه اصواتها الا ظلالا من الذكريات تعنف احيانا ولكنها اخذت تهفت وتتضاءل اذ لم يذهب اليها ليؤدى القداس ولم يقم بشعائر الصلاة فيها واستبدل بها ، الجامع وصوت المؤذن الذى ينادى الله أكبر ...... وان محمداً رسول الله ...... فعند ذلك اطمأن قلبه الى الاسـلام .

عرف داود الحياة وتمرس بآفاتها صغيرا « وتعلم ما لم يتعلمه امثاله من الشباب وقد اخذ سيد البلاد يعنى به العناية الطيبة ويوجهه التوجيه الكريم » ولا يدخر وسعا فى تعليمه وتثقيفه . وكانت مرارة البيع والشراء « والتقلب بين أيدى الناس تزيد فى حماسة هذا الفتى الذكى يؤازرها حماسة الشباب والغربة وذلة الاسر[٤] فهو رفيق ملك سيده وهو عبد أقل مستوى من الاحرار فيجب ان يرفع من قيمته فى هذا المجتمع الذى انزله الى هذه الدرجات وليبرهن لهم انه اعلى منزلة من غيره من المماليك كان امامه سبيل العلم واضحا موطدا ومهيع الادب والفضل لاحبا فلم يتزود منه ولا يرتوى من هذا النمير العذب الزلال ؟! فانكب داود بهمة ونشاط على دروسه فدرس اللغة العربية والفقه والاصولين (الفقه والدين) كما اجاد القرآن الكريم اجادة تامة وحفظ من آياته البينات ثم ألم بالتصوف ودرس البيان والبديع وعلم التفسير وكل العلوم التى كانت تدرس آنذاك للطلاب[٥] .

فكان الطالب المبرز واصبح العلم الذى يشار اليه بالبنان . ثم اجاد اللغتين الفارسية والتركية فقد كان اديبا باللغات الثلاث . كان داود يدرج فى مراقى العلم بين اخوانه يدربه مدرب خصص له سيده على استعمال السيف « فكان الفارس البطل » .

---

(٣) لونكريك « تذكرة الشعراء » مطالع السعود ومختصره .
(٤) خلاصة تأريخ العراق ص ٢٠٦ وتذكرة الشعراء .
(٥) مطالع السعود ومختصره ولغة العرب ٢/١٢ .

كل هذا وسيده يرقبه عن كثب ويعجب به اشد الاعجاب فأزدادت ثقة سليمان باشا الكبير به » وحرصه على راحته » هذه الثقة جعلت من داود امينا لمفاتيح الوالى » ثم حاملا لاختامه » .

وكانت العيون ترمقه شزرا » وتنفث قلوب الحاقدين كمدا وحزنا لما اصابه هذا المملوك من العطف السامى الذى حباه به سليمان . والذى كان يكافىء النبوغ والعبقرية فزاد فى النفوس غيظها وكمدها .

ثم اصبح الناس حيارى من هول ما سمعوا : « ان سليمان باشا يزوج ابنته لداود ، السيد الجبار حاكم بغداد يزوج ابنته لعبد من عبيده ولكنهم لو فتشوا فى دخائل سليمان لوجدوه يعيد امامه تأريخ حياته ، الم يكن مثله رقيقا يباع ويشترى » فلماذا لا يسبغ على داود عطفه ولماذا لم يذقه من الحنان والعطف والرضا » بعد ان نسى الحنان بين اسرته .... واخوانه واصحابه فما عاد يذكر للحنان واللطف الا الذكريات .

وما بال القوم يهذرون الم يأمر الدين الاسلامى الكريم بمعاملة الارقاء معاملة حسنة ويأمر بالتحدث اليهم بالحديث اللطيف ليجبر تلك النفوس الكسيرة فكم من مرة امر الرسول العظيم وحث على مواساتهم والحدب عليهم واستنزل اللعنات على من يضرب عبده ؟!

ثم ألم يكن سليمان (اغا) متزوجا بأبنة سيده أحمد باشا ثم غدا بعدها (باشا) وهو اول من رسخ عهد المماليك فى العراق عام ١٧٥٠ م فلماذا يتقول الناس ؟ لا شك انهم قد نسوا ذلك الحديث لبعد الايام وتوالى السنين.
اخذ داود باشا يعتلى المناصب حتى صار (دفتردارا) وكان هذا المنصب لا يعهد الا لذوى الكفاية والدراية والعقل الكبير من الناس . لان الدولة كانت تعيش للمال وتحيا به وليس لسوى المال من حياة هذا فى زمن عبدالله التوتونجى وعندما تسلم سعيد بن سليمان باشا الحكم رفعه الى درجة (الكتخدا) وقد كان داود يرفع من سمعته يوما بعد يوم . فلم ينزل كغيره الى قبول الهدايا والرشاوى وهو فى غنى عنها يصده العلم والادب والتجارب

القاسية المرة • ثم فكر فيمن يسانده ويعتمد عليه في المستقبل لذا عامل الجيش معاملة حسنة فكسبه ثم ان داود كان دائم الابتسام بشوشا في سلوكه غير متصنع في معاملاته كما كانت ظرافته تستعبد اشد مناوئيه وتجذبهم اليه[٦] كل ذلك لكي يعد نفسه لليوم الكبير ويهيىء الجو لكي يتسنم عرش بغداد ويهز صولجانها بيده وقد كان يجتمع في نادية الناس • وكان هذا النادى ملتقى الطبقات المثقفة والبارزة وكانت تخرج منه فتكيل الحمد له والثناء على اخلاقه وكرمه • مشيدة بفضله • هذه النفس الذى اسرت قلوب الناس • واستولت على نفس سعيد صهره وابن سيده ، فقد كان يحمل لداود ذكريات الطفولة وكان يرى والده برا به ، عطوفا في معاملته ، وكان الطفل سعيد يهرع الى داود يسأله دروسه فكان يبذل قصارى جهده في توجيهه فيزداد اعجابا بالعلم الوفير والوقار والهيبة التي يلمسها في داود •

ولما تبوأ سعيد باشا اريكة الحكم عين داود كتخداه ، واطلق يده في شؤون الدولة • لكن الشقاق العائلي وسوء التفاهم كثيرا ما يدب بين النساء ، فأخذت أم سعيد تهاجم داود بعنف ، حتى انها قالت لسعيد باشا (ان هذا واشباهه اعدائي منذ عهد عهيد)[٧] وقد حاول سعيد استرضاءها بطرق متنوعة تارة بالتذلل وآونة بالخضوع ثم اخذ يضرب على الوتر الحساس الذى تحسه المرأة وقال له (انه صهرنا المكرم الذى قدمه ابى واختاره الى مصاهرته)[٨] ولكن ضعف الرأى وسيطرة المرأة تغلبا على سعيد باشا رغم حاجاته الماسة اليه ورغم ان عزله سوف يؤدى الى رد فعل كبير بين الناس ويعزف القلوب عن مؤازرته •

نحن لا نلوم سعيدا على عمله فقد كان تحت رعاية أمه حتى ذلك العمر ولم يكن يتجاوز الثانية والعشرين فقد بقي تأثيرها عليه حتى هذه السن كبيرا ثم لم يكن مستقلا في رأيه وعمله عنها ، وقد كان ضعيفا لذلك استسلم الى أم

---

(٦) مختصر مطالع السعود ص ١٢١ •

(٧) الكولمن ص ٢٤ •

(٨) نفس المصدر •

جاهلة ومجنونة[٩] وعزل ركنا من أركان المملكة من منصبه ثم ان سعيد باشا كان محبا للانس والطرب ، ومفرط العشق للنساء[١٠] زد على انه كان ضعيفا « لا يتقيد بالعرف وقد خضع لتأثير امه خضوعا مهينا . وقد اوغرت صدر سعيد باشا بعداء داود وكان حولها جماعة لا تريد النبوغ ان يبرز والسجايا العالية ان تظهر ، فأوهموه ان القصد الاول لداود قتله والاستيلاء على دست الولاية . وخوفوه مغبة الامر . خاصة ان الجيش تأثر بأمر داود وانه يحبه حبا جما ويخضع له راضيا شاكرا له كريم عنايته . ثم جسموا تلك الفكرة فى رأسه واخبروه انه سوف يأمر بخنقه ليلا واكدوا القول فى ذهنه بالتكرار المتواصل .

والحكم والنفس عزيزان على المرء لذا اخذ يفكر فيما يصنع بداود فكان مشيروه اسرع منه اجابة قائلين له (تغد به قبل ان يتعشى بك) ورتبت خطة لقتل داود[١١] فلما علم داود بذلك خرج من بغداد بحجة الصيد[١٢] والقنص ولكنه فر هاربا من بغداد لكى ينعزل فى احد الجبال المحصنة وتبعه اعوانه وبعض المتبرمين والناقمين على سوء معاملة سعيد باشا حتى وصل كركوك فرحب به محمود باشا ترحيبا حارا لمكانته وشهرته[١٣] وفى كركوك كان داود يجلس الساعات الطويلة مطرقا مفكرا معتزلا الناس اذ كان يودع ما تعلمه من جمال التعبير وقوة الافصاح والاقناع فى رسالة بعث بها الى السلطان يخبره بالمصير السيىء الذى وصلت اليه حالة البلاد فى العراق .[١٣]

لا شك فى ان الرسالة كانت معقد آماله ففيها حياته ومماته اما ان ترفعه الى الذروة او ان تنزله الى اللحد وقد كان داود يعد عدته لهذا اليوم الرهيب

---

(٩) لونكريك ص ٢٣٤ .
(١٠) الرافدان ص ٢٥٠ .
(١١) مختصر مطالع السعود ص ١٢٤ .
(١٢) الكولمن ص ٢٥ .
(١٣) مختصر مطالع السعود ص ١٢٤ والكولمن ٢٥ و٢٦ .

منذ عشرين سنة وقد عرف عنه فى الاستانة الشيء الكثير من مزاياه العالية وعلمه الوافر ، وعن مقدرته ، وعن عقله وفضله • ثم ان داود أخبر صديقه فى الاستانة « حالت » افندى بأدق الامور واعمق الاسرار وهناك بذل حالت افندى الجهد اليسير فى توجيه الايالة لداود • وقد كان داود ينتظر ورود الفرمان على احر من الجمر ساهرا لا يغمض له جفن اما بغداد فبقيت بعد داود باشا بيد سعيد وامه المجنونة وجماعة آخرين لا قيمة لهم فى معايير التجارب والعقل فتفشت الفوضى بين الناس وانتشرت اللصوصية دون ان تفكر الحكومة فى الضرب على ايديهم بل ان بعض الناس كانوا يشجعون اللصوص لكى يستفيدوا من الاسلاب[14] ثم ان نفقات سعيد على ملاذه الشخصية ولياليه ومرحه اعادت للذهن عهد العباسيين[15] وعندما كان يعوزه المال كان يستدين من عامة الشعب على ان يسدد ذلك من واردات الكمارك • وبينما كان سعيد باشا ساهرا فى لذاته ونسائه كان داود باشا ساهرا مثله ولكن فى سبيل مثل اعلى ، وفى غاية ارفع هى الاستيلاء على بغداد • فقد وصلت اليه السعادة وشمله الحبور بعزل سعيد باشا وتعينه بيلربكى[16] لبغداد والبصرة وشهرزور واراد داود ان يفت فى عضد سعيد فأرسل صورة الفرمان الى حمود بن ثامر رئيس قبائل المنتفك لانه كان يساند سعيدا[17] ففت فى عضد سعيد بأنسحاب القبائل الموالية له • فما كان من حمود الا ان ارسل الى سعيد باشا ينصحه بعدم القتال وتسليم بغداد لصاحبها الشرعى •

وقد كان تعيين داود نازلة نزلت على سعيد باشا فأخذ يستنجد بقوات متعددة غير ان خواء الخزينة حال دون ما يريد اذ لم يبق فى بيت المال شيء من الدراهم لكثرة ما انفقه على ملذاته حتى انه لم يتمكن ان يدفع للجند رواتبهم• ثم اخذ بعض المماليك يهربون الى داود عندما اخذت الحالة تسوء يوما بعد

---

(١٤) لونكريك ص ٢٣٥ •
(١٥) الرافدان ص ٢٥٠ •
(١٦) امير اللواء •
(١٧) مختصر مطالع السعود ص ١٢٥ •

يوم وقد بدأت فعلا ثورة علنية في بغداد في محلة باب الشيخ فسهل ذلك الامر لداود فدخل بغداد واخذ الناس يتوافدون عليه مرحبين به •

اما سعيد باشا فقد تحصن مع بعض القوات داخل القلعة فما كان من قوات داود الا ان تبعته وقطع رأسه وهو بين حضن امه ببلطة وابقت القوات الجثة بين يدى امه وقد ساء قتل سعيد باشا (داود) اذ لم يكن يريد ان يقضى على ابن سيده وصهره • وبذلك قضى على عهد سعيد وبقيت امه تنوح على ايامها وعلى ولدها • ولكن ليس لها مساعد ولا معين فقد انفضّ من حولها النـــاس •

صهرت التجارب داود وعركته المحن ، فامتحن فيها الايام فقد تولى ولاية بغداد وهو في الخمسين من عمره وكان يعرفه اهل بغداد جيدا بالمزايا الحسنة والخلال الرفيعة والعلم والفضل • وعندما تسلم زمام الامر وجد الخزينة خواء فقد انفقها سعيد باشا وحتى ذلك الوقت لم يكن الجيش قد تسلم راتبه زد على ذلك ما كانت تعانيه بغداد من الفوضى والاضطراب فقد كانت القبائل ، كما نعهدها ، تهاجم بعضها بعضها ، واذا لم تقاتل فهى تهاجم المدن للاستيلاء على شيء من اموالها • هذه المشكلة من المشكلات التى كانت مستعصية على الحكومة فقد كانت تهدف الى جعلهم مواطنين صالحين للدولة • ولكنها كانت تستعمل القوة والضغط دون ان تفكر في طرق ناجحة في استيطانهم بل لم تفكر في بذل بعض مثل هذا المجهود •

ولا ادرى كيف تخضع القبائل للدولة وهى تطالبهم بالضرائب المتوالية دون ان تقدم لهم فائدة محسوسة لقاء اخذ هذا الاتاوات وكانت الولاية كلما اعوزها المال تهاجم القبائل ومتى انتصرت عليها اجبرتها على دفع الضرائب ولم يكن داود الذى جرب هذه التجربة في خلال بقائه في العراق بالحائد عن هذه الطريقة وهو الآن احوج الناس الى المال لذا تراه عندما تلكأت الدليم[١٨] عن دفع الضريبة ارسل اليها الكتخذا بعسكره وغنم منها مالا بعد ان أستحر القتل بين المعسكرين وكأنها الحرب بين دولتين متعاديتين • وبالرغم

(١٨) مختصر مطالع السعود ص ١٣٨ •

من ان العشيرة عاهدت الكتخدا على الطاعة لكنه أستوفى من المواشي والابل والخيل[١٩] ما اراد ولم يكتف الكتخدا بذلك بل عامل عدة قبائل هذه المعاملة مثل بنى زوبع وجميلة وال عيسى حتى ادوا الضريبة المطلوبة منهم فطرب داود لهذا النصر وارسل الى قائده سيفا مكافأة على عمله ٠

ولم تكن الجيوش تكتفي بالهجوم على القبائل المتأخرة عن دفع الضرائب انما كانت تهاجم القبائل الاخرى فقد هاجم الكتخدا فى طريقه قبائل كانت حول بغداد فى منطقة الخالص ونهب منها اربعين رأس غنم وخرب البساتين فى (الخالص) و (خراسان) وان ساغ لكتخدا ان يهاجم القبائل العراقية بحجة عدم المحافظة على الامن او انها لم تقدم الضريبة المطلوبة منها فما حجته فى مهاجمة القبائل التى جاءت تأخذ الميرة كما صنع مع قبائل ابن هذال ؟![٢٠]

ومن المؤسف انه لم يكتف بمهاجمة القبائل بل كان يهاجم المدن محتجا بأنها خرجت عن الطاعة فقد هاجم (عفك) فتحصن الناس بالقلعة ولكنهم فروا ليلا خوف المدافع حين علموا انها ستطلق عليهم نهارا ولما عرف الكتخدا بذلك دخل المدينة ونهبها واستولى على الاموال والذخائر التى كانت فيها[٢١] ٠

لا شك ان قصد داود باشا كان ارهاب الناس واظهار قوته لكي يوطد الامن ثم يملأ الخزانة الفارغة الخاوية على عروشها بسرعة لكي يوطد حكمه وهو فى اول ايام ولايته ٠

مطامع داود :

كان داود يشعر بفساد حالة الدولة وها هو ذا يشهد استقلال الولايات لذلك كانت الآمال العذاب تداعب ذهنه في ان يستقل هو فى بغداد ، كما

---

(١٩) مطالع السعود ص ٢٤٤ ٠
(٢٠) مختصر مطالع السعود ص ١٣٧ ٠
(٢١) المصدر السابق ٠

استقل محمدعلى باشا فى مصر فأعد العدة لهذا الاستقلال وكانت اولى هذه الدعائم هو الجيش ليكون درعه عند الملمات وساعة الشدائد ويجب ان يكون مدربا تدريبا عسكريا حديثا فعهد الى المسيو ديفو الفرنسي[٢٢] الذى كان من ضباط نابليون فى تدريبه بل ان ابن المقيم البريطانى الميجور تايلور كان بعهدته كتيبة من الخيالة وقد ارسل داود باشا الى الهند يطلب بعض المعدات لهذا الجيش ولـكنها رفضت طلبه ، ثم طلب المساعدة بمقياس اكبر لتجهيز الجيش الذى اعده فقد اراد ضابطا ومدرسين وصناعا وثلاث سفن مسلحة كبيرة وكميات كبيرة من الذخائر الحربية ...... ولا شك فى ان الهنـد كانت تعتقد ان هذه الاسلحة سـوف تستعمل فى اغراض العصيـان وهى حريصة على علاقتها بالدولة العثمانية ولكن نظام الجيش قد ثبت(اذ استدعى (داود) صناعا من اوربا واحدث مصانع الجوخ والبن والبواريد[٢٣] واجتهد فى ترقية المصانع الوطنية والف جيشا نظاميا عدده عشرة آلاف بين مدفعية ورجالة[٢٤] فأخذ النظام الحديث يشتد ويقوى ثم اخـذت الروح المعنوية للجيش ترتفع فقد انتظمت الامور واخذ الجند يتسلمون رواتبهم فى أوقاتهم المحدودة لها .

اصلاحات داود :

ومن كان يريد ان ينشيء دولة لابد من ان يفكر فى اصلاحها ويسبغ العدل عليها ويقرب قلوب الناس اليه لكى يلتفوا حوله فقد كان كما عرفنا عالما ذا فضل وادب فأخذ يتقرب الى الصوفية وارباب الطرق فدفع لزعيم الصوفية الشيخ خالد النقشبندى ثلاثين الف ليرة ذهبا عندما سمع انه مدين[٢٥] وقد كانت الطرق لها اهميتها وكيانها وسطوتها فأخذ المريدون يلهجون بالدعـاء والثناء على داود باشا .

---

(٢٢) الـكولمن ص ٢٩ ويسميه ثابت (دودة) .
(٢٣) البواريد جمع باوردة وهى البندقية .
(٢٤) الـكولمن ص ٢٩ .
(٢٥) تيل المراد ص ٢٨٢ ومساجد بغداد والـكولمن ص ٢٩ .

ثم اعتنى داود بعمارة بغداد واخذ يعمر المساجد والجوامع وامر بغرس الحدائق والبساتين ومن اشهر ما بناه الجامع المعروف بالمولى خانه وكان له مئذنتان ، وجامع الحيدرخانة وجامع باب المعظم المسمى بجامع الازبك ومسجد السيف والمسجد المحاذى للجسر من الجانب الغربى ولم يكتف بالبناء بل اخذ يجدد بعضها مثل جامع السادة فى الباب الشرقى وسوق المولى خانه وسوق الحيدرخانه والخان المتصل بباب الجسر المعروف بخان داود باشا[٢٦] ومخزن الاطعمة المعروف بالسيف ومن ذلك البستان الكائنة قرب الامام الاعظم ذات القصر الغريب الشكل ووقف بعض الاوقاف عليها[٢٧] .

وقد اعتنى داود باشا ببعض الاصلاحات العامة فاحتفر الانهار التى عفت ودرست فزادت فى مدة حكمه موارد البلاد .

العلـــم :

ومن ميزات داود انه تفرغ وقتا من اوقاته للعلم وخاصة فقد نشأ علمية وكان يحاول ان يوطد حكمه ويستقل بولايته كما استقل محمد على باشا فى مصر ، وللعلم والعلماء فى الحكومة اثر كبير ولاننسى ان داود تثقف على ايدى العلماء الكبار ومنهم صبغة الله الحيدرى فقد اجازه فى الاصوليين وتفسير البيضاوى[٢٨] كما اجازه زين‌الدين جمل الليل[٢٩]وقد قرأ القرآن على شيخ القراء محمد أمين الموصلى وقرأ النحو والصرف على الملا حسين بن محمدعلى ودرس التصوف على الحافظ احمد مدرس مدرسة السليمانية ودرس الرياضيات على لطف الله افندى[٣٠] .

ولم يكتف داود بالدراسة بل انه قد اجاز بعض التلاميذ مثل اسعد افندى الحيدرى[٣١]ومحمد البرزنجى الذى قرأ عليه جميع العلوم(وتخرج

(٢٦ و٢٧) الكولمن ص ٢٩ ومساجد بغداد الصفحات ٢٨ و٣٢ و١٢٥ و١٢٩ .

(٢٨) مختصر مطالع السعود ص ١٧٣ .

(٢٩) المصدر السابق تجد ترجمته فى ص ١٧٤ .

(٣٠) نفس المصدر ص ١٧٢ .

(٣١) مساجد بغداد ٢٦ ومجموعة تراجم العلماء ص ١٤ .

حتى صار هذا السيد من ارباب الكمالات المشار اليهم فى العراق[٣٢] ومحمد النائب وكان امين داود وكاتم سره وقد ارسله لمفاوضة العجم[٣٣] وقد كثرت المدارس فى عهده حتى انها بلغت ثمانية وعشرين معهدا كبيرا للتدريس واخذ يستجلب المدرسين من انحاء البلاد وجعل فى كل معهد مدرسا خاصا بذلك المعهد واسكنهم وجعل لهم جرايات ليعيشوا عليها من بيت المال العراقى[٣٤] .

وقد اعتنى داود كثيرا بالمساجد ولا سيما الجامع الذى انشأه وعدد فيه المدرسين والائمة والخدم وليؤثر من هذا الطريق فى الناس وبذلك يكون المدرسون اداة لدعاية له بين الطلاب فينشرها الطلاب بين اهلهم وذويهم .

أهم المعاهد التى عنى بها داود :

مدرسة داود باشا ومدرسة علي باشا والمدرسة العادلية ومدرسة الاعظمية والمدرسة الاحمدية والمدرسة السليمانية حتى بلغت عدد هذه المدارس ثماني وعشرين مدرسة ثم تعهد اثنى عشر معهد اخر بين رباط ومرقد ولى[٣٥] وبالاضافة الى هذه المساجد والجوامع التى كانت فى الوقت عينه مدارس فقد عمر كثيرا من المساجد الاخرى كتعميره مسجد باب السيف الكائن فى الكرخ وجدد مسجد رأس الجسر ووسعه بعد ان كان ضيقا واقام فيه المحراب الذى كان منحرفا وعندما اشرف جامع الازبك على الانهدام تداركه وجدده ثم وسع فناءه وشاد فيه مئذنة صغيرة لا زالت قائمة الى هذا اليوم وهي مطلة على شارع الرشيد وقد نبغ فى عهده مدرسون كالسيد عبدالله الآلوسى ، وعبدالرحمن الروزبهانى وتلميذ داود باشا محمد البرزنجى ومحمود الآلوسى ومحمد سعيد السويدى وعثمان بن سند[٣٦] .

---

(٣٢) مختصر مطالع السعود ١٧٥ .

(٣٣) مختصر مطالع السعود ص ١٤٦ .

(٣٤) جريدة العرب ٨–١١–١٩١٧ .

(٣٥) مساجد بغداد ص ٣٦ .

(٣٦) نجد تراجم لهؤلاء فى مطالع السعود وفى تاريخ بعض المساجد والمسلك الاذفر وغرائب الاغتراب وعنوان المجد .

استقلال داود :

ولما رأى داود تردي حالة الدولة وما عليها من ضعف وهزال فكر في الاستقلال وقد ساعده على تركيز هذه الفكرة طول مدة ولايته التي استمرت خمسة عشرة سنة نعم العراق فيه بشيء من الهدوء والدعه بالنسبة للولاة الماضـين •

ولم تكن الدولة العثمانية غافلة عن تصرفات داود باشا ولـكنها لـم تتمكن من صنع شيء فقد شط المزار وهي في حرب مع روسيا (وقد سئل داود باشا ان يعاون دولته في محاربة روسيا فأبي واخذ يبدي معاذيره ...)[٣٧] ولابد من ان داود باشا الذي يعد العدة للاستقلال خشي على جيشه ان يذهب دون رجعة او انه خشي ان يبقى وحده دون مساند يسانده فيما اذا ذهب الجيش الذي جهزه وصرف عليه الـكثير من وقته وجهده فارتاب السلطان محمود واخذ ينظر اليه بعين كلها حذر وسخط وتمنى ان يستبدل به والياً آخر ولـكنه خشي الملابسات وعدم نجاح هذه الفكرة •

تحفز السلطان :

ومما زاد في قوة السلطان المعنوية قضاؤه على الينجرية[٣٨] قضاءا تاما وحصرهم في الاستانة وبذلك استراح من عدو قوى كان يخشى ثورتـه وعناده • فأصدر اوامره الى جميع الولاة بالقضاء عليهم من كل ولاية • لكن دواد باشا الاريب تمكن بدهائه من انقاذهم من الموت وضمهم الى الجيش الجديد والغى تشكيلاتهم غير ان السلطان محمودا لم يرق له عمل داود واخذ يفكر في كل الطرق للقضاء عليه واخيرا صمم ان يقضى عليه بحد السيف •

داود وايران :

كان ملوك فارس يطمعون دائما بالاستيلاء على العراق اذ فيه الاماكن

---

(٣٧) الـكولمن ص ٢٩ و٣٠ •
(٣٨) شرح الالفاظ الرسمية الواردة هنا تجدها في (الشعر العراقي في القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٣٨ •

المقدسة التى يزورها الايرانيون كل سنة لذلك فقد كانت الحرب سجالا بين الدولة التركية والدولة الايرانية •

ولا يغربن عن الباس أمر تلك الحملات التى قام بهــا الوهابيون على الاماكن المقدسة وانتهاب ما فيها من ذخائر نفيسة وهدم القبور والقبب التى كانت مقامه فوق اضرحة الائمة فى كربلاء كالامام الحسين والامام على ابن ابى طالب(٣٩) وقد تعددت هذه الحملات مما اقلق بال الدولتين التركية التى كانت تخشى ان تقوم حكومة عربية تزاحمها فى الهيمنة على الحجاز والدولة الايرانية التى كانت تتألم لما حدث للاماكن المقدسة وكانت كرمنشاه مجمع الناقمين على الحــكم فى العراق وموئل اللاجئين من العراق • فوجد الفرس فى التجاء العراقيين سببا واحتجوا به وبسوء المعاملة التى كان يلاقيها الزوار الايرانيون الداخلون فى العراق لزيارة الاماكن المقدسة من حكومة بغداد التركية فى اعلان الحرب ضد الاتراك • فتقدم الجيش الايرانى حتى وصل الخالص وكان داود باشا قد استعد للامر واستأذن الدولة فى حرب العجم فلما ابطا على داود باشا الجواب جمع عسكره وحفظ بها سور بغداد واخذ الجيش الايرانى يتقدم نحو بغداد حتى وصل على بعد يوم واحد منها فأخذ الناس يهربون الى لحله وقد كان داود يجمع فى خزائنه الاموال الــكثيرة وحشد مخازنه بالغلال خشية ان يستولى عليها الجيش الايرانى وفى خلال ذلك تفشت الــكوليرا بالجيش الايرانى واصيب أمير الجيش فأضطر الى عقد صلح واخلى الجيش بعض الارض التركية عائد الى بلاده ولــكن بقيت بعض المناطق تحت سيطرة ايران فوردت فرامين عدة ولاة لمساعدة والى بغــداد وجعله رئيسا تلك العساكر وقد كان يساعد الجيش رئيس قبائل شمر جربا اذ اخذ فى اشغال الجيش الايرانى وكان ينتصر عليهم(٤٠) بين حين وآخر •

ثم اخذ الجيش التركى يتحرك نحو خراسان ولما سمع الفرس بذلك جهزوا جيشا كبيرا فأجبروا قائد الجيش التركى على الانسحاب غير ان القبائل

---

(٣٩) يراجع غرائب الاثر ٣٠٣ ومطالع السعود لابن سند •
(٤٠) مختصر مطالع السعود ١٤٢ ـ ١٤٨ ولونكريك •

اخذت تضايق الفرس واحرقت الحاصلات التى فى طريقهم ثم تفشت الكوليرا ثانية فى الجيش الايرانى فرجعوا دون ان يحققوا الحلم فى الاستيلاء على العراق •

آخر عهد داود :

كانت علاقة داود باشا بالسلطان محمود ودية حتى انه اهداه سنة ١٢٣٦هـ خمسة عشر مدفعا من الطراز الجديد بجميع الجديد آلاتها وادواتها وارسلها صحبة احد رجاله[٤١] لكن نزعة داود فى الاستقلال التى راودت ذهنه وعدم الالتفات الى اوامر السلطان محمود[٤٢] وعدم امداد الدولة بالمال[٤٣] اثناء الحرب الروسية والروح المعنوية العالية التى حصلت للسلطان بعد قضائه على الينجرية جعله يفكر تفكيرا جديدا فى القضاء على نفوذ داود الذى يستفحل يوما بعد يوم فأرسل السلطان صادق افندى يحمل فرمانا بعزل داود باشا من الولاية •

ولما وصل صادق افندى بغداد خرجت قوة لاستقباله لكنه لم يعرج عليها وذهب الى دار الضيافة مباشرة • ومما زاد فى حنق صادق افندى عدم عناية داود به العناية الكافية • مما ادى الى الجدل والنزاع الكلامى فى شأن عزله وتسليمه الولاية حالا لمن يريده صادق ثم ارسل صادق سرا الى احد مماليك دود باشا وفاوضه على تقليد الولاية ومنحه رتبة الوزارة ولكن المملوك اسرع وهو يرتجف خوفا وفزعا واخبر داود باشا بجلية الخبر • اشتدت الهواجس بداود اذ ان صادق افندى لابد ان يفاوض شخصا آخر فى هذا الامر وقد يوافق ذلك الشخص ويشق البلد شقين فلابد من انقاذ الموقف الحرج الذى وقع فيه فأشارت عليه جماعته بقتل صادق افندى وقالت

---

(٤١) مختصر مطالع السعود ص ١٤٠ •

(٤٢) نيل المراد فى أحوال العراق وبغداد ٢٨٠ وغاية المرام ص ٢٠٤ •

(٤٣) الكولمن ص ٣٠ •

له : (ما دام هذا الرجل فى قيد الحياة فليس لنا فى الحيـــاة نصيب)[٤٤] فأرسل اليه فى الليل جماعة احاطت البيت ودخل عليه مقدمهم وخنقه ولما سمع داود بموته ذهب وتأكد من ذلك بنفسه ثم كتب الى الدولة بأنه مات بالهيضة ، ولـكن مثل هذا الخبر وهذه الطريقة تشيع بين الناس فعلمت بها الاستانة ولم يكن يجهل داود بأن عمله سوف ينكشف لذلك أراد ارسال هدية للسلطان متكونة من عدد من الخيل عساه يعفو عن زلته التى قدمها نحو الدولة بقتل موفدها[٤٥] ولـكن الدولة لم تحتمل والفرصة سانحه فارسلت اليه والى حلب على رضا باشا على رأس قوة كبيرة من الجيش ٠

ضحكة الاقدار :

كانت جيوش على رضا باشا تتقدم نحو بغداد ومعه امر بعزل داود من ولاية بغداد وتوليته عليها وكان داود باشا يسخر من القادمين فقد اعد عدّته لهذا اليوم وكان واثقا من جيشه الذى افرغ عليه جهده وماله ودرب التدريب الـكامل والمجهز بالمعدات الـكافية ولـكن الاقدار كانت تسخر من داود ومن تفكيره ٠

الطاعـــون :

فقد اخذ الطاعون يفتك بالناس فتكا ذريعا لا هوادة فيه ولا رحمـة واخذت اصابات الطاعون تزداد يوما بعد يوم كلما ازداد على رضا باشا قربا من بغداد حتى لم يبق من يـدفن الجثث التى كانت طريحة فى الطرقـات والازقة[٤٦] بعد ان عجزت المساجد عن استيعاب هذا العدد الـكبير فأخذت ترمى فى نهر دجلة تخلصا من الجيف والرائحة التى كانت تملأ بغداد حتى قدر احد الـكتاب[٤٧] عدد الموتى فى اليوم الواحد بعشرة آلاف اذ لم يبق من عساكر داود وحاشيته غير ٤٦ رجلا[٤٨] ٠

---

(٤٤) الـكولمن ٣١-٣٢-٣٣ ٠
(٤٥) الـكولمن ص ٣٥ ٠
(٤٦) نيل المراد ص ٢٨٢ ٠
(٤٧) الشواف فى فى حديقة الورود ورقة ١٣ ج١ ٠
(٤٨) الـكولمن ص ٣٧ ٠

الفيضـــان :

ولم تكن الطبيعة هذه المرة رحيمة بالعراق فقد ارعبت بغداد بالفيضان العالى واحاطت المدينة بالمياه وحرمت على الناس الهروب ثم اخذت السدود تنهاوى أمام ضربات المياه المتوالية فدخلت البلدة وأخذت البيوت تتساقط على من بقى من الناس حتى قـدرت البيوت المتهدمة بسـبعة آلاف بيت وهكذا اصبحت بغداد مقبرة للاحياء الذين كانوا يأملون الفرار من الطاعون ثـم اخذ البدو يدخلونها . والصعاليك والسراق يسرقون وينهبون ما يجدونه حتى كان بعضهم يعاجله الموت اثناء السرقة[٤٩] .

داود باشا :

اما داود باشا (فقد اضاع قواه واصبح عاجزا عن القيام والقعود فقد استولى عليه الطاعون وهاله ان يرى احلامه الحلوة ، وامانيه العذبة تذوى بين يوم وليلة واخذ يسمع بتقدم على رضا باشا حتى لم يبق معه من يساعده الا امرأة عجوز ويحصل طعامه من سماك كان يشفق عليه فقد اذن لجميع خدمه ان يغادروا بيته وبقى على رضا خارج بغداد . وطلب من داود الفرار الى المنتفك[٥٠] لكنه ابى ، ولماذا يفر وقد ضاع اجمل آماله واحلامه فقـد ركب اليأس قلبه والمرض جسمه . ومما زاد الامر يأسا احتراق السراى وقضاء النيران على كنوز داود واسلحته ومفروشاته .

محاولة فاشلة :

وقد عاد بعض المماليك الفارين من الطاعون عندما خفت وطأته وانخفض الماء ومعهم بعض اعوان داود باشا لـكى ينجدوا داود باشا ويمنعوا على رضا باشا من دخول بغداد . ثم تحصنوا بالمدينة وبعثوا الى الدولة عارضين عليها عشرة آلاف جنيه نظير بقاء داود فى الحـكم بل اوصلوا المبلغ الى عشـرين الف تدفع مرة واحدة وزادوا الجزية التى تدفع من بغداد الى الدولة من الف

---

(٤٩) الرافدان ص ٢٥٣ .
(٥٠) الـكولمن ص ٣٨ ولونكريك .

كيس عشرة آلاف كيس وتحملوا جميع مصاريف الحملة(٥١) .

ولم يكن على رضا يريد ان يزيد فى خراب المدينة التى لم يبق فيها الا قليل من العمران لانها ستكون عاصمة ملكه لذلك بقى خارج الاسوار. فأخذ البغداديون يدافعون دفاع الابطال عن بغداد حتى انهم جندوا (٥٠٠) جندى لقتال هذا الجيش اللجب الذى جاء به على رضا وكانت المدافع تحصدهم حصدا ثم ارسل السلطان رسالة الى على رضا يأمر فيها بأحسان التدبير فكانت الرسالة سببا فى فتح باب المفاوضة ودخول بغداد سلما(٥٢) .

اما داود فدخل الضباط عليه بتواضع واحترام واخذوه معهم الى خارج المدينة حيث نصبت خيمة له فنهض على باشا من مكانه عندما كان الركب بعيدا ثم قابل داود وهو اسير حقير بالاحترام الذى لم يقابل بمثله مملوك من قبل ولو كان فى اوج ابهته وعظمته ثم ارسل الى الاستانة ومعه توصية من على رضا باشا كانت سببا فى العفو عنه . ولما قابله السلطان ولاه البوسنه وفى زمن السلطان عبدالمجيد ولاه الحرم النبوى وتوفى فى المدينة(٥٣) .

المماليك الباقون :

دعا على رضا المماليك دعوة عامة فلبوا نداءه ولما اجتمعوا عنده دبر مكيدة لهم اذ خرج الجلادون عليهم واخضبوا بدمائهم بأقدامهم ولم يبق منهم باقية(٥٤) الا من فر وبذلك انقرضت دولة المماليك التى حكمت حوالى القرن فى العراق وقضى عليهم بنفس الطريقة التى قضى محمدعلى باشا على المماليك فى مصر وأصبحت ولاية العراق تابعة مباشرة الى الاستانة فانتصرت الاستانة على اعدائها واقواهم بأسا واشدهم مراسا .

---

(٥١) الكولمن ص ٤٤ وما بعدها .
(٥٢) الكولمن ٤٧ ـ ٤٩ .
(٥٣) مجموعة تراجم العلماء .
(٥٤) الكولمن ص ٥٠ .

المراجـــع

١ ـ المخطوطات

١ ـ مطالع السعود — عثمان ابن سند

٢ ـ تاريخ المماليك (الـكولمن) — سليمان فائق تعريب نجيب الارمنازى

٣ ـ مجموعة تراجم العلماء — محمود شكرى الآلوسى

٤ ـ عنوان المجد — ابراهيم فصيح الحيدرى

٥ ـ غاية المرام — ياسين العمرى

٦ ـ حديقة الورود — عبدالفتاح الشواف

٧ ـ نيل المراد — عباس السيد جواد البغدادى

٨ ـ العراق فى القرن التاسع عشر — يوسف عزالدين

٢ ـ المطبوعات

٩ ـ أربعة قرون من تاريخ العراق — لونكرك لندن ١٩٢٥

١٠ـ بغداد كولهمن حكومتنك تشكيلنهدائر رسالة « ثابت » ١٢٩٢

١١ـ تاريخ مساجد بغداد — محمود شكرى الآلوسى وتهذيب محمد بهجة الاثرى بغداد ١٣٤٦هـ

١٢ـ تذكرة الشعراء — عبدالقادر الخطيبى الشهرابانى بغداد ١٩٣٦

١٣ـ خلاصة تاريخ العراق — انستاس الـكرملى البصرة ١٩١٩

١٤ـ دائرة المعارف الاسلامية (باللغة الانكليزية) مقال للدكتور عبدالعزيز الدورى عن « بغداد »

١٥ـ دائرة المعارف الاسلامية (باللغة التركية) — استانبول ١٩٥٠

١٦ـ الرافدان — ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس بغداد

١٧ـ الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر — يوسف عزالدين بغداد ١٩٥٨

١٨ـ الشعر العراقى الحديث — يوسف عزالدين بغداد ١٩٦٠

١٩ـ غرائب الاثر — ياسين العمرى نشره الدكتور محمد صديق الجليلى الموصل ١٩٤٠

٢٠ـ غرائب الاغتراب — ابو الثناء الآلوسى بغداد ١٣٢٧هـ

٢١ـ لغة العرب (مجلة) — انستاس الـكرملى

٢٢ـ مختصر مطالع السعود — حسن الحلوانى مصر ١٣٧١

٢٣ـ المسك الاذفر — محمود شكرى الآلوسى بغداد ١٩٣٠

حدود النقد الادبي (١)

ت.س اليوت
ترجمة عبدالوهاب الوكيل

ينص مضمون هذه المقالة على وجود حدود للنقد الادبي اذا ما اجتزناها في ناحية انتفت صفة الادب عنه ، واذا ما تعديناها في ناحية أخرى لم يعد نقـــدا .

كنت قد نشرت في عام ١٩٢٣ مقـالا بعنوان [وظيفة النقد] ولابد وأني كنت قد أستحسنت هذه المقـالة لاني ضممتها بعد عشر سنوات الى كتابي [مقالات مختارة] حيث يمكن الرجوع اليها الان .

وعندما راجعتهـا مؤخرا أصبت بشيء من الحيرة وصرت أعجب من سبب الضجة التي افتعلتها فيها رغم أني لم أجد فيها ما يتناقض كليا وآرائي في الوقت الحاضر ، ذلك لان الظروف التي أدت الى ذلك الانفجار قد انمحت من ذاكرتي باستثناء المناداة مع السيد [مدلتن مري] حول [الداعي الخفي] وهو خلاف نستطيع أن نتلمس فيه بعض آثار النزاع القديم بين الســلطة والاحكام الفردية ، فلقد أدليت فيها بعدد من التصريحات بلهجة التأكيد وبحرارة زائدة ولابد وأني بدوت وكأني أعنى ناقدا معينا ، أو أكثر ، من النقاد المشهورين الذين كانوا يكبرونني منزلة والذين لم تتوفر في كتاباتهم متطلبات النقد الادبي التي كنت أؤمن بضرورتها ولـكنني عاجز عن تذكر كتاب أو مقالة واحدة ، أو حتى اسم ناقد معين كمثل على ذلك النوع من النقد الانطباعي الذي أثار استيائي قبل ثلاثة وثلاثين عاما .

---

(١) من مقالة في الشعر والشعراء ، نشرت عام ١٩٥٧ .

ان السبب الوحيد الذى حدا بى الى ذكر هذه المقالة هو التنبيه على مدى ارتباط ما ذكرت حول هذا الموضوع فى عام ١٩٢٣ بالزمن الذى كتبت فيه فلقد تم نشر كتاب [رتجارتز] (Richards) [قواعد النقد الادبى] عام ١٩٢٥ وحصل الشيء الكثير فى ميدان النقد الادبى منذ ظهور هذا الكتاب البعيد الاثر حتى الان ، بينما كانت مقالتى قد كتبت قبل صدوره بعامين • لقد تطور النقد خلال هذه المدة وتفرع فى نواحى عديدة وأخذ الناس يرددون عبارة [النقد الحديث] دون ادراك لما تتضمنه من معان متفاوتة ، بيد ان تداولها كما أعتقد يؤكد الاعتراف بأن نقاد العصر الحاضر البارزين يختلفون كلهم فى ناحية مهمة ، عن نقاد الجيل الغابر رغم تباينهم العظيم فيما بينهم • ولقد قلت قبل أعوام ان الضرورة تحتم على كل جيل من الاجيال وضع قواعد خاصة به فى النقد الادبى وذلك لانه كما ذكرت آنذاك [ان كل جيل يأتى بمقاييسه الخاصة فى التثمين الادبى الى ميدان التأمل الفنى ويفرض شروطه على الفن ويستخدمه فى مجالاته المفضلة •] اننى واثق بأنى عندما ذكرت هذه الفكرة كنت أعنى بها أشياء أكثر من مجرد التغيرات التى تطرأ على الذوق والازياء فكنت أقصد بها على الاقل الحقيقة القائلة بأن كل جيل عندما يتأمل غرر الانتاج الفنى للاجيال السابقة من زاوية مغايرة تتأثر نظرته فى نواحى عديدة أكثر من النواحى التى أثرت فى الجيل السابق ، بيد انى أشك فى أن ماكنت أعنيه هو أن أى تأليف رائع فى النقد الادبى يستطيع تغيير وتوسيع مفهوم اصطلاح [النقد الادبى] نفسه •

لقد سبق أن نبهت الاذهان قبل بضع سنوات الى التبدل المستمر الذى أخذ يطرأ على مفهوم كلمة « التربية » منذ القرن السادس عشر حتى العصر الحاضر ، وهو تغيير حصل فعلا لان التربية لم تتضمن زيادة فى الموضوعات فحسب ، بل لانها وضعت تحت تصرف ، [أو فرضت] على أكبر عدد من السكان فاذا ما تتبعنا تطور اصطلاح [النقد الادبى] بنفس الصورة وجدنا أن شيئا مماثلا قد حدث ، فلو قارنا مثلا بين أحد الكتب المهمة فى النقد

الادبى ككتاب « جونسون » [حياة الشعراء] بالمؤلف المهم الذى تلاه فى النقد الادبى [السير الادبية] لـ [كولرج] لوجدنا أن الاختلاف بين المؤلفين ليس قائما على كون [جونسون] يمثل عرفا ادبيا معينا جاء هو فى نهايته ، بينما يدافع [كولرج] عن مزايا اسلوب جديد وينتقد مساوءه فحسب ، بل ان الاختلاف الذى يتفق وما ذكرت الآن يعزى الى ما يثيره [كولرج] فى بحثه عن الشعر فينا من اهتمام بعيد المدى ومتنوع الالوان • فلقد اسس العلاقة بين الفلسفة وفلسفة الفنون الجميلة(Aesthetics) من جهة ، وعلم النفس من جهة اخرى ، وما ان ادخل هذه القواعد الى حقل النقد الادبى حتى تعذر على النقاد الذين جاءوا بعده تجاهلها دون ان يتعرضوا لمخاطر عظيمة ولكى نتمكن من تثمين « جونسون » ينبغى علينا ان نبذل جهدا عظيما فى الخيال التاريخى ، بينما يجد الناقد المعاصر نقاط شبه كثيرة بينه وبين [كولرج] ، ويمكننا الجزم بان النقد الحديث كان فى الحقيقة قد انحدر مباشرة من كولرج ، ولو ان كولرج كان حيا اليوم لكان ، كما اعتقد ، بذل نفس العناية بالعلوم الاجتماعية وبدراسة اللغة ومشتقاتها كتلك التى بذلها فى دراسة العلوم التى كانت فى متناوله •

ان البحث فى الادب فى ضوء دراسة أو أكثر من هذه الدراسات يكون عاملا واحدا فقط من العاملين اللذين ساهما فى تغيير النقد الادبى فى عصرنا هذا ، اما العامل الآخر فلم يتم التعرف عليه بصورة كاملة بعد فالعناية المتزايدة التى تبذل فى دراسة الادب الانكليزى والامريكى فى جامعاتنا ومدارسنا قد ادت الى وضع أصبح فيه كثير من النقاد مدرسين وكثير من المدرسين نقادا • ولست بآسف على هذا الوضع مطلقا اذ أن ادباء كانوا قد شقوا طريقهم الى جامعاتنا ومن بحاث تم اختبار نشاطهم فى
ادباء كانوا قد شقوا طريقهم الى جامعاتنا ومن بحاث تم امتبار نشاطهم فى
النقد لاول مرة فى غرف الدرس • واليوم وبعد ان اصبحت الصحافة الادبية الجدية وسيلة معاشية غير ناجحة وحافلة بالمخاطر لجميع من يتعاطونها ، الا النزر القليل منهم ، فان هذه الظاهرة هى السائدة غير انها تعنى ان للناقد اليوم صلة بالعالم تختلف نوعا ما عن صلة النقاد فى الازمنة الغابرة وانه

يكتب لقراء يختلفون عن اسلافهم • ان عندى ثمة انطباع يشير الى ان النقد الجدى يكتب الآن لطبقة ضيقة ولـكنها ليست اضيق بالضرورة من طبقة القراء فى القرن التاسع عشر •

ولقد ادهشتنى قبل وقت ليس بالبعيد ملاحظة قدمها السيد [الدس هاكسلى] فى مقدمته للترجمة الانكليزية فى كتاب [الحـكمة العظيمة] وهو كتاب قام بتأليفه المحلل النفسانى الـكبير الدكتور [هيوبرت بنوار] حول نفسية [زن] البوذية ، فلقد جاءت ملاحظة السيد هكسلى موافقة للانطباع الذى تكون عندى على اثر قراءتى لذلك الـكتاب العظيم اذ يقارن هكسلى بين التحليل النفسى الغربى وبين الطريقة الشرقية فى ضبط النفس كما فى مبدأ [تاو] و [زن] فيقول :ـ

[ان الهدف فى التحليل النفسـى الغربى هو مسـاعدة الشخص المضطرب على تكييف نفسه للحياة فى مجتمع مؤلف من اشخاص اقل اضطرابا ـ اشخاص يبدو عليهم حسن تكييف بعضهم للعيش مع البعض الآخر فى ظل المؤسسات المحلية ، ولـكن تكييفهم للنظام الاساسى للاشياء ليس موضع تحر أو استقصاء •• بيد أن هنـاك نوعا آخر من السـلوك الاعتيادى وهو الاداء التام للوظائف •• فحتى الرجل الذى يعيش فى وئام تام فى مجتمع مضطرب يستطيع ان يهىء نفسه ان شاء للانسجام مع طبيعة الاشياء] •

ولا شك فى ان انطباق هذا القول على الموضوع الحالى غير واضح لاول وهلة ، ولـكن لما كان التحليل النفسى الغربى هو من وجهة نظر [زن] البوذية مرتبك وغير واضح فيما يتعلق بالغرض من الشفاء ، وان نظرته تحتاج الى توضيح بشكل عكسى ، لذا فانى اتسائل عما اذا كانت نقطة الضعف التى يشكو النقد الحديث منها هى عدم التأكد من الغرض الذى وجد النقد من اجله والفائدة التى يؤديها والجهة التى تعود عليهـا الفائدة وربما كان غنى النقد نفسه وتنوع اشكاله هو سبب غموض هدفه العام وقد يكون لـكل نقد هدف معين يهدف اليه أو قد يعنى بمهمه لا تحتاج

الى تدبير ومع ذلك تكون غاية النقد نفسه مجهولة فاذا كان الامر كذلك فهو ليس بالشيء الغريب ، وذلك لانه من المألوف اليوم ان نجد العلوم وحتى الدراسات الانسانية قد بلغت درجة من النمو والتطور تضاعفت فيها المعلومات المتعلقة بكل فرع من فروع الاختصاص حتى تعذر على طالب البحث الالمام باى شيء آخر • وقد اصبح البحث عن منهج يجمع بين الدراسة الاختصاصية والثقافة العامة من المشاكل التى كثر النقاش حولها في جامعاتنا •

اننا بطبيعة الحال غير قادرين على الرجوع الى عالم ارسطو أو القديس [توماس اكوانيس] كما اننا لا نستطيع الرجوع الى الحالة التى كان عليها النقد الادبى قبل عهد [كولرج] ولكننا ربما تمكنا من القيام بعمل يوفر علينا شدة الانغمار فى خضم الفعاليات النقدية وذلك عن طريق توجيه هذا السؤال لانفسنا باستمرار الا وهو :ـ « متى تنتفي صفة الادب من النقد فيصبح شيئا آخر •• ؟ »

ان شيئا من الحيرة يتملكني احيانا وذلك عندما يصفنى البعض بأب النقد الحديث لان سنى المتقدمة لا تسمح لى بان اكون ناقدا حديثا ، وهكذا وجدت فى كتاب قرأته مؤخرا لكاتب لابد ان يكون ناقدا حديثا ، العبارة التالية ، [وانا لا اعنى النقاد الامريكان فقط بل اقصد حركة النقد باجمعها ، تلك الحركة التى انبعثت من ت•س• اليوت] ولست افهم لماذا يفصلنى الكاتب تماما عن النقاد الامريكان فى الوقت الذى يتعذر عليّ ان اجد اية حركة فى النقد يمكننى ان اكون مصدرا لها ، ولو انى ارجو ان اكون قد ساهمت عندما كنت محررا صحفيا فى تشجيع النقد الحديث أو جزءاً منه وفى تهيئة الفرصة لممارسته فى مجلة [الكرايتيون] ولكنى ارى ان الواجب يحدونى الى تبرير هذا التواضع فاشير الى ما يمكن اعتباره مساهمة منى فى النقد الادبى ورسم حدوده •

إن احسن ما قدمته فى حقل النقد الادبى ـ باستثناء بعض العبارات ذات الصيت السيىء التى كان لها نجاحا محيرا فى العالم حقا ـ ينحصر فى مقالات تدور حول شعراء وكتاب مسرحيات شعرية كان لهم الاثر الكبير

في . وهذه عبارة عن نتاج عرضي لفعاليات خاصة اجريتها في ـ مختبري ـ الشعري
أو امتداد للتفكير الذى بذلته فى نظم القصائد الشعرية العائدة لى • والآن
عندما اتأملها اجد ان خير مؤلفاتى كانت عن الشعراء الذين اثر شعرهم فى
انتاجي الشعرى والذين الفت اشعارهم تماما قبل ان افكر فى الكتابة عنهم
او اجد الفرصة المناسبة لذلك بوقت طويل •

ان اساليب النقد عندى هى كأساليب [ازرا باوند] من ناحية معينة
وحتى انه ليس بالامكان تبين محاسنها وعيوبها الا عن طريق تحديد مقدار
ارتباطها بالشعر الذى كتبته • فنقد الشاعر « باوند » يحتوى على دافع
تعليمي اكبر والقارىء الذى كان يقصد اليه بشعره هو كما اظن الشاعر
الشاب الذى لما يتكون له اسلوب ثابت ، بيد ان حبه لبعض الشعراء هو
الذى اثر فيه وكذلك ادى امتداد تفكيره في انتاجه الى ان يوحى اليه بوضع
كتاب في سن مبكرة يعد من خير ما ألفه الا وهو « روح الرومانس » ان
لهذا النوع من النقد الشعرى للشاعر والذى سميته [نقد المبتدئين] عيبا
واحدا • فجميع ما لا يمت الى عمل الشاعر بصلة أو كان على النقيض منه
فهو خارج طاقته الفنية ، وعيب آخر من عيوب [نقد المبتدئين] هذا هو ان
احكام الناقد قد لا تكون صائبة خارج حدود فنه • فقد بقى تثمينى للشعراء
ثابتا تقريبا طول طياتى كما بقيت ارائى حول جماعة من الشعراء المعاصرين
كما كانت دون تغير وعليه فهو ليس بالسبب الوحيد الذى حدا بى الى
الكلام عن النقد الشعرى فى بحثى هذا عن النقد ، فالشعر فى الحقيقة هو
الموضوع الذى كان يبحثه اغلب النقاد فى الماضى عندما كانوا يصدرون
الاحكام العامة فى الادب • ان نقد الادب النثرى هو حديث النشأة نسبيا
وليست لى المؤهلات الكافية التى تمكننى من بحثه ولكن يبدو لى انه
يحتاج الى مجموعة من الاوزان والمقاييس التى تختلف عما يحتاجه الشعر
وربما استمد منه ناقد النقد [وهو من لم يكن شاعرا ولا روائيا] مادة
لموضوع طريف يبحث فيه الفروق الفردية بين الاساليب التى ينبغى على
الناقد اتباعها فى بحثه عن الموضوعات الادبية وبين انواع الوسائل التى
يحتاج اليها ، بيد ان الشعر هو اسهل اداة للنقد يمكن ان نذكرها عند

الـكلام عن النقد ، وما ذلك الا لسهولة خضوع صفاته الظاهرية للتعميم فقد يبدو الاسلوب فى الشعر هو الـكل وهو شيء بعيد جدا عن الحقيقة ، ولـكن الاعتقاد الخاطيء الذى يقول باننا فى الشعر نكون فى تماس اكبر مع التجربة الفنية الخالصة يجعل الشعر عند البحث عن النقد الادبى نفسه من أكثر الالوان الادبية فائدة وسهولة فى التذكر •

ان الـكثير من النقد المعاصر الذى وضع بعد تحول النقد الى دراسة علمية والدراسة العلمية الى نقـد يمكن وصفه بانه [نقد التفسير] وهو الرجوع الى مصادر القصيدة ولـكى اوضح ما اقصد بذلك سوف اذكر كتابين كان لهما فى هذا الخصوص اثر سيء ، ولست اعنى انهمـا كتابان رديئان بل العكس ، فهما كتابان ينبغى للجميع التعرف عليهما فالاول هو كتاب [كون لفنكستون لوس] وعنوانه [الطريق الى كسنادو] وهو كتاب انصح جميع طلاب الشعر بقراءته ، والـكتاب الآخر هو [فنكنس ويك] وهو كتاب احبـذ قراءة بعض اجزائه على الاقل • فقد كان [لفنكستون لوس] بحاثا ممتازا ومدرسا ناجحا وانسانا محبوبا ورجلا يدين له بعض الناس ـ وانا منهم ـ بالـكثير ، اما جيمس جويس فقد كان رجلا عبقريا وصديقا شخصيا لى ولـكن ذكرى لـ [فنكنس ديك] هنا لم يكن فى معرض المدح ولا الذم بهـذا الـكتاب الذى هو فى الحقيقة فى مصـاف الـكتب الخالدة ، بيد ان الصفة الوحيدة المشتركة التى نجدها فى هذين الـكتابين هى اننا نستطيع ان نقول عن كل واحد منهما :ـ كتاب واحد كهذا يفى بالغرض المطلوب •

وسوف اقول لاولئك الافراد الذين لم يقرأوا [الطريق الى كنسادو] موضحا انه قطعة مدهشة من قوة الملاحظة والاكتشاف فلقد كشف [لوس] عن جميع الـكتب التى قرأها [كولرج] [وكان كولرج يلتهم جميع انواع الـكتب بشراهة لا حد لاشباعها] والتى استعار منها صورا وعباراتا يمكن ان نجدها فى [كوبلا كان] و [البحار العجوز] • ان معظم الـكتب التى قرأها كولرج غامضة عفى عليها النسيان ، فلقد قرأ مثلا جميع الرحلات

التى كانت فى متناول يده ، وقد بين [لوس] للمرة الاولى والاخيرة ان الاصالة الشعرية هى على العموم طريقة فريدة لجمع اكثر المواد اختلافا وتناقضا وتكوين كل جديد منها ، وشرحه هذا فى غاية الاقناع كما انه دليل على كيفية هضم المواد المختلفة وتحويلها بواسطة العبقرية الشعرية الى مادة جديدة ، اذ لا يستطيع احد بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب ان يزعم انه صار يفهم [البحار العجوز] بصورة دقيقة ، كما ان غرض الدكتور لوس لم يكن ابداً تقديم شرح لمعانى القصيدة ، فقد كان منهمكا فى بحث عن اسلوب العمل وهو موضوع يقع خارج حدود النقد الادبى تماما • ان كيفية استحالة مثل هـذه المواد الناتجة عن قراءة كولرج المتباينـة الى شعر رائع لم تزل كما كانت كغزا كبيرا ، ومع ذلك يعتقد بعض الباحثين المتفائلين بان طريقة لوس هذه تمدنا بمفتاح يسهل علينا فتح مغالق أى قصيدة لاى شاعر يبدو عليه انه قرأ شيئا ما •• ولقد كتب لى رجل محترم من [انديانا] قبل سنة أو أكثر يقول : [اننى لا عجب ان كانت هناك علاقة ـ طبعا قد اكون مجنونا ـ (وهذه عبارته هو وليست عبارتى وليس الرجل مجنونا فقط بل به مس قليل فى زاوية من عقله اصيب به من جراء قراءته « طريق كزنادو ») اننى لا عجب ما اذا كان ثمة علاقة ملموسة بين (قطط الحضارة الميتة) و (السكركدن المتفسخ) وبين (ذلك الجدث الذى زرعته السنة الماضية فى حديقتك ؟] لاشك ان هذه العبارة تبدو كالهذيان ما لم نتمكن من التعرف على مصادرها اذ أنها صادرة من باحث جاد فى محاولته لتقرير العلاقة بين [الارض الخراب] وكتاب [قلب الظلام] لجوزيف كونراد •

وبينما الهب الدكتور لوس نفوس اولئك الذين يمارسون التفسير بحماس منقطع النظير ، امدهم [فكنس ويك] بنموذج لما يرجون أن تكون عليه جميع الاعمال الادبية ولكن يجب ان ابادر الى توضيح هذه الحقيقة وهى اننى لست اروم الاستهانة أو التقليل من قيمة هؤلاء المفسرين الذين اخذوا على عاتقهم حل جميع العقد ومتابعة كل الالغاز الموجودة فى ذلك الكتاب ، واذا ما قدر لفنكنس ويك ان يكون فى متناول الفهـم

ـ ولا شك فى اننا عاجزون عن فهمه بغير هذا الجهد ـ فيجب متابعة مثل هذا التمحيص والتدقيق ، وان السادة كامبل وروبنسن [وهما مؤلفان لكتاب واحد من هذا القبيل] قد ادوا خدمة جليلة ، وان كان ثمة ما اشكو منه فهو جيمس جويس صاحب المؤلف الشاذ المشهور « فنكنس ويك » وذلك لانه باختصار صاغ اجزاء كبيرة منه فى عبارات فارغة ولكنها جميلة « جميلة جدا عندما يرتلها صوت ارلندى يشبه بعذوبته صوت المؤلف ـ كم اتمنى لو انه قام بتسجيلها ! » وربما لم يدرك جويس مدى غموض كتابه هذا • ومهما كان الحكم النهائى عن « فنكنس ويك » ـ وهذا ما يخرج عن حدود غرضى هنا ـ فلست اعتقد ان الشعر عادة يكتب بهذه الصورة « ان الكتاب عبارة عن قصيدة نثرية طويلة » أو يحتاج الى مثل هذا التحليل لكى يتم فهمه وتذوقه ولكنى اظن بان لغز فنكنس ويك قد شجع على رواج الخطأ الشائع اليوم ، وهو الخلط بين التفسير والفهم • وبعد اخراج مسرحيتى « حفلة الكوكتيل » استمر البريد يحمل لى مدة ثلاثة أشهر أعدادا هائلة من الرسائل كانت كلها تحتوى على حلول مدهشة لما كان يعتبره اصحابها معنى المسرحية الغامضة • وكان واضحا ان محررى هذه الرسائل لا يستنكرون وضعى لمثل هذه الاحجيه امامهم ، فلقد احبوها ، وفى الواقع انهم قاموا ، دون ان يشعرون ، بخلق هذه الاحجية لكى يتمتعوا باكتشاف الحل لها • وهنا يجب ان اعترف بانه لا يمكن تبرءتى تماما من تهمة التغرير بهم على الاقل فى مناسبة واحدة فقط • اما بشأن الملاحظات التى ذيلت بها « الارض الخراب » فلقد كنت اقصد بها فى بادىء الامر ذكر جميع المصادر التى اقتبست منها استشهاداتى المختلفة للرد على تخرصات نقاد قصائدى الاولى الذين اتهمونى بالسرقة الادبية • وعندما تم طبع « الارض الخراب » بعد ذلك على شكل كتاب صغير [لان القصيدة عندما ظهرت لاول مرة فى مجلة « الدايل » وال « كريتويون » كانت خلوا من التذييل] ، وجدت بان القصيدة كانت قصيرة جدا مما حدا بى الى استئناف العمل من جديد لتوسيع ذلك التذييل واعداد صفحات أكثر من المادة المطبوعة فكانت

النتيجة ان اصبحت تلك الملاحظات هدفا عجيبا للدراسات العلمية الزائفة التى لا تزال مستمرة حتى هذا اليوم • وطالما فكرت فى نبذ هذه الملاحظات الا ان ذلك الامر اصبح عسيرا اليوم فلقــد كانت تلك الملاحظات موضع اعجاب اكثر من القصيدة ذاتها حتى صــار الذين يشترون الديوان ولا يجدونها فيه يطالبون بارجاع نقودهم اليهم ، بيد انى لا اعتقد ان هــذه الملاحظات قد اضرت الشعراء الآخرين • فانا لا استطيع مطلقا ان اتصور وجود احدا بين الشعراء الفحول المعاصرين ممن لا يحسن استعمال عملية التذييل هــذه [اما بخصوص الآنســة ماريان مور فان ملاحظاتهــا عن قصائدها سديدة دائما كما انها موضع العجب والمتعة ولا تشجع ابدا الباحثين عن مصادر الاشياء على التمادى فى غيهم] فانا اذن لست بنادم على كتابة هذه الملاحظات بسبب المثل السيء الذى ضربته فيها للشعراء الآخرين • ان سبب ندمى يرجع الى كون ملاحظاتى اثارت النوع الخاطىء من الاهتمام بين الباحثين عن المصادر • وكان من العدل طبعــا ان اشيد بعمل الآنسة (جسى وستن) ولــكنى اسف لانى اطلقت هذا العدد الــكبير من المستطلعين فى صيد الوز البرى للبحث عن أصل لعبة ورق [التاروت[1]] و [الــكأس المقدس[2]] •

وبينما كنت اتأمل هذه المعضلة ، أى محاولة فهم القصيدة عن طريق شرح مصادرها عثرت على مقطوعة ل [س•س•فيك] ظهر لى ان لها بعض الارتباط بهذا الموضوع • ولقد استشهد بهــذه المقطوعة الاب [فكتور هوايت] فى كتابه [الله واللاشعور] • ولقد ذكرها الاب هوايت فى أثناء شرحه للفرق الاساسى بين طريقة [فرويد] وطريقة [يانك] •

---

(١) لعبة التاروت : هى لعبة ورق كانت شائعة فى ايطاليا فى القرن الرابع عشر ولا يعرف اصل هذه الــكلمة ، كما ان قواعد اللعبة نفسها موضع حدس وتخمين •

(٢) الــكأس المقدس : هى ، كما فى اقاصيص القرون الوسطى . الاناء الذى شرب المسيح منه أثناء العشاء الاخير والذى أصبح هدف مغامرات الفرسان فى قصص القرون الوسطى حيث كانت تدور المغامرات التى يقوم بها هؤلاء الابطال حول البحث عنه •

« ان من الحقائق المعروفة لدى الجميع [كما يقول يانك] هى انه يمكن النظر الى الحوادث الطبيعية من زاويتين [الميكانيكية] ـ الآلية ـ والحيوية فالنظرة الميكانيكية هى سببية محضة اذ يتم فهم الحادثة من وجهة النظر هذه باعتبار انها وقعت نتيجة لسبب معين ... وبالعكس فان النظرة الحيوية هى فاصلة فى جوهرها . فالحادثة الواحدة من وجهة النظر النشاطية تُبحث من الاثر الذى تحدثه حتى سبب حدوثها باعتبار ان النشاط هو الاساس الجوهرى للتغيرات التى تطرأ على الظواهر » .

ان هذه المقطوعة مأخوذة من المقالة الاولى لكتاب [مساهمة فى علم النفس التحليلى] واريد ان اضيف اليها جملة اخرى لم يذكرها الاب هوايت وهى التى يفتح بها المؤلف فقرة اخرى : « لا يمكن الاستغناء عن اية وجهة نظر من هاتين الوجهتين فى فهم الظواهر الطبيعية . »

ان هذه العبارة توحى بكثير من المعانى اذ يستطيع المرء ان يشرح اية قصيدة بواسطة التحرى عن عناصرها المكونة والاسباب التى ادت الى نظمها وقد يكون الشرح تحضيرا ضروريا للفهم . ولكن لكى نفهم قصيدة معينة ينبغى ايضا ان نحاول فهم ما يهدف اليه الشاعر ، أو بعبارة أفضل ، ان نحاول فهم مضمونها الكامل .

وربما كان النوع الوحيد من النقد الذى يظهر فيه خطر الاعتماد المفرط على الشروح السببية تماما ، هو دراسات السِّير النقدية لا سيما عندما يكون كاتب السيرة قد ذيل معلوماته عن الحقائق الخارجية بتخمينات نفسية عن تجارب الكاتب الداخلية ولست اريد بهذا ان تبقى شخصية الشاعر الراحل وحياته الخاصة ارضا مقدسة لا يجوز للعالم النفسى ان يطأها اذ يجب ان يكون العالم حرا فى دراسة مثل هذه النواحى كلما دفعه حب الاستطلاع لبحثها طالما كان (الضحية) فى عداد الاموات وكان من المتعذر الاستعانة بقوانين الطعن والقذف لايقاف ذلك العالم النفسانى عند حده . كما انه لا يوجد اى سبب يدعو الى عدم كتابة سير الشعراء . هذا بالاضافة الى ان كاتب سيره اى مؤلف من المؤلفين يجب ان يمتلك قابلية على النقد ،

كما يجب ان يكون ذا ذوق وحكمة ومن المعجبين باعمال ذلك الرجل الذى يروم الكتابة عن سيرته ، وعلى العكس من ذلك ، ان اى ناقد له اهتمام كبير بمؤلفات كاتب ما يجب ان يكون ملماً بسيرة حياته • بيد ان السيرة النقدية لحياة أي كاتب هي ، بحد ذاتها مهمة دقيقة والناقد ، كاتب السيرة الذى يطبق فى موضوعه طرق التحليل النفسى المماثلة للتى تعرف عليها فى مطالعاته لكتب علماء النفس [ان لم يكن عالما نفسانيا مجربا ومدربا] يزيد فى تشويش الموضوع وارباكه •

ان مدى الفائدة التى يجنيها القارىء من المعلومات الخاصة بحياة الشاعر لكى يتفهم شعره ليست بالبساطة التى يتصورها البعض ، فالقارىء هو الذى يجب ان يقررها لنفسه ، وان يُجيب عنها بصورة عامة كلما دعت الضرورة الى ذلك ، لانها قد تكون ذات اهمية عظمى فى حالة شاعر معين ، وليست بذات بال فى حالة شاعر آخر اذ يمكن ان يكون التذوق الشعرى تجربة معقدة تمتزج فيه ألوان مختلفة من الاطمئنان ، وقد تكون ممزوجة بنسب متفاوتة بالنسبة لكل قارىء ، وسأورد مثلا على ذلك [ان من المتفق عليه بصورة عامة هو ان الجزء الاكبر من شعر (ورد سورث) كتب خلال فترة قصيرة من الزمن فهى قصيرة بحد ذاتها وقصيرة بالنسبة لطول حياة ورد سورث ، ولقد قدم طلاب ورد سورث المتباينون تفاسير مختلفة لتبرير ضعف انتاجه المتأخر ، وكتب السير هربرت ريد منذ سنوات مضت عنه وكتابه طريف [رغم اننى اعتقد ان خير تثمين لورد سورث هو كتاب « رداء متنوع الالوان »] يشرح فيه نشوء وازدهار عبقرية ورد سورث بالنسبة للاثر الذى تركته فى نفسه قصته مع [انت قالون] اننى اخذت المعلومات عنها فى الظهور آنذاك • ولقد كتب المستر ف•بيتسون مؤخرا كتابا ذا اهمية عظيمة ايضا [يساعد الفصل الخاص فيه عن (الصوتين) على تفهم اسلوب [ورد سورث] • وهو يذكر فى كتابه هذا ان (آنت) ليست لها الاهمية الكبيرة التى يتصورها السير هربرت ريد وان السر الحقيقى هو ان [ورد سورث] كان مشغوفا بحب اخته (دوروثي) وان هذا يفسر لنا بصورة خاصة

المقصود من قصائد (لوسي) كما يفسر زوال الوحي عن [ورد سوث] بعد زواجه • وقد يكون ريد بهذا على حق فان حججه قوية ولكن المسألة الحقيقية التي ينبغي على كل من يقرأ لورد سورث ان يبت في مدى اهمية ذلك وهل ان هذه الحقيقة تساعد على فهم قصائد لوسى اكثر من السابق • واذا جاز لى ان اتكلم عن نفسي فسأقول بان معرفة الدوافع التي ادت الى ظهور القصيدة ليست هي بالضرورة عونا على فهمها فقد تؤدي المعلومات الزائدة عن القصيدة الى الحيولة دون الاتصال بها ، فانا لا اشعر باى حاجة الى القاء اى ضوء على قصائد لوسى ، غير الضوء الذى ينبثق منها ولست اقصد بهذا الكلام الى انه لا توجد مناسبة يمكن لهذه المعلومات أو التخمينات التي قدمها كل من سير هربرت ريد والمستر بيتسن تكون فيها نافعة ، انها مفيدة اذا ما اردنا فهم ورد سورث ولكنها غير مفيدة مباشرة في فهمنا لشعره ، او بالاحرى انها ليست مهمة في فهم الشعر كشعر ، واني على استعداد للقول بان ثمة اشياء كامنة في جميع القصائد الخالدة لا يتغير تفسيرها ويجب ان تبقى كذلك مهما كانت معلوماتنا عن الشاعر كاملة وهذه هي الاشياء المهمة جدا في القصيدة ، فعندما يتم نظم القصيدة يكون شيئا جديدا قد حدث وهذا الشيء هو الذي تقصد اليه بكلمة [الخلق] كما اعتقـــد •

وليس تفسير الشعر بواسطة تفحص مصادره هو النهج الذى تقره مدارس النقد المعاصرة ابدا ، ولكنه الطريق الذى يحقق رغبات كثير من قراء الشعر التي تقضي بان يفسر لها الشعر بلغة مغايرة ، ان القسم الاعظم من الرسائل التي تردني من اشخاص مجهولين حول قصائدي تحتوى على مطاليب بخصوص نوع التفسير الذى يتعذر عليّ اعطاءه • وهناك بعض الاتجاهات الاخرى كالتي يمثلها البروفسور [ردتشارد] في اختيـــاره مسألة تدريس التذوق الشـــعرى على احسن وجه أو عن طريق الدقة اللفظية التي ينادى بها تلميذه اللامع البروفسور [امبسن] ولقد جذب انتباهي مؤخرا نوع من التطور الذى اعتقـد ان منشـأه يكمن في الطرف

التجريبية التي كان يستخدمها البروفسور ردتشارد والتي هي بحد ذاتها رد فعل سليم ضد تحويل الاذهان من الشعر الى الشاعر وهو ما نجده في كتاب طبع قبل مدة قصيرة تحت عنوان [تفاسير] ويتألف من سلسلة من مقالات كتبها اثنا عشر ناقدا انكليزيا شابا حللوا في كل واحدة منها قصيدة من اختيارهم الخاص والطريقة التي اتبعوها هي انهم اخذوا قصيدة من القصائد المشهورة [ان كل قصيدة جرى تحليلها في هذا الكتاب هي جيدة من نوعها] دون الاشارة الى المؤلف أو اعماله ، فلجأوا الى تحليلها قطعة فقطعة أو بيتا فبيت وقاموا باستخلاص واستخراج كل جزء من معانيها بقدر المستطاع وربما امكن تسمية هذه المدرسة بمدرسة [عاصري الليمون] •
ولما كانت القصائد ترجع الى فترة تمتد بين القرن السادس عشر والوقت الحاضر كما تختلف كثيرا الواحدة عن الاخرى - يبدأ الكتاب بقصيدة [العنقاء والسلحفاة] لشكسبير وينتهي بـ [برفروك] ، وقصيدة (ييتس) [بين تلاميذ المدارس] ، ولما كان كل واحد من النقاد يتبع طريقة خاصة جاءت النتيجة ممتعة ومربكة قليلا ، ويجب ان نعترف بان دراسة اثنى عشر قصيدة وتحليل كل واحد منها بأناة وصبر هي طريقة متبعة في قضاء الوقت ، وانا اتصور ان بعض هؤلاء الشعراء [وقد قضوا نحبهم جميعا ما عداي] سيندهش عندما يعلم بما تعنيه قصائدهم ، ولقد اصابتني قليلا من الدهشة مرة أو مرتين وذلك عندما علمت بان الضباب الذي جاء ذكره في مطلع [برفورك] قد تغلغل بطريقة ما الى غـرفة الاستقبال • بيد ان تحليل [برفروك] لم يكن محاولة للوقوف على المصادر أو الاصول سواء كان في الادب أو في الزوايا الغامضة في حياته بل كانت محاولة للوقوف على المعنى الحقيقي للقصيدة ، سواء كان ذلك المعنى الذي قصدته انا ام لم يكن •
ولقد شعرت بالامتنان لذلك ، وكانت هناك عدة مقالات خيل لي بانها جيدة بيد انه لما كان لكل طريقة نواقصها ومخاطرها لذا فان من الانصاف ان اذكر ما يبدو لي من نواقص ومخاطر في هذه الطريقة ، تلك المخاطر التي ينبغي للاستاذ ان يحذر تلاميذه منها وذلك اذا صح اعتقادي عن الغاية

الرئيسية التى تستخدم فيها الا وهى تمرين الطلاب •

ان الخطر الاول يكمن فى الاعتقاد بضرورة وجود تفسير واحد للقصيدة ، وان ذلك التفسير هو التفسير الصحيح وستكون هناك شروح تفصيلية للقصائد المنظومة فى عصر يختلف عن عصرنا ، كما توجد معلومات عامة واشارات تاريخية ومعاني كلمات معينة استعملت فى وقت معين يمكن التثبت منها ويستطيع الاستاذ ان يتأكد من ضبطها من قبل الطلاب ، ولكن معنى القصيدة العام لا يوفيه أى تفسير معين لانه يتوقف على ما توحيه القصيدة للشعراء المختلفين من ذوى الحس المرهف •

اما الخطر الثانى وهو الذى لم يقع فيه أى ناقد من الذين ساهموا فى الكتاب المذكور كما اظن ، والذى يتعرض له الشعراء عادة ، هو اعتبار التفسير المصيب للقصيدة تعبيرا اراديا أو غير اراديا لما يريده المؤلف بحكم الضرورة ، لان الاتجاه السائد هو اننا نفهم القصيدة عندما نشخص مصادرها ونتتبع العملية التى اخضع الشاعر مواده بها ، وهذا الاتجاه سائد الى درجة اننا يمكننا تصديق العكس بسهولة وهو ان أى تفسير للقصيدة هو تفسير لكيفية كتابتها • وقد افادنى شخصيا التحليل الذى اشرت اليه سابقا لقصيدتى (برفروك) ، وذلك لانه ساعدنى على النظر الى القصيدة من زاوية القارىء ذى الحس المرهف والنشاط العظيم ، ولكن هذا لا يعنى ابدا ان المفسر قد نظر الى القصيدة من زاويتى انا او ان شرحه يمت بأية صلة الى التجارب التى دفعتنى الى كتابتها أو الى أية تجربة صادفتنى أثناء عملية الكتابة •

والتعليق الثالث هو انه يعجبنى ان اطبق هذه الطريقة للاختبار على قصيدة جديدة لم يسبق لى ان رأيتها ، وذلك لاننى ارغب فى اكتشاف ما اذا كنت قادرا على التمتع بها بعد قراءتى للتحليل اذ ان جميع القصائد المذكورة فى الكتاب المشار اليه هى من القصائد التى كنت اعرفها واحبها منذ سنوات عديدة ، وبعد قراءتى للتحليل وجدت ان من الصعب علىّ استرجاع عواطفى السابقة تجاه تلك القصائد فكأنما طلب الىّ اعادة صنع ماكنة فككت

جميع اجزائها ، فانا في الحقيقة اعتقد ان جزءاً كبيرا من كلمة التفسير يكمن من انه يعود لي شخصيا ، فربما كانت هناك عدة اشياء يمكن معرفتها عن هذه القصيدة أو تلك وهي حقائق متنوعة يستطيع الباحثون اسعافي بها ويمكن ان تساعدني هي بتجنب سوء فهم محقق ، ولكنني اعتقد ان أي تفسير صائب يجب ان يكون في نفس الوقت تعبيرا عن شعوري عند قراءته •

ان اعطائي فكرة شاملة عن جميع ضروب النقد الادبي المتبعة عندنا في الوقت الحاضر ليس جزء من الغرض الذي استهدفه فقد اردت بادىء الامر ان الفت الانظار الى التغير الكلي الذي يطرأ على النقد الادبي والذي يمكن القول انه بدأ بـ (كولرج) ولكنه تقدم بسرعة اعظم خلال الخمسة والعشرين سنة الماضية ، ومما ساعد على زيادة هذه السرعة هو ارتباط العلوم الاجتماعية بالنقد وتدريس الادب [بما في ذلك الادب المعاصر] في الكليات والجامعات ولست بآسف على حدوث هذا التحول ، ذلك لانه يبدو لي ان حدوثه اكيد ، ففي عصر الشك ، العصر الذي تملأ فيه العلوم الجديد الناس حيرة واضطرابا ، العصر الذي لا يوجد فيه الا القليل من الحقائق المسلم بها كالاعتقادات العامة والفرضيات ، والبيئة المشتركة لجميع القراء في هذا العصر ، لاتبقى ناحية صالحة للاستكشاف فيه الا وطرقت ، بيد اننا ربما تسألنا عما يمكن ان نجده بين كل هذه الانواع المتعددة مما يمكن ان يكون مشتركا بين جميع أنواع النقد الادبي • لقد اكدت قبل ثلاثين عاما على الوظيفة الاساسية للنقد الادبي اذ قلت انها [توضيح الاعمال الفنية واصلاح الذوق] وقد يبدو هذا التعبير لنا في عام ١٩٥٦ مليئا بالمباهات والفخر ولكن ربما استطعت ان اصفه ببساطة أكثر بصورة يمكن تقبلها في هذا العصر أيضا فأقول ان وظيفة النقد هي [المساعدة على فهم الادب وتذوقه] واريد ان اضيف الى ذلك ما تتضمنه العبارة من وجود وظيفة سلبية للادب الا وهي ما لا يجب تذوقه ، لان الناقد قد يدعى في مناسبة معينة لاستهجان ما هو من الدرجة الثانية والكشف عن النواحي المزيفة رغم ان هذه الوظيفة هي ثانوية بالنسبة لانتخاب عبارات الاستحسان لما

يستحق الاستحسان ، وينبغي لى التأكيد على نقطة واحدة وهي انني لا انظر الى تذوق الادب وفهمه ، نظرتي الى فعاليتين متميزتين عن بعضهما ، الاولى عاطفية والثانية فكرية ، ولست اعنى بالفهم التفسير ولو ان تفسير ما يمكن شرحه هو خطوة ضرورية للفهم وسوف اقدم مثلا صغيرا على ذلك فأقول ان تعلم الكلمات غير المألوفة والوقوف على أشكال الكلمات الجديدة هما شرطان اساسيان في فهم (چوسر) وهذا ما يدخل في باب التفسير ، بيد ان الانسان قد يصبح ملماً بكل ما يتصل بعصر جوسر وعاداته الاجتماعية وعقائده ومعرفته وجهله ومع ذلك لا يستطيع فهم الشعر ، ففهم القصيدة يعنى تقريبا تذوقها للسبب الصحيح وقد يقال ان ذلك يعنى الحصول على المتعة اللازمة للقصيدة ، كالتي يمكن ان تمدنا بها • فالتمتع بالقصيدة واساءة فهم حقيقتها هو التمتع بما هو مجرد انعكاس لتفكيرنا ، فاللغة اداة عسيرة الاستعمال بحيث ان عبارتي [التمتع] و [الحصول على المتعة من •••] لا يعنيان شيئا واحدا ، حتى ان القول بان احدهم (يحصل على المتعة من الشعر) لا يعني بأنه (يتذوق الشعر) ، وفي الحقيقة ان معنى كلمة (المتعة) نفسها تختلف باختلاف الشيء الذي يوحي بالمتعة فحتى القصائد المختلفة تجلب درجات متفاوتة من الرضى ، ومن المؤكد اننا لا نتذوق القصيدة بصورة تامة ما لم نفهمها ، وبالعكس فمن الصحيح أيضا القول باننا لا نفهم أية قصيدة مالم نتذوقها وهذا يعني تذوقها بالدرجة الصحيحة بالنسبة الى قصائد اخرى • وليس من الضروري ان نضيف الى ان هذا يعنى بان المرء يجب ان لا يتذوق القصائد الرديئة ما لم تكن ردائتها من النوع الذي يثير ضحكنا ويسلينا •

لقد قلت ان التفسير ربما كان خطوة اولية ضرورية للفهم ولكن يخيل لى بانى افهم بعض انواع الشعر دون تفسير فمثلا قصيدة شكسبير ••

« يرقد والدك تحت خمس قامات كاملة من الماء »

أو قصيدة شيلي :

« هل اصابك الشحوب ••

من جراء تسلق سلم السماء ..

والتطلع الى الارض ... »

وذلك لان هذه القصائد ، وفي كثير من القصائد الاخرى لا يوجد في نظري أي شيء يمكن تفسيره ، او بالاحرى لا يوجد ما يمكن ان يساعدني على فهمها بصورة أحسن وتذوقها على خير وجه ، وكما اشرت سابقا فانه يمكن احيانا ان يشتت التفسير انتباهنا كليا عن القصيدة كشعر بدلا من ان يقودنا في طريق الفهم وربما كان خير سبب عندي على فهم مثل هذا الشعر ، كالقصائد الغنائية لشكسبير وشيلي التي ذكرتها آنفا هو ان هاتين القصيدتين تمداني اليوم بنفس النشوة العظيمة التي كنت احصل عليها قبل خمسين عاما . تمداني اليوم بنفس النشوة العظيمة التي كنت احصل عليهـا منهما قبـل خمسين عاما .

فالفرق اذاً بين الناقد الادبي وبين الناقد الذي يتعدى حدود النقد الادبي لا يكمن في كون الناقد الادبي هو اديب صرف او انه خال من الميول الاخرى ، فالناقد الذي لا هم له سوى الادب لا يملك ما يقوله لنا الا القليل اذ ان ادبه سيكون افكارا مجردة خالصة ، ان للشعراء ميول اخرى بالاضافة الى الشعر والا كان شعرهم فارغا ، فهم شعراء لان رغبتهم القوية كائنة في تحويل تجاربهم وافكارهم الى شعر [والتجربة والتفكير يعنيان ان لهما ميول اخرى خارج نطاق الشعر] وعليه يكون الناقد (اديبا) اذا كان غرضه الاساسي في كتابة النقد هو مساعدة القراء على الفهم والتذوق - ولـكن يجب ان تكون له ميول اخرى تماما كما هي الحال مع الشاعر ، فالناقد الادبي ليس مجرد اختصاصي فني ، تعلم القواعد التي يجب مراعاتها من قبل الـكتاب الذين ينقدهم اذ يجب ان يكون الناقد رجلا كاملا ، رجلا له معتقداته ومبادؤه ومعرفته وتجربته في الحياة .

اذن يمكننا ان نتساءل حينما يقدم لنا أي مؤلف باسم النقد الادبي ما اذا كان يرمي الى الافهام والتشوق ، فان لم يكن كذلك فقد يكون نوعا من النشاطات الحرة المفيدة ، وعند ذاك يجب ان يتم الحـكم عليه باعتباره بحثا في علم النفس أو الاجتماع أو المنطق أو التربية أو أي موضوع

million, a well in Baghdad in the alluvium deposits showed 450 parts per million.

On an examination of a considerable number of samples, it was calculated that the mean total soluble salt in shallow zone (less than 50 feet) underground water measured 3,500 parts per million, and in deeper zone measured 20,000 parts per million, while as in surface water it approximated 1,200 parts per million.[5]

Generally, the Baghdad area has a high water table. The capillary action draws the underground water to the surface through the zone of aeration. Consequently, there is an accumulation of salt at the root zone.

The levee soils, however, are more permeable and therefore allow water to penetrate through the surface and the subsurface, and consequently they are potentiol sources of underground water. Moreover, as these soils are usually in receipt of irrigation, river, and rain their chemical constituents are not excessive. The levee soils are not deep. Many times the fresh water table almost floats over the saline connate water. Underground water fluctuations have been recorded to average about 5 feet, and as a norm do not exceed 10 feet. Low levels are found in Summer and Autumn, and high levels are recorded during late Winter, Spring, early Summer.

References

1. G. Munir Ahmed, GEOGRAPHY AND URBANIZION (BAGHDAD Bulletin of the College of Arts and Scieice, 1958) Vol. III.
2. A. E. Smailes, GEOGRAPHY OF TOWNS (London, 1953) p-41.
3. A.A. Duri, BAGHDAD in the Encyclopedia of Islam (London 1958) Vol I, Fasciculus 14, p-894.
4. Jassim Al-Khalaf, The Climate of Iraq (Baghdad: Bulletin of the College of Arts and Science, 1957) Vol II pp 201-208 followed by a series of maps. Also, Climatological Atlas of Iraq (Baghdad, 1945) Publication No. 8.
5. It has been determined that water containing more than 3,500 parts per million of mean total soluble salt is unsatisfactory for domestic use. For a detailed examination of the underground water resources of Iraq, refer to "Groundwater Resources of Iraq".

mixed with the top soil. These soils, specially the river and irrigation levee soils, are relatively free from salinity owing to the fact of good permeability and a natural drainage toward the basins.

Whenever superfluous water stagnates in any depression the characteristic. soils are the basin soils. These contain a high percentage of silt, lime, and gypsum, and as a result, they are impermeable. Since they are uncultivable, they produce good grazing lands.

The river Tigris, as other present streams in the Mesopotamian plain, is continuously depositing clay, silt, and sand, and many times these are intermixed with some gravel. Furthermore, Baghdad is located in the flood plain of the Tigris, and consequently it has considerable amount of flood plain deposits. In one of the drilling operations, about 100 feet east of the tigris, the flood plain deposits were found to be 66 feet in thickness in the Baghdad area.

SURFACE AND UNDERGROUND WATER:

The chief source of surface water in the Baghdad area is the Tigris river. Generally, the quality of the surface water is regarded satisfactory for use in irrigation. As far as domestic use is concerned. the presence of foreign organic matter causes onough pollution as to render its use undesireable.

The Togris river, on an average, contains 300 parts per million salt, and together with the Euphrates river, it deposits more than -5,000,000 tons of salt in irrigated lands annually. There is poor drainage and a high water table, and these factors limit the loss by evapo-transpiration process. Consequently, a surprising amount of salt is being deposited at the surface.

The quality of the underground water is influenced by the nature of the irrigation water used on the surface, for the surface water infilterates through the soils into the underground water reservoirs. The flood plain deposits, which are abundantly found in the Baghdad area, contain limestone, gypsum, marl, and sandstone formations.

Chemisally, the major constituents of both the surface and the underground water include calcium, sodium, and magnesium cations, and bicarbonates, sulphates, and chloride ions. Surface waters usually contain low nitrate concentrations, but boron concentrations are less than 0.5 parts per million.

Furthermore, underground water found in the alluvium deposits shows a low content of nitrate as compared to other rock formations. Though surface water usually contains not more than 25 parts per

CLIMATE :

The climatic region in which Baghdad is located has been classified with different terminology;[4] it has been termed low lattitude desert type, Semi-arid or Steppe type (BShw), and low lattitude Steppe. One of the dominant features of this climatic region is its vicinity to the Mediterranean type of climate. Aside from the intricacies of termionlogy, the distinguishing characteristics are the hot day summers and cold wet winters which are experienced in Baghdad. Annual as well as diarnal ranges of temperatures are very significant.

Ninety five percent of the rainfall normally occurs between November and April. Winds from the North-west bring severe dust and sand storms which may, occasionally, frequent very often, and even their stay may be prolonged. Wind velocities may reach as high as 40 - 50 knots an hour.

Winter temperatures may seldom record below the freezing point. On an average, the first killing frost of autumn occurs during the first half of December, and the last killing frost of the Spring occurs during the latter part of February. As a result, the Baghdad area enjoys a long growing season. The following table shows the monthly distribution of temperatures at Baghdad, and relative humidity, based on o 15 year record:

TABLE 2.

ABGHDAD: TEMPERATURES IN F°.

MEAN	Jan	Feb	Mar	Apr	May	Jun	Jul	Aug	Sep	Oct	Nov	Dec	Annual
HIGHEST	49	53	60	71	83	90	94	94	87	77	63	52	73
LOWEST	77	86	90	104	122	119	121	120	116	107	94	79	121
RELATIVE	18	23	27	37	51	58	62	64	51	39	29	20	18
HUMIDITY	71	63	56	47	33	24	23	24	28	36	56	71	44

SOILS :

The most representative Soils in the Baghdad area are the levee soils. These soils owe their origin to the silt deposits of the Tigris river and former systems of irrigation. These are laid on basin clay, and they are homogeneously mixed with the top soil. These soils owe their origin to the silt deposits of the Tigris river and former systems of irrigation. These are laid on basin clay, and they are homogeneously

STRATIGRAPHIC SUMMARY

TABLE I

Age	Formation	Lithology	Thickness	Occurrence	Ground water characteristics
Recent	Younger alluvium	Gravel, Sand, Silt, Clay, some secondary Gypsum, Sand dunes.	Unknown, Probably exceeding 100 feet.	Wadis, Sand dunes areas	Some shallow wells near to the Tigris and the Euphrates have satisfactory ground water for use.
Pleistocene	Older alluvium	Deltaic, lacustrine, clay, silk, sand, lenticular.	Unknown, Probably exceeding 600 feet.	Between the Tigris and the Euphrates rivers	Older alluvium contains ground water, but unsatisfactory.

LOCATION:

The city of Baghdad[3] is located at 33° 26 18 lattitude north, and 44° 23 9 longitude east, at an altitude of 34.1 meters. The city extends over both the banks of the river Tigris. Regionally, Baghdad is located in the Mesopotamian plain which has an area of 101,500 square kilometers. Topographically, the Mesopotamian plain is extremely flat; the gradient of the plain is about half a foot per mile in the direction of the Persian Gulf. For most part, the plain is an area of interior drainage, except for the Shatt-al-Arab which drains into the Gulf. Structurally, the bedrocks in the plain dip differently depending upon the direction; they dip less than one degree north-easterly from the Western deserts, but Southwesterly along the Iranian border they dip 20 degrees. Furthermore, a broad syncline exists between the Zagras mountains to the northeast and the stable plateau of Arabia to the south-west. The Mesopotamian plain and the Persian Gulf are believed to be located in this Geosynclinal depression.

Geologically, the oldest expositions found in the Mesopotamian plain are the Euphrates limestones of the lower Miocene age. The lower and upper fars of the middle and upper Miocene age are laid over the Euphrates limestones. Bakhtiary formations of the Pliocene age are found in the northern and eastern parts, while in the South-Western parts Dibdiba formations are met with. Over many parts, the Pliestocene and Recent Age alluvial deposits are found. Baghdad falls within the last category of Geological characterization.

More specifically, the city of Baghdad is located in a flat plain of aggradation. The topography is so flat that in some parts, within the municipal boundaries, even swallow depressions are filled in with water; many depressions have been laid with flood plain deposits. The presence of Salt Crust over the surface is a common occurrence. Much of the area has a shallow water table. There is considerable recharge of water owing to irrigation, rainfall, and influent Seepage from the Tigris river.

Earlier in this paper it was mentioned that the most important deposits found in the Baghdad area are those formed and laid down in the Pliestocene and Recent Age. Relevant to this, the following information regarding the stratigraphy of the area attempts to present more details about it.

BAGHDAD: ASPECTS OF SITE

BY

GHOUSE MUNIR AHMED

M. A., LL. B., M. Sc., Ph. D. (Chicago)

Assistant Professor, Department of Geography

INTRODUCTION:

Baghdad is the primate city of Iraq. It is the centre where the national life crystallises into a well-defined line of action which guides the whole ciuntry. It is the nerve-centre of all cultural growth and expression. It is at once a political and cultural focus of the country and thereby wields its influence over the entire nation. Furthermore, Baghdad is the functional pivot around which rotate the various functions which bind the primate city with the other regional centres of Iraq.

Geographically, Baghdad commands a favourable location which enables it to communicate with the other parts of the country; its spatial relationships are expressed by the focussing of the various media of transportation on it. Accessibility, thus expressed, enhances its functional dominance over areas of varying dimensions, each area being demarcated on the basis of the particular function in view.

Urban Geography[1] embraces under its scope the investigation of an urban phenomenon from the point of view of its physical foundations; it attempts to explain the features of the very ground on which the city stands. These characteristics are included in the study termed "the Site".[2]

It is proposed in this paper to examine the dominant aspects of the physical characteristics of the site of Baghdad. Such a study is intended to help appreciate the sital features of Baghdad. At the same time, it is useful to beep it in view while examining all plans and schemes of urban extentions and expansions of the city of Baghdad.

ditional theory of competition and bring us no nearer to a solution of the problem. We have no precise knowledge of what constitutes maximum productive efficiency and we have no standards or norms by which to judge what is reasonable in the way of advertising expenditure, or profits, or rates of innovation. Neither is there any agreement as to what degree of fluctuation of prices is socially or economically desirable.

The truth appears to be that it is impossible to give a hard and fast definition of competition which will apply to all times and places. To hase public policy on old-fashioned and inapplicable definitions of competition is to invite disaster. If we prevent firms from expanding because of some vague notion of what constitutes the optimum size of businesses we will deny to the community the advantages of large scale production. Moreover, to replace private enterprise by centralised planning is to ignore the fact that the imperfections of the market may very well be matched by the imperfections in the power and influence of those who plan.

The criterion of any public measure must be that the greater social gains should result than social losses. Much remains to be known before any rational conclusions can be drawn. But if the value judgement that competition is a good thing be accepted then public policy may be directed at the strengthening of the competitive elements in the economy. Certain abuses and defects in the economic system can be eliminated by government action. Capital could be made more available to new small firms. and the secure position of some of our larger firms would than certainly be challenged. The elimination of tariff barriers (and subsidies) by extending the area of the market would seriously threaten the existence of domestic or geographical monoplies. Unfair commercial practices directed at small firms might be more severely punished by law. Advertising might be more rigorously controlled to ensure that false or misleading information is not disseminated. The formation of trade associations etc. might be severely circumscribed; the adoption of a full employment policy by the governnt seems to have eliminated much of the uncertainty which has been used in the past as an excuse for the formation of such bodies. It is possible that if these and similar mearsures were undertaken, "the actual pattern, though not filfilling the requirements, may yet act in a way not fundamentally different from the workings of perfect competition".

Baghdad
30th, November, 1959.

Nevertheless it is often argued that within its limited field a firm may still enjoy all the security and advantages of a monopoly position. For example, the imperfections of the market for capital and capital equipment give large firms a decided advantage over small firms, legal and institutional barriers to new firms such as patents or licenses will give the established firm a favoured position and large expenditure on advertising, which only wealthy firms can afford, will create consumer loyalties and preferenes which remain stable over a long period of time and greatly help the establishment of a monopoly position. The crucial question here is whether there is sufficient oppirtunity for small firms to grow in size or for new firms to enter the market. There can be no doubt that the mortality rate amongst small firms and new firms is extremely high but it is possible that too much has been made of this point. There is ample evidence to show that if existing firms are earning abnormal profits newcomers will arise. Firms which have already attained a large size in one field may enter another with all the advantages of large scale production. The machinery for making capital available to and new firms has also been greatly improved.

Above all it must be remembered that competition to the economist has always implied price competition. The fact that fixed or conventional prices to be the rule in a large field of manufacturing business has led many people to rash conclusions as to the nature of the competitive process. It seems to recognise that price has ceased to be the overriding consideration in economic relationships. For most firms competition begins after the price has been settled. Given the price it is the search after buyers which is the element in competition most relevant to the business man. Most business men appear to regard price competition as in some way unfair. There is the notion of the "fair" or "just" price, yet there seems to be little prejudice against cost cutting or against quality and service competition. Greater variety of products, better service and stability of price may often be of more value to the consumer than flexible or lower prices.

With these considerations in mind some economists have evolved a new conception of competition called "workable competition". Competition is regarded as workable if the following conditions are fulfilled: maximum productive efficiency on the part of the firms in the industry or market; no restriction of output; no abnormal spending or reliance on advertising; moderate profits; the maintenance of a reasonable rate of improvenent or innovation; and flexible prices.

These conditions are very similar to those postulated in the tra-

declined considerably, that is, the "concentration ratio" in industries has greatly increased. Yet many business men believe quite sincerely that they are still operating in a competitive environment and are bewildered and annoyed by the charges of exploitation and monopolisation which are levelled against them. The truth is that both points of view are correct to some extent, and the inconsistency can only be resolved by a new, more comprehensive and realistic definition of competition.

Economists have always used the "industry" as their unit of analysis and there appear to be two definitions fo an industry in current use. The first defines an industry as a group of firms producing technologically similar articles, e.g. the coal industry, the cotton industry, the steel industry, the motor car industry etc. Concentration ratios are then used as evidence of the existence of monopoly. But this is to ignore the fact that each of these "industries" produces a variety of products which may be technically similar but wlisl can only in a very remote sense be considered as compatitve with each other. For example an automobile and a tractor are technologically similar and are produced by the same "industry" but they do not compete with one another in the same market. Moreover, many commodoties produced by one such "industry" will compete with a variety of articles which lie outside the boundaries of the original industry. Such a definition of an industry is adequate for the the delimitation of empirical studies but it is of no value in the setimation of whether or not an industry is competitive or monopolistic.

A more realistic definition of an industry is that of a group of firms producing goods which are substitutes for each other in the minds of consumers. This definition very much extends the notion of competition. For example a new house may now be considered as a substitute for a new car, a book for a seat at the theatre so that in the context of effective consumer demand the house industry and the motor car industry become synonymous. The number of permutations and combinations is infinte and the degree of competition may actually increase the further we move from whatever commodity we choose as the "base". In its most extreme form this second definition of an industry implies that all commodities compete with each other for a place in the consumer's pattern of expenditure. Thus the wider our definition of an industry the more intense does competition become. The nature of competition is thus best revealed by an attempt to discover how many choices the consumer has among commodities which satisfy any single want. Interpreted in this sense competition still remains a very important force in economic life.

It was the World Depression of the 1930's which destroyed this general faith in the virtues of competition. As a result of this experience it become clear that the theory of competition was based on a particular set of assumptions which were not consistent with the facts of the market place. The theoretical economist had been concerned with an ideal state of affairs known as competitive equilibrium; he had little to say as to how this equilibrium was achieved or how it could be maintained. Competition to the economist implied order and efficiency; to the business man, hit by the depression, it implied wastefulness, disorder and inefficiency. Economists explained the depression as being in part due to the growth of monopoly in economic life; businessnmen saw in trade associations, cartels and the like their only hope of salvation in the face of acute economic difficulties over which they had little or no control.

Thus a gulf was created between the ideas and termionlogy of the economist and those of the business man. The reaction against competition amongst academic economists was almost complete. The facts of the modern economic system appeared to be that many, if not most, industries were dominated and controlled by a few very large firms. The growth of large scale production, changes in methods of selling, particularly the development of advtrtising, and the increasing use of corporative forms of business organisations seemed to have established a rule of monopoly and not of competition in economic life. In order to bring economic theory into line with business practice a new word - "rationalisation" - was coined to describe the elimination of the "unfit" by mergers, absorptions and price and output fixing associations. The idea of the "good" monopoly grew in favour and in the 1930's the flight from competition was led by the british Government "by Precept, example, inducement and compulsion". A whole host of new terms, of a bewildering variety and shades of meaning came into being. In the past thirty years economists have variously described competition as pure, perfect, imperfect, monopolistic, atomistic, homogeneous, heterogeneous, pliopolistic, polypolistic and oligopolistic. We have even heard of a curious thing called atomistic homeopoly. Neither has the business man been backward in devising new terms. Competition has been described as fair or unfair, cut-throat, predatory, brutal, destructive and ruinous depending upon the point of view.

The difficulty appears to be that monopoly is associated in the minds of most people with bigness. There can be little doubt that the development of mass production has increased the averge size of firms and that the number of firms to be found in any one industry has

For nearly two hundred years the theory of competition has been dominant in economic discussions. The concept of competition has developed greatly from the earliest definition of competiton as "the act of endeavouring to gain what another endeavours to gain at the same time". Competition came to be regarded, and in some quarters is still regarded, as the fundamental and "natural" state of economic life and the belief that competition, in some obscure way, achieves the best of all economic worlds has a long tradition. This tradition may be traced back to Adam Smith who, in the *"Wealth of Nations"*, discerned an 'invisible hand' guiding our destinies in the path of economic salvation and maximum profits, to the Reverend. T. R. Malthus who maintained that hardship and competition were necessay to bring out the best in a man, and to the economic Darwinians of the mid-nineteenth century who argued that the results of competition were that the fittest survived - the "fittest" naturally being defined as those who did survive. Thus competition acquired a moral, even a religious flavour. The doctrine became an immutable law comparable to the laws of physics.

Yet heretics and deviationists existed even in the Golden Age of Capitalism. Adam Smith's remark that "business men seldom gather together, even for amusement and diversion, but the conversation ends in a conspiracy to defraud the public or in some device to raise prices" indicates that the Father of Anglo-Saxon economics was nat wholly convinced of the universality of compitition. John Stuart Mill noted the distressing fact that "when competitors are few they always agree not to compete". He addad that "they may run a race of cheapness to ruin a new candidate but as soon as he has established his position they come to terms with him". Such warnings and qualifications were, in general, ignored. In English economic circles in the mid-nineteenth century such remarks smacked of Socialism, and Continental Socialism at that. Bastiat earned general approval for his reply to Proudhon's assertion that "competition is killing competition". "It is sufficients to know", said Bastiat, "that competition is nothing else but the absence of any arbitrary authority interfering with buyers and sellers". The self seeking and economically anarchic British business man of the time interpreted this statement as implying that as long as the Government confined itself to doing nothing, and doing it with calmness and restraint, competition was indestructible. Thie idea was reinforced, albeit unintentionally, by the mathematical economists of the late nineteenth century who appeared to give competition a scientific basis in their search for the conditions which would ensure "perfection" of competition.

THE "DECLINE" OF COMPETITION

BY

J. H. Davies, B. A., M. A. (Wales), F. R. Econ. S.

2. 700 words (approx.)

Competition has always been regarded as a necessary spur to efficiency and enterprise in economic conduct. It is not surprising, therefore, that so much concern has been expressed over the ever increasing tendency towards a rule of monopoly in our economic life. In many quarters this movement towards monopoly is regarded as inevitable, indeed fundamental, and many suggestions have been made for dealing with this supposed evil. Particularly the conclusion has been drawn that if the community is to avoid the evils of private monopolistic exploitation the economic system must be transformed into some kind of collectivism in order that the benefits of competition may be obtained by State action.

It is impossible to deal with all aspects of this controversy within the space of this short article but it may be suggested that the fears of many people regarding this "decline" in competition is based on a misunderstanding of the nature of competition and of the competitive process and that there has been an over reliance on outmoded definitions. In the history of economic thought the word "competition" has come to mean many things and has accumulated a great burden of political and emotional associations. As a result we are often uncertain what it is supposed to mean in any paticular context. Moreover, our attitude to economic institutions and processes tends to change over time so that new meanings of the word "competition" are continually being added to our stock, often quite unconsciously. Economic theory tends to reflect, and is relected by, the political, social and religious environment. in which it exists, and which it helps bring into being. The trouble arises because economic theorists and practical men of affairs tend to move in entirely different worlds and the ideas of the first group seldom coincide with the actions of the second. Such a discrepancy can be very serious when public policy measures are being prepared to remedy social and economic abuses. It is clear that what the economist means by competition often bears little or no relation to the everyday use of the word by business men.

Archaeology cannot as yet provide complete data of this sort for the Ancient Near East.

Since pottery is fragile and prehistoric man's transport was probably limited, we may assume that it was not a mass production. However, a survey of a great number of sites indicate that occasionally it has been distributed, probably by travellers, or perhaps by professional wandering traders in exchange for raw materials or manufactured objects such as stone, wooden or obsidian tools, textile, and food.

It is noteworthy that not only the better made, well finished, or fancy polychromed vessels were exported, imported, or locally imitated but even types of lesser artistic values. Hassuna, Halaf, Ubaid wares in their various fabrics are widely distributed in the Near East.

2. Religious Practices

From pottery sometimes we learn man's past religious rituals and beliefs. He used clay vessels as containers for his infant burials,(20) as well as for grave goods buried with the body so that the deceased might use them in his after life. In some cases these were specially made, and in others they were merely the pottery of daily use. Cartain vessels probably were used for ceremonial purposes, as libation in the case of the spouted and the theriomarphic ritual vases.(21) The position of the goods may indicate a funerary ritual but at any one period may or may not have been a continuous funerary tradition.

3. Miscellaneous

Pottery offers a good field for the study of the local decorative art, and of artistic relationships between different groups of prehistoric people. At this early time potters expressed their artistic skill in a geometric style and copied nature either in an abstract or a realistic style. Whether the representations of the geometric or the natural objects were meant to be symbols of anything else is hard to know now and will always remain controversial.

Pottery also provides some knowledge of the fauna and the flora of the prehistoric environment. The many animals, birds, and plants that are depicted on the vessels cannot be determined by the archaeologist. They need a special study by botanists and zoologists, and even then they may remain unidentified.

---

(20) Safar, JNES, Vol. IV, No. 4, 1945, Pl. III :3.

(21) Tobler, Excavations at Tepe Gawra, Vol. II, Levels IX - XX, 1950, Pl. CXXIII : 113; Ziegler, Die Keramik Von Der Qala'a Des Haggi Mohammad, 1953, Pl. 20 : d; Delougaz, Pottery from the Diyala Region, 1952, Pl. 7, 25 a - b, 26.

polychromy. The motifs are either geometric or else naturalistic designs such as plants, birds, animals, and human beings, carried out either in an abstract or realistic style.

3. Painted and Plastic Designs

A combination of painted and incised motifs was also in use by prehistoric potters. The Hassuna standard type offers the best examples of this combined technique.

When all the foregoing technological aspects of vessels have been studied, clays and paints identified by chemical tests, shapes and designs analyzed, and each established in terms of stratified vertical distribution, horizontal diffusion, quantity, repetitiveness of features or uniformity, and changes in styles, the archaeologist may then identify the individual ceramic wares and classify their varieties. When this is done, the line between wares or their variants can be drawn. On this thorough basis, Hassuna, Halaf, and Ubaid ceramic material each respectively forms a special unit.

For absolute dating of prehistoric assemblages a sample of organic material such as charcoal, wood, bone, or shell is required. From this one may obtain a radio-active carbon date. Ideally, the sample must be taken from the same deposit that yields the ware. If the excavations fail to produce such a sample, a relative chronology could be established on typological grounds by correlation with better dated sites, or at worst, an informed guess on an arbitrary date.

II. Material Culture Dispersion and Interpretation

1. Cultural Interactions

The occurrence of an intrusive ware made of a native clay or a foreign clay may suggest either a peaceful migration or a violent invasion (if evidence of fiery destruction on a large scale were visible in the deposit). An intrusive ware made of a foreign clay can also indicate trade. Relative quantities have bearing on the interpretation of such wares.

The volume of any trade or migration could be estimated if the originating cultural centers, at least in terms of geographical regions, were known, the clays tested, the data on technical traits assembled, and well organized statistical tables (based on the differences in shapes and designs of a large stratified sherd collection) drawn up

clay must be studied. In an oxidizing atmosphere iron oxides give various shades of wellow, orange, red, cream, buff, brown, and black. In a reducing atmosphere various shades of gray and black are produced.(19)

Since black color can be produced either by oxidation or reduction, a refiring of the sherds in an oxidizing atmosphere is required to determine the cause. Upon refiring, if iron has been the cause of the black color the sherds will turn red, and if carbon, they will become buff or cream.

3. Shape

Identical shapes of vessels in two or more regions may be taken as clues for either ceramic contact or a similarity in needs. The more elaborate and characteristic individuals are the more important shapes for suggesting any contact. Simple shapes might conceivably be produced by indpendent invention. They are not important as clues for relations.

Pottery shapes are indicators of certain needs in a cultural development. Consequently new ceramic peoples appear with new tradition. In fact the history of the early pottery is to some degree the history of its shapes.

4. Design

The decorative designs used in pottery are plastic, painted, or both.

1. Plastic Designs.

They are: a. Iicised, either stabbed or gouged by a sharp tool of bone, stone, obsidian, or wood. b. Stamped. c. Appliqued. These are all made when the vessel is still in a leather-hard state. The motifs produced by the incised and the stamped techniques are generally geometric, such as linear designs, bands, triangles, lozenges, dots, etc. The applique technique may produce geometric as well as naturalistic motifs.

2. Painted Designs

They are applied in monochromy, polytony, bichromy, and

(19) Colton, Potsherds, Museum of Northern Arizona Bulletin 25, 1953, pp. 32-35; Colton and Hargrave, Handbook of Northern Arizona Pottery Ware, 1937, P. 8.

various color combinations employed are useful characteristics in ceramic identification.

e. Firing atmosphere

Vessels may be baked in an oxidizing or a reducing atmosphere.

1. Oxidizing atmosphere

This is achieved in the open air, in an oven, or in a kiln that permits sufficient oxygen to have a visible effect on the impurities, chiefly carbon and iron compounds. Carbon will burn out as gas and iron compounds will oxidize. If the temperature is low the carbonaceous material will not be driven out, and a black core will be produced in the fabric. The extent of this black core will decrease as temperature increases and disappears when fully oxidized.

The full sequence was nicely demonstrated when Matson made firing tests on clay samples taken from the banks of the Tigris River south of Boghdad.(17) The grayish-tan row clays turned black at a low temperature because of the presence of carbon; at 800°C the black color changed to salmon or reddish brown; at a little higher temperature it became yellow; and at still higher temperature it became yellow-green, then green.

2. Reducing atmosphere

This is achieved by preventing the oxygen from reaching the vessel in a closed oven or kiln. In this method carbonaceous materials have no means of egress. They are deposited in the vessel's pores giving it a black appearance.

A reducing method was used by early prehistoric potters in various regions of the Near East.(18) First the vessels were fired in an oxidizing atmosphere then covered with manure or grass. The volatile materials converted into smoke and having no means of escape, settled on the vessel and carbon filled the pores, making the vessel black, dark gray, or gray depending on the duration of the reducing process.

To determine what firing atmosphere was used, the colors of the

---

(17) Matson in the American Ceramic Society Bulletin, Vol. 34, No. 2, 1955, P. 34, Fig. 2.

(18) Such as: Tell Hassuna, Cf. Lloyd, JNES, Vol. IV, No. 4, 1945, P. 265, Nineveh I. Cf. Thompson and Mallowan, AAA, Vol. XX, 1935, P. 150; Arpachiyah, Cf. Mallowan, Iraq, Vol. II, 1935, P. 175; Amuq, Cf. Matson, in JACS, Vol. 28, No. 1, 1945, P 22; Ras Shamra, Cf. Schaeffer, Syria, Vol. XVII, 1936, P. 130; Mersin, Cf. Garstang, Prehistoric Mersin, 1953, P. 18; Secjegozu, Cf. Garstang, AAA, Vol. XXIV, Nos 3-4, Pp. 130, 132; Tarsus, Cf., Goldman, Excavations at Gozlu Kule, Tarsus, Vol. II, 1956, P. 66.

4. White: Obtained from kaoline and white marl or calcium carbonate.

The identification of a paint's composition is a chemical task. There are, however, a few field methods that may be used for preliminary determination:

1. Iron base paints may be distinguished by the use of a magnetic bar. When the scraped paint powder is attracted and stuck to the bar, the paint is derived from iron compounds.

2. To distinguish iron from manganese paints, a test(16) is required. In this test the scraped powder is placed on a glass slide and treated with a 1:1 solution of hydrochloric acid. On heating on a low flame, if iron is present, the solution will turn yellow - (a ferric chloride formation). If the paint powder is treated with a drop of 1:7 solution of nitric acid with sodium bismuthate used as an oxidizing agent, the drop will turn purplish pink (a sodium permanganate formation) which is a clue to the presence of manganese.

3. Organic paints may be determined by converting carbon to carbon dioxide gas on heating. A drop of hydrofluoric acid is needed before heating to dissolve sillicates because the paint from juices is absorbed by the clay. If the paint is not carbonic, but a black iron oxide it will turn to red ferric oxide in this test.

d. Techniques of Coloring

The use of more than one color in ceramic decoration is found in many varieties:

1. Polytone is produced by applying the same paint twice, once heavily and once lightly.

2. Bichrome is produced by applying the first paint before firing and the second after firing. The post-firing paint is fugitive unless it is refired at a different temperature. Bichromy also may be obtained by applying two paints at different temperatures during the baking process.

3. Polychrome is produced by the use of bichromy on a white slip, or the use of two paints at different temperatures and the third in the post-firing state, or the use of three paints at different stages of the baking.

The kind of pain - whether organic, mineral, or clay - and the

---

(16) Shepard, 1956, pp. 141 - 143.

shows that the three wares to be discussed here bear paints of any organic origin.

II. Mineral Paints

1. Iron Oxide Paints

For the most part these include magnetites, limonites, and hematites. The red and yellow ochres that contain iron-oxide or hydrated iron-oxide are considered earthy hematites.

Limonite hydrous oxides are transformed into red ferric oxides because of dehydration on firing. Red iron oxide paints are also used in a post-firing application as a fugitive hematite wash.

Black iron-oxide paints are produced by using magnetite in a neutral stmosphere or hematite in a reduced atmosphere. The original paint can be determined by refiring the sherds. The paints when having the color of ferric oxide are hematites that were not reduced or magnetites that were oxidized. The second step is to dteermine the firing atmosphere. The color of the clays would give us the clue. If it were oxidizing, magnetites would convert to ferric oxide, and the clay would have oxidized. If it were reduced, then the clay would be gray and the paint derived from magnetite oxide. If neutral, the carbonaceous clay would not be oxidized and the ferric oxide would not be reduced.

2. Manganese and Iron-Manganese Paints

The common oxides and hydroxides of manganese give black or brownish-black paints which will remain unchanged when fired in an oxidizing stmosphere. The different shades of the dark brown and the brownish-black are produced at different temperatures. Iron oxide that occurs with manganese oxides does not produce any great change in the color of the paints.

III. Clay

Kaoline and white marl give a white paint upon firing.

In short, the colors of the commonly used paints include:

1. Black and brown-black: Obtained from iron oxides, iron-manganese ores, graphite, and plant juice.

2. Dark brown: Obtained from iron manganese ores.

3. Red, orange, yellow, buff, and purplish gray: Obtained from iron oxides and ferruginous clays.

and give it a shiny effect. Burnishing might be done while the pot is in the leather-hard condition, or else after firing, with a soft piece of stone, pebble, or leather. In burnishing a vessel, all its pits, grooves, and depressions will stay open. There is no way of leveling them unless the vessel is scraped down.

The operation of burnishing is considered an advanced technique, and is of value for ceramic identification.

b. Slip and Wash

Slip is a well levigated clay used as a coating on the exterior, the interior, or on both these surfaces of the vessel to give it a smooth appearance by filling in the pores, grooves, and other depressions. It may be prepared from the same clay of which the vessel was made or from a different clay. In the first case it is considered as a "self slip" and in the second it is characterized by color identification. Slip is usually applied to the vessel in its leather-hard state. After baking, it may be burnished so as to produce a lustrous appearance. Otherwise it is matt.

Wash is the coating that is applied to the vessel after firing. It is therefore fugitive and rubs off easily.

c. Paint

Paints used in ceramic decoration are either organic, mineral, or else of clays.(15)

I. Organic Paint

1. Plant Juice

The paint obtained from this source is black carbon, if the temperature is low and the firing is short. If the temperature is high and the duration of baking is long, carbon will burn out leaving only traces of white ash.

2. Graphite

Principally organic. It is found in metamorphic carbonaceous deposits and rocks as well as in coal beds. It also comes from non-organic souces. Graphite produces a black carbon paint when rubbed on a vessel either before or after firing. In the first case medium is required and in the second the temperature must be low.

As far as tests are concerned, the writer knows of on record that

(15) For the followng details the writer depends on laboratory experiences and experiments reported in Shepard's, 1956, pp. 31 - 42 171 - 181, 385 - 390.

cracking of the vessel in its leather-hard stage or during the firing process. For definite identification of the various impurities a petrographic or a binocular microscopic test is required.(11)

Except for those materials added by the potters for binding, the occurrence of the various impurities usually have no meaning in terms of technical actions, inherited traditions, and cultural relations.

b. Porosity

The true porosity of a vessel is the ratio of the volume of the pore space to the total volume of the piece; the apparent porosity indicates the percentage of the open pores per unit volume of its bulk volume.(12) The determining factors of the porosity of a vessel are the quality of the clay, the size and the quality of the impurities and the temperature at which the vessel was baked.

The apparent porosity may be determined through a laboratory test. First the dry sherd is weighed, then saturated in boiling water, then weighed at once. The difference between the dry and the wet weights is the volume of the pores that could be reached by water. The total volume of the sherd is obtained by measuring the amount of water that the saturated sherd had displaced.(13) The apparent porosity is established when the volume of the pores is divided by the total volume multiplied by 100. the calculation would be as follows:

$$AP = \frac{VP}{TV} \times 100$$

Matson has made porosity tests on some potsherds from eight Iraqi sites. The pottery wares and the sites are unknown. The average value for 103 sherds was 34.2 per cent.(14)

Since our early prehistoric wares contain impurities of various sizes and qualities, and since the potters at this early date had no means of controlling temperature, porosity must be considered less useful for ceramic classification because it varies with the temperature and the inclusions not only from site to site but even from vessel to vessel.

3. Treatment

a. Burnish

The purpose of this process is to smooth the surface of the vessel

(11) For details of such studies see Shepard, 1956, pp. 139-141.
(12) Matson, in Papers of the Michigan Academy of Science, Arts, and Letters, Vol. XXVI, 1941, P. 469, Shepard, 1956, P. 125.
(13) Shepard, 1956, P. 127; Matson, 1941, p. 470.
(14) Matson, 1941, pp. 472-474.

(or coils) were built up one over another to the desired or required height. The vessel wall might then be thinned by pressing, and evened out by wet-smoothing.

Evidence of coil structure is present at Mersin,(8) and probably at thell Hassuna.(9) Whether the Near Eastern potter did use the paddle-and-anvil technique of his New World counterpart, we do not know.

Ubaid pottery has been described as being made on a slow wheel or tournette(10) which seems to be an assumed logical stage between hand-made and true fast wheel-made techniques. Actually there is no definite reason for this assumption, at least not in the case of the three wares under discusion: Hassuna, Halaf, and Ubaid. For instance the circles traversing the pot can easily be made by thumb impressions during the process of wetsmoothing. Such finger impressions are clearer on small vessels made of well levigated clay. They are faintly visible or invisible on large coarse pots because of the heavy large-sized impurities. Assuming that the ancient Near Eastern potter had a slow wheel, why did he use it only for some of his products ? Further, the prehistoric pottery which is described as being tournette-made was found for the most part in mixed renge deposits that also contained Uruk and Jamdet Nasr pottery, both of which are obviously wheel-made. Thus it still seems more reasonable to think of pottery as being made by hand in Iraq until the introduction of the wheel method by Uruk people in Uruk period.

The methods of construction may be a clue to cultural interactions of ceramic groups, although identical problems can reach similar solutions independently. Nevertheless, the method of construction should not be neglected when wares and types are concerned.

2. Properties

a. Impurities

A preliminary inspection of a potsherd under a 20-power geological lens reveals particles of various materials with different colors and sizes. Some of these, such as quartz, mica, limestone, shell, jasper, and volcanic ashes are natural products deposited in the clay by many physical factors. Others, like chaff, grass, roots, straw, and broken potsherds were intentionally added by the potter to prevent the possible

(8) Garstang, Prehistoric Mersin, Yumuk Tepe in Southern Turkey, 1935, P. 36, Fig. 20 : 19.

(9) Safar, in JNES, Vol. IV, No. 4, 1945, P. 277.

(10) Woolley, Ur Excavations, Vol. IV, 1956, P. 8; Hall and Woolley, Ur Excavations, Vol. I, 1927, P. 162; Cros, Heuzey, and Dangin, Nouvelles Fouilles de Tello, 1914, P. 310; Haller, Die Keramik der Archaischen Schieten Von Uruk in UBV, No. 6, 1932, pp. 32 - 34.

In these events the stratified objects may be mingled as a result.

To avoid confusion, excavators are reminded to check the findings in the light of their stratigraphy and "report the full account of the problems involved in order to enable later researchers to make their own conclusions."(6)

When the ceramic materials are excavated, the identification of the individual fabrics in terms of ceramic wares, types, and varieties, must be made on the basis of a detailed study of their clay, technology, shapes, and designs.

1. Clay

The quality of the clay provides a basis for distinguishing native from imported vessels. The chemical composition of the clay and the atomic structure of the minerals in the clay from (a) the potsherds and (b) the soil samples from the site can be determined by spectrographic analysis and X-Ray diffraction.(7) Such a test would establish whether the vessels were made of native or foreign clay. Allowances may have to be made for a possible use of the native clay by the invaders, or the migrators' use of their own otherwise foreign ware. This could be detected by contrast with other ceramic traits.

2. Technology

The technical traits of a ceramic ware include: the method of its construction, its properties, and its treatment.

1. Construction

Pottery can be made by hand, or in a mould, or on a wheel. Only the first method was used by the early prehistoric Near Eastern potters. By analogy with modern practice it was carried out in two ways:

a. By shaping lump of clay with the hands to the desired or the required form. A hole was first opened in the center of the lump by vertical introduction of the thumbs. The walls were then thinned and built up at the same time, by pressing back and raising the wet clay iwth the aid of wet-smoothing.

b. By building up the vessel in a coil structure. The clay spirals

(6) Frankfort, Studies, 1924, p. 3.
(7) Shepard, Ceramics for the Archaeologist. Carnegie Institue of Washington, Publication. No. 609, 1956, pp. 143, 146.

funerary purposes. Compared to stone as a material, pottery is lighter, easier to make and in less time, and porous.

It seems likely that pottery-making was not accidental as suggested by Frankfort,(4) because this process needs a fair amount of industrial thought and technical preparation. In Iraq, we must assume, it was made first in the Hassuna period since no pottery earlier than Hassuna is known there.

Ceramic studies are very useful for past cultural reconstruction. They demonstrate the existence of detailed technical methods in use by the early potters in the manufacture of their wares. They also cast light on the past cultural interactions, religious practices, and other aspects of ancient life.

1. Bases for Ware Classification

Pottery is fragile, but the broken potsherds remain fairly indestructible(5) in prehistoric deposits. When a cultural group was replaced at a site for some reason, or a site was shared with new comers, or finally destroyed, or abandoned, the ceramic records of these events usually would remain.

The Near Eastern sites generally belong to more than one culture. A site develops into a tell, or a mound, made of various accumulated occupational debris. These deposits are stratified, level upon level, up to the present day surface. There potsherds are usually scattered through the composite representation of the mound's successive eras. The sequence of cultures in the mound usually lies safe, though some disturbances caused by animals, man, or nature are to be expected:

1. Disturbances coused by animals include for the most part those by the gopher or the Near Eastern jumping mouse, called jarboo'a by the natives. These animals build their nests deep in the ground, sometimes as deep as the virgin soil below the mounds. Thus, they cause displacement of small objects from one level to another.
2. Disturbances caused by man when digging burials, wells, and pits for brick making or repairing buildings. Considering the results of his work, man is as detrimental in these cases as his counterpart, the mouse.
3. Disturbances caused by nature include earthquakes and floods.

(4) Frankfort, Studies, 1924, P. 12.

(5) "The crystallization of salts from ground water will cause some low-fired pottery to disintegrate," cf. Matson, 1955, p. 33, footnote No. 3.

CERAMICS IN ARCHAEOLOGY

T. Dabbagh, Ph. D., (Harvard)

Rr. Phil.

In a historical site archaeologists rely on clay tablets or other written documents for piecing together knowledge of the past, but in a prehistoric site the manufacured objects stand as an immortal record of preliterate man. They are of great aid to the archaeologist in tracing the history of the site under investigation. Thus, in a prehistoric non - ceramic assemblage, stone objects are of paramount value for palaeolithic research, while in a prehistoric ceromic horizon pottery comes to the fore.

Man certainly did use containers made of materials other than clay before the invention of pottery. Frankfort suggests by analogy with living groups that leather and wood were the raw materials that preceded pottery making for containers.(1) This suggestion, though it has no definite archaeological support, in the absence of actual findings of such materials, might be true in a jungle culture but so far lacks evidence in the Near East.

Recent excavations at Jarmo (a well stratified site in northern Iraq) yielded stone vessels in the pre-ceramic levels 8-6, as well as in the ceramic levels 5-1.(2) The Jarmo assemblage seems not only to provide evidence of stone containers preceding pottery vessels but also certain features in shape profiles(3) that suggest some continuation of previous traditions.

Pottery seems to have been made first when man established himself in a village community as a food producer. It is, so far, still true that no class of pottery has been found that is characteristic of caves alone; every ceramic ware found in caves can also be related to non-cave settlements in early or later village sites. Among his other new achievements, man at the village level invented pottery for cooking, cooling water, storage, transportation, ritual, ceremonial, and

---

(1) Frankfort, Studies in Early Pottery of the Near East I. Royal Anthrapolgical Institute, Occassional Papers, No. 6, 1924, P. 12.

(2) Adams. The Jarmo Pottery and Stone vessel Industries. Unpublished M. A. Thesis. University of Chicago, 1952, P. 4.

(3) The following shape types occur in stone at Jarmo, cf. Adams, 1952: Type 16 in levels 8-6, cf. Fig. 10 : 3; Types 1, 12, 15 in levels 5-3, cf. Fig. 11 : 8, 4, 10; Types 15 and 16 in levels 2 - 1, cf. Fig. 12 : 2, 12.

CONTENTS

BULLETIN

OF

THE COLLEGE OF ARTS

VOLUME 2

FEBRUARY, 1960

Issued By
The College of Arts, Baghdad University

Printed at Al-'Ani Press, Baghdad